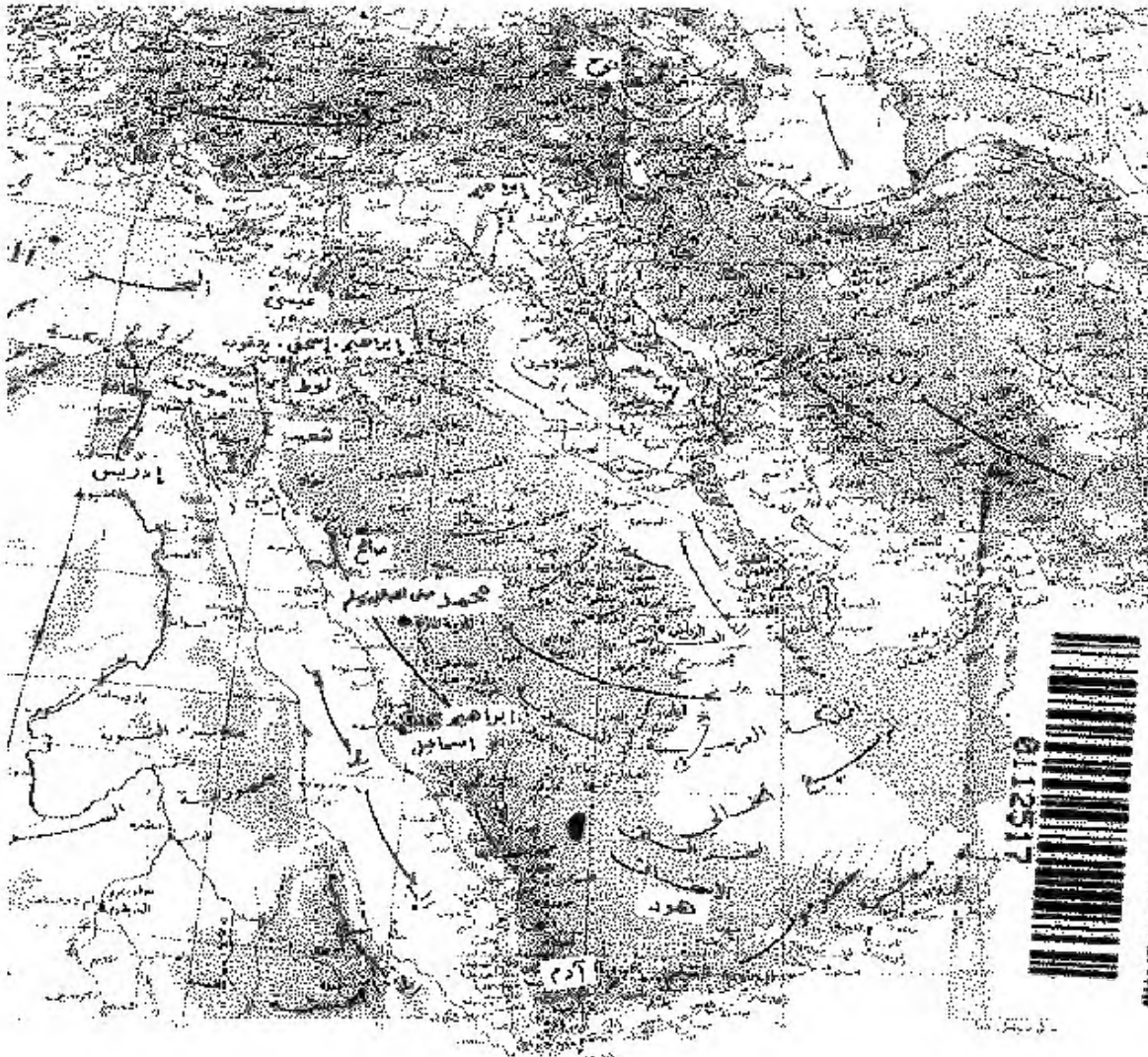


قصة الأنبياء والتنزيل

الجزء الأول
آدم - شيث - إدريس - نوح
هود - صالح .. عليهم السلام

تأليف
د. رشدي البربري
الاستاذ بجامعة القاهرة



قصص الأنبياء والتاريخ

قصص الأنبياء والتاريخ
د. رشدي البدرابي
١٩٩٦ - حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع ٨٤٦٦ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي I . S . B . N .
977 - 19 - 1292 - 5

قصة الأنبياء

والشأن

تأليف دكتور

رشدي البدر اوى

الاستاذ بجامعة القاهرة

الجزء الأول :

آدم - شيث - إدريس - نوح - هود - صالح

عليهم السلام

١٩٩٦

إهداء

إلى روح الداعية الاسلامي الكبير فضيلة

الشيخ محمد الغزالي

فلولا تشجيع فضيلته لما تسر لي أن أمضي
قدماً في تأليف هذا الكتاب

تقديم للكتاب بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله

قصص الأنبياء من الدراسات المهمة في علوم القرآن ، ولعله أوسعها رقعة وأكثرها أهدافا ،
إن أنه يخدم العقيدة والشريعة ويدعم الأخلاق والمثل الرفيعة . .
تدبر قوله تعالى على لسان الصديق « يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله
الواحد القهار » .

إن الكلام يرهان على الإيمان بالله الواحد ، فهو يدخل في باب العقيدة قبل أن يكون جزءا
من قصة مروية .

وتدبر رد يوسف على إخوته عندما جاءوا يستجدون به على ما أصابهم من قحط « قال أنا
يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

في هذا الرد قانون عام عن نتائج الصراع بين الخير والشر ، وعن سنن الله الكونية في
المجتمع الإنساني ، وما أفقرنا إلى دراسة هذه السنن ، فإن الأمم كالأجسام الطاقية تملو
بميزان وترسب بميزان ، وليس النصر والهزيمة قوضى . .

ومجال البحث في قصص الأنبياء من القرآن رحب ، ولكنه - في نظري - محرم على
الخرافيين والخياليين ، وقد قرأت لبعض المؤرخين وبعض المفسرين مرويَّات ونتائج - وهم
يتحدثون في قصص القرآن - فكرهت صنيعهم كما عافه أيضا الراسخون في العلم ، وتعبقوه
بالتحصيل والتصويب ، من هؤلاء « ابن عباس » في كتابه بدائع الزهور ، والخازن في تفسيره
المشهور ، وآخرون يحتاجون إلى المنطق العلمي حين يكتبون

من أجل ذلك سررت أن يؤلف في قصص الأنبياء طبيب حاذق واع هو الدكتور رشدي
البدراوي الذي تفرغ لموضوعه وأحاط بأطرافه ، وكتب متقيدا بأصول البحث العلمي والسرد
التاريخي الدقيق ، فجاء كتابه هذا كما يهوى العلماء المحققون صادق السرد سهل العبارة
محكما بالدلائل القوي والاستنباط الواضح ، وأمتاز بمصورات جغرافية تحدد مسار الأجيال
المختلفة ، ورسوم لشجرات الأنساب التي تحدد الأسلاف والأخلاق .

ولا أنكر أنني رأيت هذا في مؤلف سابق مع الحاجة إليه . . وأقترح أن يصدر أطلس يحدد
الأمكنة والبلاد التي تحدث عنها القرآن الكريم ، مع معلومات تعتمد على اليقين أو التراجع في

ذكر الأحداث والأشخاص ، وأنا مع جمهور المفسرين في أن القرآن لا يفسر بالنظريات العلمية وإنما يُفسر بالحقائق المستقرة . . .

ويؤسفني أن رسالة صدرت في الأونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات وحسب ! ، وأنه قد يستخدم في سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز مقطوعة عن الواقع التاريخي والصدق العقلي!!

وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال في آخر سورة يوسف « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

والدكتور رشدي جدير بالثقة فيما يذكر من آراء ، وأسوق هذا المثل لأوضح ما أعني . في سورة « المؤمنون » سرد لقصة نوح وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم ، ثم قال الله تعالى بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان « ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدا الله ما لكم من إله غيره . . . » .

مَنْ القرآن الناشئ؟ وَمَنْ رسولهم؟

كنت أفهم من السياق أن المقصود « عاد » وتبنيهم هود! لأن الله سبحانه يقول في سورة الأعراف - والكلام موجه لعاد قوم هود - « اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة » .

ولكني رأيت الدكتور المؤلف يقول: إن القرن الناشئ هم ثمود!

فعدت إلى التفاسير فوجدت الرأيين المذكورين معا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد! فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت أن ثمود أهلك بالصيحة في سور القرآن الأخرى وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد في سورة المؤمنتين فيقول « فأنزلناهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقرن الظالمين » !!

فقلت رأي الدكتور أرجح!! . جزاء الله خيرا مما بذل وحقق ، وأعانه على إتمام كتابه هذا بروح من عنده .

محمد الخزالي

محمد الغزالي

تصنيفه الديني
يقدمه
في هذا الكتاب من العلوم الغزالي أو سطره رتبة وأثرها
أما في ما ذكره في مقدم العقيدة والشرعية ويدعم الأخلاق والثلث الرفيعة
تقدم قوله تعالى على ما في يوسف الصديق «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون
خير أم الله الواحد القهار» في الكلام برفاهية علم الإمام بالله الواحد وهو
يدخل في باب العقيدة قبل أنه يكون جزءاً من عقيدة عروية وتقدمه يوسف
على آخره عند ما جاء في سورة يونس «يا أيها اليمانيون قولوا لله الشكر والحمد»
أخيراً في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»
في هذا الجزء تأنيدي عام عنه تأنيح المراجع إليه الخير والشر، وعنه سيرة الله والكرامة
في الجمع بين سائر ما أفقده إلى حكمة هذه السيرة، فإله الذي كان لأجرام
الطاقة تعلقوا به من سبب غير الله وليس الله والهيمنة فوضه
ومحال البحث في القصص الغزالي رغبته في نظريته في حرم على الغزاليين
والخيال ليس، وقد مرأت لبعضه الغزاليين وبعضه فيسرين في روايات وشائج
وهم يتقدمون في قصص الغزاليين - فحدثت منيهم كما عاينه أيضاً الغزاليين
في العالمين، ويتقدمون بالتميز والتميز من هذا الكتاب في كتابه بغيره
والغزاليين في تفسير المشهور والتميز من كتابه إلى المصلحة العليا عليه بكتوبه
[منه] أصل في أنه يؤلف في قصص الغزاليين حبيب حافله وراغ
لهو الدكتور سدي البديوي الذي تفرغ لموضوعه وأجاط بأطرافه
وكتب تنقيداً بأحدون البحث العلمي وأسرر الشارح في الحقيقة، فجاء
كتاباً هذا الكتاب هو العلم والمحققين صارت السرد حصيل العبارة
ممكن ما بالدليل القوي والاستنباط الواضح، وإشارته بمراتب جوازها
تتمتع بشار الأحياء المختلف، ورسوم لسرات الأناجيد التي تحرك
الأسلاف والأخلاف، [ولا أذكر أني رأيت هذا في مؤلف سابع مع الحاجة إلى]

محمد الفزالي

وأفتت مع أنه يصدر أفلسي بحمد الأمانة والبلاد التي تحدث عن الفناء المكرم مع
 طوارق معتقد علم المبتدئ أو المراجع في ذكر الأحداث والأشخاص وما كان
 جهور المفسرين في أمه القرآن لا يفسر بالظواهر العلمية ولا ما يشترع بالحقائق
 المسبقة... [أولئك سفيان] أمه رسالة محمد في الآخرة المأخوذة من علم أمه القرآن
 بهتم بتقرير العبارة واستخراج المعاني وحسب ما رواه في نسخة في سبيل من
 عبارات قائمة على التبال والتخارج مظهرة عن الغامض النازح في وأصدره العقل لا
 في هذه الكلام كذب على الإسلام وكذا في الذي لا يشبه الباطل من بعدهم ولا من
 خلفه وقد سلك الفناء علم قيمته عند ما قال في آخر سورة يوسف لا لقد كان
 في قصصهم عبرة لأولئك الناس ما كان من دعاء يعزى ولكن قصصهم الذي يبره
 يتصل بكلامه في قوله «ورحمته لقوم يؤمنون» أو الدكتور بشير جدير بالثقة فيما
 يذكره. بعد آراء وأصوله هذا المثل لأدعهم ما أفهم في سورة «المؤمنين»
 سرد لقصة فرج وكيف أصاب الله قومه في ليل كثرهم وعنادهم ثم قال الله تعالى
 بعد أن قص على المكذبين بالظن أنه «ثم أنشأنا من بعدهم قوماً آخرين فأرسلنا
 فيهم رسولاً من أنفسهم أتبعوه وألهمهم ما كنتم به إليه خبيثة...» فيه القصة الناشئة من
 رسولهم آتاهم من السماء أمه القصود عاد فيهم هوود آتاه الله سبحانه
 يقول في سورة العنكبوت «وما الكلام العاد قوم لصوص...» وذكروا المذبحكم
 خلفاً له بعد قوم فرج وذا حكم في الخلقة حجة «وكفى من أبيت الدكتور المؤلف
 يقول: أمه القصة الناشئة من قوم فرج آتاهم من السماء أمه القصود عاد فيهم هوود آتاه الله سبحانه
 مع ترجيح أنه الجبل الناشئة هو عاد بالبعدت إلى المؤلف لا تعرف تخيل على
 ما قال في حديثه ثبت أنه قوم أو أصابك بالصفة في سورة الزلزال الزلزال
 وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا الزلزال في سورة المؤمنون فيقول «وأخذتم
 الصلوة بالجمع فجمعناهم قتيلاً فبعثناهم قتيلاً بعد لقوم الظالمين» لا فعلت ما في الدكتور المراجع !!
 حيناه الله عز وجل ما يزل وحقه وأعانه على إتمام كتابه هذا مع به عبده.

محمد الفزالي

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

ج - و	مقدمة فضيلة الشيخ محمد القزالي
١	مقدمة المؤلف
٩	آدم عليه السلام
١٤	حواء
١٥	في الجنة
٢٢	في الأرض
٢٧	قصة هابيل وقاينيل
٣٠	هل كل آدم نبيا أم رسولاً
٣٢	أبناء آدم
٣٥	الأرض
٤٣	شيث عليه السلام
٤٥	إدريس عليه السلام
٤٩	كيف وصل إدريس إلى مصر
٥١	مصر قبل إدريس
٥٤	إدريس عليه السلام
٥٨	هل هرمس الهرامه هو إدريس
٦٠	مصر بعد إدريس
٦٠	أ - الديانة المصرية القديمة
٦٨	هل أوزيريس هو إدريس
٧١	ب - أثر إدريس على الديانة المصرية
٨٤	نوح عليه السلام
٨٤	العراق قبل نوح
٩٠	نوح في قومه
٩٩	صنع السفينة
١٠١	الطوفان
١٠٢	من دخل السفينة

١٠٦	اختلاف قصة التوراة
١١١	هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً
١١٧	طوفان أم فيضان
١١٩	الحفريات الأثرية والطوفان
١٢١	قصة الطوفان السومرية
١٢٦	قصة الطوفان البابلية
١٢٨	قصة الطوفان في التوراة
١٣١	أخبار عن نوح عليه السلام
١٣٣	أنباء نوح عليه السلام
١٤١	هود عليه السلام
١٤١	تسبيبه
١٤٥	أين كانت عاد
١٤٧	عاد قوم هود
١٥٨	صالح عليه السلام
١٧٥	المراجع

فهرس الخرائط

رقم الصفحة

٣٨	انخفاض سطح البحر فى العصور الجليدية
٣٩	منطقة البحر المتوسط فى العصور الجليدية
٤٠	الطرق الثلاث لهجرات بنى آدم
٤١	الهجرات الكبرى للمجموعات البشرية
٥٠	عبور شيث وقبيلته باب المندب
٨٦	طرق هجرات أبناء آدم والتقاء أبناء شيث وأبناء قابيل فى شمال العراق
٨٧	حضارات العصر الحجري الحديث فى العراق
١١٤	المناطق التى أغرقها الطوفان
١٢٢	بعض المدن التى وجدت بها حفريات أو قصص عن الطوفان
١٣٦	تصور لانتشار أبناء يافث وحام
١٣٩	تصور لانتشار أبناء سام
١٤٦	مكان الأحقاف
١٥٩	شجرة النسب وتسلسل أماكن الأبناء من سام إلى صالح عليه السلام

تصويب

نأسف لوقوع بعض الأخطاء المطبعية ، ولزم التنويه لتصحيحها . وشكراً

رقم الصفحة	رقم السطر	ما هو مدون	التصواب
د	١٤	من القرائن	من القرين
ج	٩	أبناء نوح	أبناء نوح
١	٣	هد	هدوا
٢	٦	سماعين	إسماعيل
١٠	٤ من أسفل	وعلم	وعلم
١٢	١٤	أنا خير من	أنا خير منه
١٣	١١	قال يا إيليس ما منعك	قال ما منعك
١٣	١٢	وقال ما منعك	قال يا إيليس ما منعك
١٤	٨	لعبه	لعبه
١٦	١٩	يحملها	يحملنها وأشفق منها
٢٢	٧	رب	ربه
٣٩	٢٢	١٠٩	١
٧٨	آخر سطر	فهو قرين	فهو له قرين
٩١	٣ من أسفل	يعضل	يتعضل
٩٢	٦	وإن أجرى	ر أجرى
٩٢	٣ من أسفل	وما نرى لكم	(٧ - ١٩ - الشعراء)
٩٢	٥	يصنعون	وما نرى لكم
٩٥	١٠	استغفروا	يصلون
٩٦	١٨	قال إن كان	ستغفروا
٩٦	٢	قال يا قوم إن كان
٩٧	٦	تسمعوا	إن أجرى إلا على الله وأمرت
٩٧	٤ من أسفل	جوابا	أن أكون من المسلمين فكذبوه
١٠١ ١٠٣	آخر سطر	سبق القول	تسمعوا
١٠٥	١٢	الحمد لله	جوابا
١١٣	١٨	خصيتاتهم	سبق عليه القول
١٤٨	٦	فقال	الحمد لله
١٥٠	١٠	قال يا قوم	خطبتاتهم
١٥٢	٢	ميكيدوني	قال
١٥٢	٢	إن توكلت	يا قوم
١٥٣	١٩	هبتظروا	هكيدوني
١٦١	١٧	يوأكم	إن توكلت
١٦٣	١٢	تاكلون	هبتظروا
١٦٨	١٥	دارهم	يوأكم
			تاكلون منه
			دارهم

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . والصلاة والسلام على رسول الله محمد (ﷺ) .

خطرت لى فكرة هذا الكتاب حينما كنت أتلو القرآن الكريم وأقرأ ما فيه من قصص الأنبياء والمرسلين . وأجد أن القصة تتكرر فى أكثر من سورة . وقد لا يوجد بينها اختلاف كبير فى اللفظ . ولكن أسلوب العرض يختلف فى كل مرة . فلا تشعر أنه « تكرر » بل « إعادة تذكرة » بالحدث ولكن من زاوية أخرى غير سابقتها . فكان الحدث أمامى . ننظر إليه مرة من هذا الاتجاه . ومرة ثانية من هذه الناحية . وثالثة من بُعد آخر . فيتجسم الحدث أمامنا وكأننا نعاصره . ونعيشه بكل وقائعه . وتتفاعل مع عناصره . ونستجيب للعبء المقصودة . ونترسب فى عقولنا ووجداننا القيمة المستهدفة من سرد القصة . فمرة يكون التركيز على مبدأ التوحيد ومرة ثانية نذكر عاقبة المكذابين . وفى ثالثة توضيح لثواب المؤمنين وهكذا . ولكن مهما اختلفت القصص . نترك أن دعوة الأنبياء والرسل دعوة واحدة لا تختلف - دعوة للإيمان بالله وحده لا شريك له وتنزيهه عما سواه . ودعوة للعمل الصالح فى الحياة الدنيا ليكون النعم فى الدار الآخرة .

والدنيا - صراع مستمر بين الخير والشر . بدأ بوسوسة إبليس لآدم حتى أخرجه من الجنة . ولم يكف عن الوسوسة فيُضل بنى آدم ويُبعدهم من الصراط المستقيم . ولكن الله سبحانه وتعالى - لم يضن على بنى آدم بالهداية فأرسل لهم أنبياء ورسلاً يهدونهم سواء السبيل . ولكن وسيلة الحفظ والتدوين لم تكن قد ظهرت بعد فى هذه المراحل الأولى من الحضارة الإنسانية . فكانت تعاليم الرسل تنسى أو تندثر أو يصيبها التحريف . فتكون الحاجة إلى رسول آخر . كما أن جماعات بنى البشر كانت متباعدة . متفصلة ومنعزلة عما سواها . لذلك كان كل نبي أو رسول يبعث إلى قومه خاصة . حتى إذا ما وصلت الحضارة الإنسانية إلى مرحلة تمكثها من تدوين التعاليم السماوية بطريقة صادقة فلا يصيبها التحريف ولا يأتى عليها الانتثار . لم يعد هناك مجال لإرسال رسل جدد . وكان ذلك هو الحال مع الرسالة الخاتمة وهى الإسلام . فقد نون القرآن تدويناً دقيقاً كما أنزل على رسولنا الكريم . كذلك كانت سيرة الرسول نفسه . بكل وقائعه . وكل أحداثه - قولاً أو فعلاً أو إقراراً لفعل . كل ذلك كان محفوظاً فى صدور الصحابة . ثم نون فى صحاح كتب الحديث . ويبلغ الرسول دعوته إلى ملوك الأرض فى جميع أقطابها . شرقاً إلى فارس . وغرباً إلى مصر . وشمالاً

إلى الروم ، وجنوباً إلى الحبشة ، ولم يعد هناك مجال لرسالات أخرى بعد رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ)

والنبي - من نبأ - والنبأ هو الخير العظیم الشأن . ويصح معنى الفاعل فهو نبي أي مُنْبيء عن الله تعالى . ويعنى المفعول لأن الله أنبأه ما يقول فهو نبي . وجمعها نبيون وأنبياء .

وبعض الأنبياء وصفوا أيضاً بأنهم رسل مرسلون . لقوله تعالى:

« وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » .

(٥٤ - مريم)

وقيل إن الرسول هو الذي أنزلت عليه رسالة أي كتاب ، مثل إبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين . ولكن بعض الرسل لم ينزل عليهم كتاب ، مثل إسماعيل ، ولوط ، ويونس ، وكانوا من المرسلين ؛ ولم يأتوا بشريعة جديدة أو كتاب جديد . ومن ثم قالوا إن الرسل هم من كان ينزل عليهم الرسول الأمين جبريل عليه السلام . أما الأنبياء فكان يوحى إليهم بالرؤيا الصادقة ، كذلك قيل إن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع والأحكام ، والنبي هو الذي يحفظ شريعة غيره ومن هنا قالوا إن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .

ولم يذكر القرآن الكريم كل الأنبياء ، بل قال تعالى :

« منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » .

(٧٨ - مافز)

وقد قص علينا القرآن الكريم قصص عدد كبير من الأنبياء .

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » .

(٣ - يوسف)

وكان قصص القرآن الكريم مجالاً لكثير من الكتاب والأدباء . هذا ذكرها باختصار لتلائم المبتدئين وذلك ذكرها بتفصيل قليل أو كثير لتشبع من يريد زيادة المعرفة .

وهنا كان لابد أن أسأل نفسي: هل هناك إضافة أستطيعها ؟ وكان الجواب : نعم . هناك مجال للإضافة ، وهو التوثيق التاريخي للقصص القرآني . فلم أجد في ما كتب عن قصص القرآن - على كثرته - خريطة واحدة توضح أماكن الأحداث التاريخية . وهذا ما هدفت إليه . وهو استكمال هذا النقص بأن تضمن الكتاب عدداً من الخرائط ، توضح أين عاش الرسل ، وكيف قدر لهم أن يوجئوا في هذا المكان أو ذاك . وكيف كانت هجرة الأبياء والأجداد - وفي هذا السبيل أتبع افتراضاً يقبله العقل والمنطق . بل وليس هناك من سبيل لافتراض غيره .

ذلك أن القوم إذا تكاثروا في مكان إقامتهم ، ضاق بهم المكان - وقصُرَت الموارد عن كفايتهم من المعيشة والسكنى . أصبح لزاماً أن يرحل البعض إلى مكان تتوافر فيه المراعى والأرض الزراعية . ومن الطبيعي أن يبقى الأب في مكانه ويرثمل الإبن ، وتتكرر بعد عشرات السنين نفس القصة ويرحل الحفيد إلى مكان آخر وهكذا . فإذا وجد أن أحد الجدود كان يسكن مثلاً في شمال العراق ، وأحد الذرية كان يعيش في مكان ماحول خليج العقبة . فإنه من المحتم أن الأجيال الموجودة بينهما تكون موزعة على الخط الممتد من شمال العراق إلى خليج العقبة .

كذلك كان التوثيق التاريخي بذكر الدول والممالك التي كانت موجودة في العصر الذي ظهر فيه هذا النبي أو ذاك .

ولقد كانت هناك صعوبة كبيرة في تحديد موضع بعض البلدان على الخريطة ، إذ أن أسماء المدن كثيراً ما تتغير على مر الأزمنة ، أو قد تندثر مدينة وتنشأ على أنقاضها مدينة أخرى ، ولزم البحث عن أطالس لأسماء المدن في هذه الأزمنة القديمة .

ونفس الصعوبة وجدت عند تحديد العصر التاريخي لظهور بعض الأنبياء ومعاصريهم من رؤساء الدول . وعلى سبيل المثال قالتوراه وجميع كتب التفسير الإسلامية تذكر اسم الثمروود على أنه الملك الذي أمر بالقاء إبراهيم عليه السلام في النار . ويالرجوع إلى كتب التاريخ لا نعث على ملك بهذا الإسم إطلاقاً ، وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر قصة إبراهيم عليه السلام . ومثال آخر: فلا يزال الخلاف محتدماً حول من هو فرعون موسى .

ولا مندوحة لمن يتصدى للكتابة عن قصص الأنبياء من أن تكون التوراة أحد مراجعه . والتوراة الأصلية ضاعت عند السبي وأعاد أحبار اليهود كتابتها في المنفى . ولكن هذه الكتابة لم تكن مطابقة للتوراة الأصلية لعدة أسباب منها :

— التحريف : « يُحرّفون الكلم عن مواضعه » .

— النسيان : « ونسوا حظاً ما ذكروا به » . (١٣ - التوبة)

— إغفال ذكر بعض الحوادث . مثل إغفال ذكر قصتي هود وصالح عليهما السلام ، أو رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز .

— زيادات : أي إضافة أشياء لم تحدث ولكنها تخدم هدفاً ارتثوه فوضعوها ضمن ما كتبوه ليؤمنوا أنها من عند الله .

« هويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم . ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . هويل لهم مما كتبت أيديهم . وهويل لهم مما يكسبون »

(٧٩ - البقرة)

وحينما ترجمت التوراة التي كتبها أحبار اليهود في المخطى - إلى العربية ، اقتبس المؤرخون الإسلاميون وكتاب التفاسير منها بون حذر . فقصت كتب التفاسير وكتب التاريخ الاسلامي بالاسرائيليات والاساطير التي دسها أدباء اليهود على التوراة الأصلية .

ولقد قسا بعض العلماء المعاصرين في نقد كتب التفسير القديمة لما تضمنته من المبالغات في بعض الأحيان . ويمكننا أن نلتبس لهم العذر في ذلك ، فلعلهم حين قرأوا الآية الكريمة : **« وأنزل إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه »**

(٤٨ - المائدة)

فهموها على أنها تصديق لكل ما جاء في الكتب السابقة ، فصدقوا كل ما حدثهم به مسلمة أهل الكتاب . وكان منهم من حسن إسلامهم . ورأوا بحسن نية أن يفصّلوا ما أوجزه القرآن الكريم في قصصه . وبالطبع جاءوا بالتفاصيل مما علموه سابقاً من كتبهم . ولم يتنبه كتاب التفاسير إلى أن بعض مسلمة أهل الكتاب كان من سوء الطوية بحيث دس أقوالاً فيها كثير من المبالغات التي تصل إلى حد الخرافات - ليؤكد للإسلام .

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن . واغوا فيه لعلمكم تغلبون »

(٢٦ - ممت)

والغرض ما لا أصل له ولا معنى له من القول وهذا ما فعلوه .

وساعد على ذلك أن العلوم والمعارف لم تكن قد توصلت إلى تفسير لبعض الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق . فقالوا إن هناك ملكاً موكل بالسحاب ومعه مقراع من حديد يسوق به السحاب . والرعد هو زجره للسحاب . والبرق نار تخرج من فيه !!

كذلك كان تفسير الآيات على غير قصدتها

« وإن متهم لفريقاً يلوون السجدة بالكتاب لتحسبوه من الكتاب . وما هو من الكتاب »

(٧٨ - آل عمران)

ويقول ابن كثير إن أخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام .

- منها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله

- ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً .

- ومنها ما هو مسكوت عنه . وهو المأثور في روايته بقوله عليه الصلاة والسلام « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يُصدق ولا يُكتب .

وفى رأينا أن أخبار أهل الكتاب تكون كالاتى :

- ما علمنا بصحته لما عليه دليل من الكتاب أو السنة - ينطبق عليه الحديث . . « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج »

- ما علمنا بكذبة لمخالفته الكتاب أو السنة .

- ما هو مسكوت عنه ، فهذا هو الذى ينطبق عليه الحديث الشريف « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » فلا يصدقهم فقد يكتونوا يروون كذبا . ولا نكذبهم فقد يكون ما يقولون هو صدق .

ولقد تميز سرد القصص فى القرآن الكريم بإيجاز . بل وإيجاز شديد أحيانا حتى ليكاد يكون مجرد إشارة عابرة ولكنها مع ذلك تفى بالغرض المقصود .

روى أحمد عن عمر حديثاً أن رسول الله (ﷺ) خطب الناس فقال : أيها الناس ، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصاراً . . . الخ الحديث

فالاختصار مطلوب لأن سرد القصص فى القرآن الكريم لم يكن بهدف التسلية . بل كان هدفه العبرة

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

(١١١ - يوسف)

وما لا يخدم هذا الهدف من تفاصيل ، تجاوز عنه القرآن الكريم . فمثلا فى قصة نوح عليه السلام ، لم تكن أبعاد السفينة ذات أهمية ، إذ العبرة هى أن الكافرين كانوا هم المغرقين .

« مما خطيئاتهم أغرقوا . فأدخلوا نارا » .

(٢٥ - نوح)

ولكننا نجد التوراة تحدد أبعاد السفينة بالذراع طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، ثم يأتى آخرون ويظنون أنه كلما عظمت أبعاد السفينة كان ذلك أدعى إلى الإيمان بقدرة الله تعالى فقالوا طولها ٦٠٠ ذراعاً وقال آخرون ٨٠٠ وقالوا بل ألف ذراع وقال غيرهم ألف ومئتان وراة غيرهم فقال ألفى ذراع . وفى الماضى كان هذا الكلام يؤخذ على علته . أما فى عصرنا الحالى ، فقد أشتدت الحملة على الإسلام ، ويحاول المبشرون والمستشرقون النيل منه فبدأوا فى إظهار هذه اللبالات وتضخيمها ونسبتها إلى الفكر الإسلامى لأنها موجودة فى كتب التفسير . ولما أنصفوا - ورجعوا إلى أصولها - لعرفوا بل تيقنوا أنها دخيلة على كتب التفسير . ولكن أنى لهم أن يفعلوا ذلك ! !

وزاد الطين بلة أن بعضاً من هؤلاء المدافعين - ليقنعوا الناس بأقوالهم المبالغ فيها - نسبوها إلى بعض الصحابة - والبعض كان أكثر إجتراءً فوضع أحاديث عن رسول الله (ﷺ) تؤيد أقوالهم . ولم يكن عند بعض السامعين القدرة على تمييز هذه الأحاديث الموضوعة . وعلم الحديث علم واسع - فهناك الحديث الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمنكر . وهناك أحاديث الأحاد والحديث المتواتر . وكذلك توجد أحاديث متصلة في سندها وأخرى غيرها انقطاع في السند - ومن الرواه من هو ثقة ، ومنهم من لا يعتد بقوله لعدم تمحيصه لما يسمع ، وعدم تمييزه للصحيح من المشكوك فيه أو الموضوع .

ولقد راودتني خاطر أن أتجاهل تماماً هذه الرويات عن أهل الكتاب ولا أذكرها ، ولكني رجعت فحدست أن القارئ ربما وجدها في كتاب آخر فيظن قصوراً مني بعدم الإطلاع على بعض ما كتب الأقدمون . لذلك فقد رأيت أن أذكر ما جاء في كتب التفسير القديمة من أقوال غريبة - والتنبية على أنها قد تكون من مدسوسات بعض أهل الكتاب من إسرانيليات أو موضوعات ، ونقدها نقداً يتمشى مع روح العصر الحالي .

كذلك قد يرى البعض أني أكثر من ذكر ما جاء في التوراة ، ونقلت فقرات عديدة بنصها الذي جاء في التوراة . وقد قصدت من وراء ذلك أن أوضح للقارئ العنصر البشري للسرد التوراتي للأحداث . ففي بعض الأحيان ينسبون للأنبياء أشياء لا يتصور صدورها من أشخاص عاديين . فما يالنا يا أنبياء معصومين!! ذلك أنهم لم يكونوا يوقرون الأنبياء التوقيير اللازم ، ولا كانوا ينظرون إليهم نظرة الإجلال والإكبار التي تحملها - نحن المسلمون - للأنبياء جميعاً .

كذلك قصدت أن يلمس القارئ بوضوح أن التوراة الحالية شبيء مغاير للتوراة الأصلية التي ضاعت منذ السبي فكتبوها من جديد . ولم يكونوا أمناء منذ إعادة كتابتها . فليس فيها العبرة والعظة المرجوة من سرد قصص الأنبياء . بل مكتوبة على غرار عامة الكتب التاريخية من التسلسل المألوف للأحداث . كذلك سيلمس القارئ مدى انحراف فكرتهم عن الإله . فهم - وإن كانوا يؤمنون بإله واحد - إلا أنهم تصوره على هيئة إنسان ، يأكل ويشرب ، ويتعب ويستريح . فيقولون في الصباح الثاني تكوين : فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل خالفاً .

وينقئ القرآن الكريم هذه الفرية فيقول -

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من

(٢٨ - ق)

غوب »

كما أنهم ينسبون إلى الله أعمال الإنسان ، فذكروا أنه كان ماشياً في الجنة ، وأنه كان

يصارع ويأكل ويشرب ، وأنه دفن موسى حين مات في مزاب (عباس العقاد)
كما أن كتاباتهم يتضح منها إيمانهم بمبدأ تجسد الإله فيقولون في الاصحاح الثاني عشر
تكوين :

فظهر له (لإبراهيم) الرب عند بلوطات معرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ،
فرفع عينيه ونظر ، فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب
الخيمة وسجد إلى الأرض وقال : ياسيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عيذك
وتستمر التوراه. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما
أمام الرب وبعد مراجعة مع الرب - استغرقت صفحة كاملة - قالوا. وذهب الرب عندما فرغ
من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه .

وتجلى نظرة التجسيد للإله في أنهم يخاطبونه كما يخاطب البشر بعضهم بعضاً مثل: حدث
آن قايين قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقايين : أين أخوك هابيل فقال لا أعلم
أحارس أنا لأخي؟ وهو سؤال استنكار لا يجب أن يصدر من عبد يخاطب الله سبحانه وتعالى!!
أما الإسلام فهو يقول عن الله. ليس كمثله شيء - وله الصفات والأسماء الحسنى وينزهه
عن التجسد . بل حتى عن التصور . وكل ما خطر ببالك فهو غير ذلك .

والقرآن الكريم - كلام الله - لم يصبه تحريف ولا تبديل . جاء مُعْجَراً في لفظة ونسقه
ومعناه . فهو فريد في كل ذلك، فنرى فيه المسائل العقائدية والأحكام الشرعية والتعاليم الخلقية
والدعوة والنصيحة والعبرة والعظة والزجر والتخويف والترغيب والحجج والبراهين
والشواهد والقصص التاريخية والاشارات إلى آيات الله في الكون . كل ذلك يتكرر بعبارة
بين حين وحين بوجوه متباينة وأساليب متعددة . وإذا ذكرت حادثة تاريخية لم تذكر على
الأسلوب السائد لكتابة التاريخ . وإذا أتى بتشريع جاء به بصياغة لم يعتدها أصحاب
التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال . وعند عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة
السلوك يختار نمطاً يفاير سائر ماكتب في هذا المجال . وهو بهذا فريد في نظمة . فمثلا
عند سرد إحدى قصص الأنبياء تجد يتخلل السرد أحيانا حديث عن السماء كيف خلقت وعن
الانسان نفسه كيف خلق وعن الأمم الخالية وما حدث لها . لا ليدرس الانسان التاريخ من
خلاله ولا لتدرس علوم الطبيعة مما جاء به . بل ليقر في الأذهان مبدأ وحدانية الله وأنه خالق
كل شيء وهو رب كل شيء وهو الوحيد الجدير بالعبادة ويركز على مبدأ مسئولية الانسان
عن عمله . وهكذا . . ويتكرر ذلك عدة مرات . في كل مرة بلفظ جديد ولترسيخ قيمة جديدة
وهكذا جاءت قصص الأنبياء - في القرآن الكريم - في عدة سور . ولكنها - كما سبق أن
قلنا - نظرات متعددة من زوايا مختلفة .

ولكننا - نحن البشر - نرغب أحياناً في أخذ فكرة متصلة متواصلة عن هذا النبي أو ذاك وربط ظهوره بالأحداث على مسيرة التاريخ . وهذا ما حاولته في هذا الكتاب .

وكننت قد عرضت فكرة هذا الكتاب على الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي في مقابلة مع فضيلته في ديسمبر العام الماضي . فاشفق عليّ لما علم بمقصدي . ولكن فضيلته اقتطع جزءاً من وقته الثمين ليقرأ بعض ما كتبت . ثم شجعني على المضي في هذا الاتجاه وكان أكبر تشجيع لي هو تفضله بكتابته وتقديم للكتاب . وقد أرسله لي ساعات قليلة قبل ركوبه الطائرة يوم الثلاثاء ٥ مارس ١٩٩٦ مسافراً للاشتراك في مؤتمر عن الإسلام والحضارة العربية بالرياض . وكان سروري عظيماً بهذا الفضل الذي أسبغه عليّ . ولم يكن وقت فضيلته يتسع للمرور عليه بالمنزل لأشكره فاتصلت تليفونيا وشكرته وتمنيت له العودة سالماً إن شاء الله . وفجعت - كما فجعت الأمة الإسلامية - بالأزمة القلبية التي فاجأته أثناء ندوة مساء الجمعة ٩ مارس . فبينما هو يتدون ملاحظاته استعداداً لتوضيح وجهة النظر الإسلامية . إذا بالقلم يسقط من يده . ونقل إلى المستشفى على عجل إلا أن روحه الكريمة فاضت إلى بارئها فور وصوله المستشفى . وهكذا سقط الفارس شهيداً في ساحة القتال التي طالما ناضل فيها - ساحة الفكر ، وسلاحه - قلمه - في يده . وكأنما كان القدر يدخر له أن يدفن بالبقيع في المدينة المنورة . مدينة رسول الله (ﷺ)

وعزأؤنا أنه - بمشيئة الله - في مقعد صدق عند مليك مقتدر . مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

ولا أعتقد أنني بهذه الكلمات بمستطيع أن أوفيه حقه من الشكر . لذلك أدعو الله أن يجزيه عنى - ومن الأمة الإسلامية - خير الجزاء .

وفي الختام - أقدم الشكر لكل من عاون بالرأي والمشورة أو بإعارة بعض المراجع وأرجو ألا ييخل على القراء بملاحظاتهم . حتى تكون الطبقات التالية - إن شاء الله - أقرب إلى الكمال

والله ولي التوفيق . . .

المؤلف

يوليو سنة ١٩٩٦

آدم عليه السلام

لما شاعت إرادة الله أن يوجد آدم على الأرض ، أخبر الملائكة فقال ، سبحانه وتعالى :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .
(٢٠ - البقرة)

لم يكن تسأول الملائكة اعتراضاً منهم على مشيئة الله عز وجل فهم منزّهون عن ذلك بل كان سؤال تعجب واستغراب .

ولعل الملائكة قد رأوا الحيوانات على الأرض وهي تتصارع ويقتل بعضها بعضاً .
واقترضوا أن الإنسان سيفعل مثلاً .

أو لعل الله أطلعهم على الغيب . وماذا سيفعل الإنسان في المستقبل أثناء حياته على الأرض

وعن مجاهد بن عبد الله بن عمرو قال : كان الجن بنو الجن في الأرض قبل أن يخلق آدم باللفي سنة ، فافسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم فلما قال للملائكة إنني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ؟ أو أنهم عرفوا أن هذه الخلافة في الأرض إنما هي تكريم ، فطمعوا أن يكون هذا التكريم من نصيبهم ، هم الذين يعبدون الله ويسبحونه . ولا يفترون عن عبادته ، فآرادوا أن يكون لهم شرف عبادته في الأرض أيضاً .

وفسر بعضهم قول الملائكة على أنه استغراب وتعجب من فعل بني آدم في المستقبل ، كأنهم يقولون وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم ،

أو كآته سؤال على وجه الاسترشاد لا على وجه الإنكار .

المهم أن الملائكة عجزوا عن فهم حكمة الله تعالى في جعل هذا الخليفة من جنس آخر يختلف عنهم .

وكان جوابه أن قال لهم : إنني أعلم ما لا تعلمون فهو سبحانه وتعالى يعلم أن عمارة

الأرض تحتاج إلى خلق آخر غير خلقة الملائكة أو الجان . خلقاً يرتبط بالأرض وديناها ، يحبها ويعمل على عمارتها . ويتحمل في سبيل ذلك الجهد والمشقة . وذلك يختلف عن طبيعة الملائكة النورانية ، أو طبيعة الجان النارية . بل يكون مخلوقاً من طين الأرض .

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين » . (٢١ - ص)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . (١٢ - المؤمنون)

وإذ تمت مشيئة الله وتحول الطين بسبب التخمير إلى الطين لزج ، يلصق بعضه ببعض .

« إنا خلقناهم من طين لازب » . (١١ - السافات)

ثم تغيرت رائحة الطين فصار صلصالاً ، أملس مصقولاً أى مستقوناً .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » . (٢٦ - الحجر)

« ثم سواء ونفخ فيه من روحه » . (٩ - السجدة)

وليس لنا أن نسأل عن ما هية الروح بعد أن قال الله في شأنها :

« ويسألك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . (٨٥ - الاسراء)

وقال بعض العلماء إنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وقالوا إن اتصالها بالجسد ينتج عنه النفس ، وعلى كل فإنه إعلاء لشأنها وقدرها ، نسبها الله إلى نفسه فقال ونفخ فيه من روحه . كنسبتنا البيت الحرام بمكة إلى الله فتقول : هو بيت الله . وقول إبراهيم عليه السلام : عند بيتك المحرم .

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي . فقروا له ساجدين » .

(٧٢ - ص ، ٢٩ - الحجر)

فكان أول ما شهده آدم بعد خلقه هو سجود الملائكة له . سجود تكريم ، لا سجود عبادة . أو هو سجود لنفخة الروح فيه . فهم لم يؤمروا بالسجود إلا بعد نفخ الروح فيه وهى دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى في بعث الحياة فيما لا حياة فيه .

« وعلم آدم الأسماء كلها » . (٢٢ - البقرة)

وهنا جاء ذكر اسم ذلك المخلوق الذى سيجعله الله خليفة في الأرض وهو آدم .

وقيل أن الاسم مشتق من أدم الأرض وأديمها . وهو وجهها فسمي بها خلق منه . والأرض يميل لونها إلى السمرة . ومن معانى آدم السمرة . ونقول أدمته الشمس يعنى لوحت لونه أى

صيرته إلى السمرة .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح للملائكة شرف آدم ، ولماذا فضله الله بأن اختصه بالخلافة في الأرض ومعنى قوله تعالى لهم « إني أعلم ما لا تعلمون » - فعلم آدم أسماء كل شيء .

جاء في كتب التفسير : قال السدي فيما حدثه عن ابن عباس قال : علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا جمل وهذا فرس وهذا حمار .

وقال الضحاك عن ابن عباس قال هي الأسماء التي يتعارف بها الناس . إنسان ودواب وسما وأرض وسهل وبحر وخيل وغيرها .

وقال مجاهد علمه اسم كل دابة واسم كل طير .

وقال الربيع . أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال ثم عرضهم عبارة عما يعقل . ولكن ابن كثير يقول إن هذا الذي رجح به ليس بلازم فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى : والله خلق كل دابة فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين . . وقال بعضهم أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

وهذه التفسيرات كلها مردود عليها أنه من المستحيل أن يعلم آدم أسماء جميع الأشياء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . ولا حتى أسماء الحيوانات كلها . فتحن نعلم في عصرنا الحالي أن الحيوانات والدواب تبلغ أنواعها عشرات الآلاف . وعليه فكلها اجتهادات من المفسرين ولا بأس بها في العصر الذي كتبت فيه هذه التفسيرات .

وأحسن ما قيل هو ما جاء في تفسير روح المعاني للألوسي إذ قال : الاسم علامة للشيء ودليل يرفعه إلى ذهن . وقالوا بأنه خلق في آدم بسوجب استعداد علمياً ضرورياً باشتقاق تلك الأسماء ومدلولاتها ، ووجهة دلالتها واستعداداً لإدراك أنواع المدركات فالفهم معرفة نوات الأشياء وخواصها ومعارفها .

وهذا يتفق مع مفهوم عصرنا من أن الله أودع في الإنسان المقدرة على اشتقاق الأسماء للأشياء التي يراها والأفعال التي تقع أمامه ، وبواسطة هذه الأسماء يمكنه التعبير عما يريد . ويمكنه نقل خبرة جيله إلى الأجيال التالية .

ولرب قائل . كيف أن الملائكة - وما لهم من قدرات هائلة في الانتقال عبر المكان والزمان . كيف وهذه قدرتهم يعجزون عن معرفة أسماء أشياء عرضت عليهم . وتضرب لذلك مثلاً بجهاز كمبيوتر عملاق يجري ملايين العمليات الحسابية في الثانية الواحدة أو في جزء من الثانية . ولكن لو وضعت أمامه قطعة وطلب منه أن يسميها لم يستطع . فهو لا يعلم إلا ما أدخل فيه من

معلومات ولا يستطيع أن يشتق اسماً لشيء لم يعرض عليه من قبل . أما عقل الإنسان فقد زوده الله بالمقدرة على وضع الأسماء للأشياء . وما نحن نرى آلاف المخترعات . وكل جهاز يتكون من آلاف القطع وكل قطعة لها اسم . ولا أكون مغالياً إذا قلت إنه لو لا وضع مسميات للأشياء لما كان هناك تبادل للمعرفة ولما كان هناك تقدم للبشرية على مر العصور . وعبر القرآن الكريم عن هذه القدرة على وضع أسماء للأشياء بأنه علم بالأسماء كلها . كما نقول لمن تعلم الأبجدية إنه يقرأ كل شيء . أي أنه قادر على قراءة كل ما يعرض عليه .

ولما رأى الملائكة ما أعطى الله آدم من العلم . أقروا له بالفضل إلا إبليس .

« ولما قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . (٢٤ - البقرة)

« إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » .

(٢٦ - الحجر)

« إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » .

(٧٤ - ص)

« فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .

(٧٦ - ص)

« قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين » .

(٣٢ - الحجر)

« قال أنا خير من خلقتني من نار وخلقته من طين » .

(١٢ - الأعراف)

« فما يكون لك أن تتكبر فيها . فاخرج إناك من الصاغرين » .

(١٢ - الأعراف)

« قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً » .

(١٨ - الأعراف)

« قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » .

(٢٤ - الحجر)

« قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين »

(٧٧- ص)

وسجود الملائكة لادم كرامة عظيمة من الله تعالى وهو سجود تحية وسلام وإكرام . كما قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف . ووقع أبويه على العرش وخروا له سُجُوداً .

وهنا مسألة . إذ أن الذين أُمرُوا بالسجود هم الملائكة ، وإبليس كان من الجن . فهل شمله أمر السجود؟ قال بعضهم إن إبليس كان من الملائكة وكان اسمه عزازيل وكان من أشد الملائكة إجتهداً وأكثرهم علماً فدعاه ذلك إلى الكبر . وبعضهم قال إن الجن فرع من الملائكة وبعضهم قال إن إبليس كان من الجن ولكنه كان حاضراً . فلما أمر الله الملائكة بالسجود دخل إبليس فى خطاياهم فإنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم أفعالهم وعلى كل فقد كان مأموراً بالسجود بدليل قوله تعالى

« قال يا إبليس ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » .

(١٢ - الامراف)

« وقال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » .

(٥٧- ص)

ولما خالف الأمر وأستكبر أصبح من الكافرين .

وقد يخالف المخلوق أمر الخالق إما تكاسلاً أو نسياناً أو لا يجد عزمًا على تنفيذ الأمر مع علمه بأنه أمر من الله تعالى وأنه واجب التنفيذ ولكنه لا يجد قوة على تنفيذه . أو يجد هوى فى نفسه لمخالفة الأمر . هذه معصية . أما أن يناقش الأمر ويرد الأمر على الله . فهذا هو الكفر . وإبليس ناقش الأمر ذاته . بل ورد رداً فيه جرأة بالغة .

« قال أسجد لمن خلقت طيناً » .

(٦١ - الاسراء)

« قال أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(٧١ - ص)

« قال لم أكن لأسجد لبشر خلقت من صلصال من حمَل مسنون » .

(٣٢ - الحجر)

وكان جزاء كفره . أن طُردَ من الجنة . ومن رحمة الله تعالى:

« قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » .

(٢٤ - ٣٥ - الحجر)

« قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » .
(١٢ - الأعراف)

وفى اسم إبليس قال بعض المفسرين بأن إبليس كان من الجن ثم أبلس .
« إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .

(٥٠ - الكهف)

وأبلس فى العربية يعنى سكت لحيرة أو انقطاع حُجَّة . ويكون معنى إبليس المقطوع الحجة فى الإمتناع عن السجود لآدم وقال آخرون* إن تسمية إبليس بهذا الاسم جاءت مقترنة بعصيانته أى بامتناعه عن السجود لآدم . وفور هذا كان لعنة وطرده من رحمة الله لأنه عاصى ورافض لأمر الله فأبليس معناها العاصى والرافض والمتأنى لأمر الله

« إلا إبليس أبى » .
(٢٤ - البقرة)

حواء .

يقال إن آدم كان يتحدث أحيانا مع الملائكة . ولكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى . ولهذا كان آدم يحس بالوحدة . وجاء فى تفسير الألوسى (روح المعانى) إن الله ألقى على آدم النوم . ثم أخذ ضلعاً من جانيه الأيسر وخلق منه حواء . فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه . فسألها من أنت ؟ قالت امرأة . قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلى . فقالت الملائكة تجريه لعلمه من هذه ؟ قال امرأة . قالوا لم سميت امرأة ؟ قال لأنها من إمرئ أخذت . (أو لأنها خلقت من المراء وهو الجدال) قالوا ما اسمها . قال حواء . قالوا لم سميت حواء قال لأنها خلقت من شئء حى .

وقيل* إن حواء مشتق من الفعل حوى ومعناه التجمع والاستدارة ومنه الحية لأنها تتحوى أى تستدير على نفسها . ومنه حواء بمعنى استولى عليه وملكه . والحواء هو المكان الذى يحوى الشئء . وبهذا تكون حواء تعنى السكينة والسكنى ، وهذا يتفق مع الهدف الذى من أجله خلقت حواء لقوله تعالى

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » .

(١٨٩ - الأعراف)

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها . »

(٢١ - الروم)

وقيل إنها خلقت قبل دخول الجنة ودخلا معاً وظاهر الآية الكريمة يُشير إليه في قوله .

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . » (٢٥ - البقرة)

وإلا توجه الخطاب إلى معدوم - وقيل إن حواء كانت موجودة في علم الله لذلك جاء ذكرها في الخطاب .

وذهب خيال البعض بعيداً فقال إن الله بعث جنداً من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما تحمل الملوك . وليأسهما النور حتى أدخلوهما الجنة .

وجاء في التوراة اصحاح - ٢ - تكوين فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فقام . فأخذ واحدة من أضلعه ، وملاً مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم . فقال آدم ، هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت . لذلك يترك الرجل أبيه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً

في الجنة :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . » (٢٥ - البقرة)

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . » (١٩ - الأعراف)

صدر أمر الله بأن يسكن آدم وزوجه الجنة . وما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنها الجنة - دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة . وذهب أناس آخرون إلى أنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم وحواء . وقال غيرهم إنها جنة من جنات الأرض تقع في مكان مرتفع قيل بأرض عدن . والمكان كثير الشجر وكثيف الظلال يسمى جنة - كما في قوله تعالى

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . » (٢٢٦ - البقرة)

« كمثل جنة بربوة أسابها وإبل فانت أكلها خمعين . » (٢٦٥ - البقرة)

« لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . »

(١٥ - سبأ)

« ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنان . » (٩ - ق)

ويكون الهبوط في قوله تعالى « اهبطوا منها جميعاً » على أنه انتقال من بقعة إلى بقعة أقل ارتفاعاً أو إلى بقعة منخفضة - كما في قوله تعالى . اهبطوا مصراً .

ومن قالوا بخلق آدم في الأرض رجحوا أن الجنة كانت في الأرض أيضاً . إذ لم يذكر أنه نقله إلى السماء . وقيل ولو كان نقله إليها لكان أولى بالذكر ، لأن العروج إلى السماء فيه تكريم كذلك فإن جنة السماء قال الله سبحانه وتعالى في شأنها « لا يسمعون فيها لغواً ولا تائباً إلا قليلاً سلاماً سلاماً » . و « لا لغو فيها ولا تأثيم » و « وما هم منها بمخرجين » . وقد لغا إبليس فيها ، وكذب ، وأخرج آدم وحواء منها

كما أن جنة الخلد دار نعيم وليست بدار تكليف وقد كلف آدم بالآكل من الشجرة .

ولا يدخلها الكافرون . وإبليس كان من الكافرين وقد دخلها للوسوسة ، ولو كانت دار الخلد ما دخلها ولو مستترا في داخل الحية كما قالوا . ولا يجوز أن يقع فيها عصيان ومخالفة .

ويرى البعض أنها جنة في السماء خلقت خصيصاً لاختبار آدم ثم اضمحلت .

والرأي الشائع أنها جنة في الأرض

وأخرون يرون أن الأحوط والأسلم الكف عن تعيين مكانها . فذلك ليس له أهمية كبيرة - والمهم أنها كانت مكاناً لاختبار آدم

فالإنسان في طبيعته غير الملائكة فالملائكة مجبولون على الطاعة .

« لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون » . (٦ - التحريم)

أما الإنسان فقد شاعت إرادة الله أن يكون مُخيراً في أفعاله وهذه هي الأمانة التي حملها الإنسان .

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها . وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » . (٧٢ - الأحراب)

وقيل إن السموات والأرض والجبال أشفقوا منها من غير معصية ، ولكن تعظيماً لله ألا يقوموا بها . وعن ابن عباس أن الله سبحانه وتعالى قال لآدم إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال يارب وما فيها؟ قال إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فآخذها آدم فتحملها .

فالسموات والأرض مجبولة على الطاعة لقوله تعالى .

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين » . (١١ - صافات)

والملائكة أيضا مجبولون على الطاعة

« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . (٦ - التحريم)

أما الانسان فهو مخير في أفعاله . إن شاء أطاع فأثيب وإن شاء عصى وعوقب .

وجاء وقت الامتحان . ولكن قبل الامتحان حذر الله سبحانه وتعالى آدم من إبليس بقوله

« فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »

(١١٧ - طه)

كان التجول في الجنة في أى مكان مباحاً . وكذلك الأكل من كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة
نهى عنها . وكان هذا النهى هو الاختبار .

« فكللا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

(٢٥ - البقرة)

« فكللا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

(١٩ - الاعراف)

ووقع خلاف في هذه الشجرة ف قيل الحنطة وقيل النخلة . ومن ابن مسعود وابن عباس
وغيرهم أنها شجرة الكرم أى العنب . وقال ابن جرير عن مجاهد إنها التينة . وبعضهم قال
شجرة المحبة . وقيل شجرة الطبيعة والهوى . وقيل شجرة الخلد . وقيل إن من أكل منها خلد .
وقال العلامة أبو جعفر بن جرير ، جائز أن تكون أى منها .

وعلى العموم فإن تعيين نوع الشجرة لا يفيد بشىء فيما نحن بصدده من أن هذا كان أول
اختبار لآدم في حمل الأمانة وفي حرية الاختيار . وللأسف فإن آدم لم ينجح في هذا الامتحان .

(١٢٠ - مريم)

« فوسوس إليه الشيطان » .

(٢٠ - الاعراف)

« فوسوس لهما الشيطان » .

والوسوسة تكون في النفس لقوله تعالى :

(١٦ - ق)

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » .

والنفس والقلب مدخلان :

الأول من الخارج وهو الحواس . فالحواس قد تحمل ما يثير الشهوة .

والثانى من الباطن وهو الخيال . وينتقل الخيال من شيء إلى شيء .
والخواطر أى ما يحصل من أفكار تكون إما على سبيل التذكر أو على سبيل التجدد
والخواطر أيضاً أقسام .
- خاطر محمود . يدعو إلى الخير ويسمى إلهاماً .
- وخاطر يدعو إلى الشر ويسمى وسواساً .
- وخاطر يلتبس فيه الأمر على الانسان فلا يدري أهو من له الملك أو من لمة الشيطان .
ومن مكاييد الشيطان أنه يعرض الشر فى معرض الخير . فالشيطان لا يدعو الناس إلى
الشر الصريح . بل يصوره على أنه خير فيقوم الانسان بعمله
وكانت وسوسة الشيطان لأدم وحواء مغلقة بما هو محبب إلى نفسيهما وهو الخلود .
« وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الخالدين » . (٢٠ - الأعراف)
« فوسوس إليه الشيطان . وقال يا أدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى » . (١٢٠ - طه)
ولم يكتف بهذا . بل أقسم لهما حتى يزدادا اقتناعاً بصحة قوله .
« وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين » . (٢١ - الأعراف)
وقاسمهما جاءت بصيغة المفاعلة لاشتراك الطرفين فى القسم . قبل هو أقسم لهما على
النصح وهما أقسما له على القبول . وقيل إن قبول النصيحة يعتبر مشاركة . وقيل: قال له
أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين ، فاقسم لهما فكان إلتزامهما بقبول ما نصح به .
ونسى آدم أمر ربه ألا يقرب الشجرة . ونسى أن الله حذره من أن الشيطان عدو له وأنه
سيعمل على إخراجه من الجنة . . نسي كل ذلك وانصاع لوسوسة الشيطان .
« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً »
(١١٥ - طه)
« وعصى آدم ربه فغوى » . (١٢١ - طه)
والقائلون بأن الجنة كانت فى السماء يتكلفون تفسيرات لدخول إبليس إلى الجنة فمن قائل
إنه قام عند الباب وناداهما وأفسد حالهما . وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة .

وقيل أرسل أحد أتباعه على هيئة طاووس تجلى لهما على سور الجنة فندت منه حواء وتبعها آدم . فوسوس لهما الشيطان من وراء الجدار . وقيل توسل بحية تسورت الجنة . وحكاية الحية هي أشهرها . وهي التي جاءت في التوراة في الأصحاح الثالث تكوين . كما يلي :

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله . فقالت للمرأة . أحمقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة تأكل ، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسأه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة . لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل . وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل . فأنفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان . فخاطبا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مأزر . والقصة طويلة ولكنها تنتهي بالقول فأخرج الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها . فطرد من الجنة وأقام شرقى جنة عدن .

ويفهم من القصة أن الشيطان كان داخل الحية وهو الذي وسوس لهما . والبعض يحمل حواء تبعة المعصية كلها . والحقيقة أنهما - آدم وحواء - مشتركان في الفعل فإن كانت حواء هي التي قطعت الثمرة فقد اشترك آدم بالقبول والأكل من الشجرة كما أكلت حواء ، وكان قطف حواء للثمرة موافقاً للهواء ورغبته في الخلود :

« فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصمان عليهما من ورق الجنة » . (٢٢ - الأعراف)

« فأكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما . وطفقا يخصمان عليهما من ورق الجنة . وعصى آدم ربه فغوى » . (١٢١ - طه)

وكان أكلهما من الشجرة ومعصية ربهما خطأ لأنفسهما من رتبة الطاعة إلى المعصية فكان الشيطان قد دلى من درجتهم أو من الدالة وهي الجراءة أي فجراًهما على المعصية بما غرهما به من القسم وبما مآهما به من الخلود .

وفي حديث من على بن عاصم عن سعيد بن أبي عريدة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله (ﷺ) إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير الشعر كأنه نخلة سحوق . فلما ذاق الشجرة سقط عنه شعره وأول ما بدا منه عورته .

وأزيد ماقول: وإذا كان ذلك بالنسبة لآدم فلا بد أن شعر حواء أيضاً كان طويلاً ومسترسلاً يغطي كل جسمها . وقد يكون في الشجرة التي أكل منها مادة جعلت شعرهما يسقط . أو أن شعورهما بهول ما اقترفا من معصية الله . قد أسقط الشعر عنهما وبدت لهما عوراتهما .

وقال وهب بن منبه كان لباس آدم وجواء نوراً على فروجهما ، لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا ، فلما أكلوا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، ولعله يقصد أن المعصية قد جعلت هذا النور ينطفئ .

رأى آخر فى تفسير ما حدث هو أن أكل ثمار الجنة التى كانت مباحة لهما كان لا يتبقى منه فضلات فى أمعائهما فكانا لا يحدثان أى لا يول ولا براز فلما أكلوا الشجرة بدأت حاجتهما إلى البول وإلى الغائط ورأيا التجاسة تخرج من سوءاتهما فحاولا إخفاها

ويذكر هذا الراى الألويسى فى تفسيره فيقول ونقل الأجهورى عن حجة الاسلام الغزالى أنه عليه السلام لما أكل من الشجرة بحركت معدته لخروج الفضله ، ولم يكن ذلك مجعولاً فى شيء من أطعمتها إلا فى تلك الشجرة فلذلك نهى عن أكلها ، فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له أى شيء تريد يا آدم؟ قال أريد أن أضغ ما فى بطنى من الأذى . فقال له فى أى مكان تضعه؟ أعلى الفرش أم على السرير أم فى الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا مكان يصلح لذلك؟ ثم أمره الله تعالى بالهبوط ويقول الألويسى وأنا لا أرى لهذا الخبر صحة .

فواضح أن واضع هذا القول كانوا متأثرين بأن هذه الجنة هى جنة الخلد لذلك جاء قولهم الفرش (المرقوعة) والسرير كما جاء فى سورة الواقعة والآنهار والظل الظليل ، وجعلوا من أسباب خروجهما من الجنة هو حتى لا يحدثا فيها ، وقد سبق ترجيح أن جنة اختبار آدم لم تكن جنة الخلد ، بل كانت جنة فى الأرض .

وبعضهم قال : إن الأكل من الشجرة المحرمة أثار فى نفسيهما شهوة الجنس وكانا لا يشعران بالشهوة من قبل ، وكانا ينظران إلى أعضائهما كما ينظران إلى باقى أجزاء الجسم . فلما ثارت شهوتهما تغيرت نظرتهما إلى هذه الأعضاء وشعرا بالحياء وأرادا تغطيتهما ويمكن تشبيه الأمر بالأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُكم قد يلعبون ذكوراً وإناثاً عرايا بدون حرج ، حتى إذا كبروا بدأوا يشعرون بالخجل من تعرية أنفسهم .

وهذا الشعور بالخجل من العرى نوع من الحياء أودعه الله فى آدم وبنيه ، فالحيوانات لا تستشعر العرى ولا ترى حرجاً فى ظهور عوراتها ، ولعله من الخطأ أن نقول « عورة » عند الحيوانات ، فهى ليست بعورة ولا سوءة بل هى أعضاء مثل الأيدي والأرجل والفم ، بل إن الحيوانات لا تستشعر أى حرج من ممارسة الجنس أمام أقرانها . أما الإنسان فالحياء طبيعة فيه . وستر العورة واجب . لذلك فإن المذاهب التى تقول بالعودة إلى الطبيعة ومستعمرات العراة التى توجد فى بعض البلاد الأوربية ما هى إلا مخالفة للطبيعة البشرية السوية وعودة للحيوانية الفجة .

ولعل إبليس كان يعرف ما سيحدث لهما من شعور بالخزي عندما قندوا لهما عوراتهما .
وكان هذا جزءاً من إنتقامه من آدم

« فوسوس لهما الشيطان ، ليبدى لهما ما وُرى عنهما من سوءاتهما » .

(٢٠ - الأعراف)

« يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان ، كما أخرج أبيكم من الجنة ينزع
عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » .

(٢٧ - الأعراف)

ولعل الرأى الأول هو أقرب الآراء إلى الحقيقة وهو أن شعرهما كان من الطول بحيث
يغطي جميع أجزاء جسمهما . فلما أكلتا من الشجرة سقط الشعر وبدت لهما سوءاتهما

« وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة »

(٢٢ - الأعراف ، ١٢١ طه)

وعن ابن عباس قال ينزعان ورق النين فيجعلانه على سوءاتهما . وحصف البعل إلصاق
بعضه ببعض . فكانا يخططان ورق التين ليغطيا أنفسهما

ولتوضيح ما سبق أن ذكرناه عن اعتناق اليهود لفكرة تجسد الإله نذكر ما كتبه في التوراة
عن هذا الموضوع ، اصحاح ثالث تكوين: وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب
رياح النهار فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنى
عريان فاخترت . فقال من أعلمك أنك عريان . هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل
منها؟ فقال آدم ، المرأة التى جعلتها معى هى أعطتني من الشجرة فأكلت فقال الرب الإله
للرأة ما هذا الذى فعلت؟ فقالت المرأة الحية فرمتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت
هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وقرباً تأكلين كل
أنام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين
عقبه . وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك
وهو يسود عليك وقال لآدم لأنك سمعت لقل امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك فأنثى لا
تأكل منها ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك شوكاً وحسكاً تثبت لك .
وتأكل مشب الحقل . بمرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها . لأنك
تراب وإلى تراب تعود . وصنع الرب الإله لآدم وامراته أقمصه من جلد وألبسهما . . وتتجلى
النظرة التجسدية للإله عندهم فى الفقرة التالية

وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد عارفاً للخير والشر والآن لعمله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرج الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها . فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن .

في الأرض :

« أيّما ما كان مكان الجنة ، فقد كانت نهاية المطاف في الأرض ، واستقر آدم وحواء في الأرض .

وجاء قوله تعالى :

« فازلهم الشيطان ما أخرجهما مما كانوا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عني . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

(٢٦ - البقرة)

ويذكر القرآن الكريم ندمهما على معصيتهما لأمر الله .

« قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

(٢٢ - الأعراف)

ونرى هنا بِلَاغَة السرد القرآني . فإن الكلام ولو أنه على لسان آدم وحواء إلا أنه يصبح أن يقال في كل موقف ينسى الإنسان فيه تعاليم الله ويخالفها . ثم يتذكر فيقول « رب إني ظلمت نفسي » وإن لم يغفر لي وترحمني لأكونن من الخاسرين . فليس الهدف مجرد سرد تاريخي لما حدث . بل ليستخلص القارئ العظة والعبرة وهي كيف استغفر آدم لذنبه فتأب الله عليه ليكون أيضاً استغفارنا لما قد نرتكبه - وتكون التوبة من نصيبنا إن شاء الله كما كانت لأدم

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتأب عليه . إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٢٧ - البقرة)

والمشهور من ابن عباس أن هذه الكلمات التي تلقاها آدم ليقولها ليتوب الله عليه هي قوله : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . كما في الآية .

وعن ابن مسعود أنها ، سبحانه اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلا أنت .
ظلمت نفسي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت

والتوبة هي الرجوع - وإذا أسندت إلى العبد تضمنت أموراً ثلاثة معرفة الذنب - والندم -
والعزم على عدم العود - وكثيراً ما تطلق على الندم وحده . كما في الحديث الشريف: الندم
توبة .

وإذا أسندت إلى الله سبحانه وتعالى كانت عبارة من قبول التوبة والعفو عن الذنب
« وعصى آدمُ ربه فغوى ، ثم اجتنبه فتاب عليه وهدي » .

(١٢٢ - ١٢٣)

وفي تفسير قوله تعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » روايات لا تثبت ولا تخرج عن
كونها من الإسرائيليات أو الموضوعات . من ذلك ما ذكره السيوطي في الدر* قال: عن عمر بن
الخطاب قال قال رسول الله (ﷺ) : لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء
فقال أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فأوحى الله إليه ومن محمد؟ فقال تبارك اسمك ، لما
خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فعلمت أنه
ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله إليه يا آدم إنه آخر
التبيين من ذريتك ، ولولا هو ما خلقتك .

ومن الموضوعات أيضاً ، ما أخرج الديلمي عن علي ، قال: سألت النبي (ﷺ) « عن قول
الله . » فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه » فقال إن الله أهبط آدم بالهند ،
ومكث آدم بالهند مائة سنة بأكيا على خطيئته ، حتى بعث الله إليه جبريل وقال يا آدم ألم
أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أسجد لك ملائكتي؟ ألم أزوجه حواء أمتي؟ قال بلى
، قال: فما هذا البكاء؟ قال وما يمنعني من البكاء وقد أخرجت من جوار الرحمن ، قال فعليك
بهذه الكلمات ، فإن الله قابل توبتك وعافى ذنبك ، قل: اللهم إني أسألك بحق محمد ، وآل
محمد . سبحانه لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسي فأغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم .

ويذكر السيوطي أيضاً عن ابن عباس عن النبي (ﷺ) قال سأل بحق محمد ، وعلى ، وفاطمة
، والحسن والحسين ، إلا ثبت علي . فتاب عليه ومثل هذا الحديث لا يشك في اختلاقه وأنه من
وضع الشيعة**

وكان أمر الهبوط إلى الأرض . وهذا ما كان في علم الله وقدره من قبل خلق آدم . منذ أن

* الدر المختور ج ٦ من ٥٨ - ٦١

** محمد بن أبو شهبة الإسرائيليات والموضوعات ص ٢٥٢ - ٢٥٤

قال الله « إني جاعل في الأرض خليفة » . وما كان وجوده في الجنة سواء الجنة في السماء أو الجنة في الأرض - إلا لإشهادته تكريم الله له بسجود الملائكة . وإطلاعه على إحدى القدرات التي أودعها الله فيه وهي المقدرة على تسمية الأشياء بأسمائها . وكذلك لمس آدم عداوة إبليس له وحققه عليه منذ أن رفض السجود . ولس غوايته له ليعصى أمره . وكان أيضاً تشريع التوبة .

كل هذه الدروس كان مطلوباً من آدم أن يعيها جيداً قبل أن يخطو أولى خطواته على الأرض .

وتختلف كتب التفسير في مكان هبوط آدم إلى الأرض . فالقائلون بأن الجنة كانت في السماء يقولون إن آدم نزل بالهند وحواء بجدة وإبليس بالبصرة والحية بأصبعان . ولكن هذه الفرقة ليس لها من داعٍ إذ يتور أنسؤال كيف التقى آدم بحواء بعد ذلك وبينهما آلاف الأميال . وليس له علم بالاتجاهات ولا خبرة لعبور الأنهار ولم يكن قد استأنس من الحيوانات ما يمكنه من عبور الصحاري والقفار . والقائلون بهذا الرأي يقولون إن الله كان يطوى الأرض لآدم في كل خطوة كذا ميل^١ وقرب ابن عمر المسافة فقال أهبط آدم بالصفاء وحواء بالمروة . وكما سبق أن قلنا إن المرجح هو كون حنة الاختيار كانت في عدن في مكان مرتفع وحين أخرج آدم منها هبط إلى السهول المنخفضة . والأقرب إلى العقل أن آدم وحواء خرجا معاً وهبطا إلى الأرض في مكان واحد .

ويرجح هـ . ج . ويلز في كتاب معالم تاريخ الإنسانية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) أن مكان ظهور أول إنسان العصر الحجري الحديث هو مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية - وهذا المكان هو اليمن ويتفق مع القائمين بأن الجنة كانت في عدن .

كان آدم في الجنة لا يشقى . فقد كانت المعيشة رغداً . والرغد سعة الرزق وكثرته . وثمار الجنة كانت في متناول يده وموجودة في كل مكان . وحيث شاء . ولم يكن يشعر بعطش فالأنهار موجودة والماء متوافر ولا يحس برداء ولا زمهريراً .

« إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » .

(١١٨ - ١١٩ طه)

« وكلا منها رغداً حيث شئتما » .

(٢٥ - البقرة)

ونبه الله تعالى إلى عداوة إبليس وأنه سيعمل على إخراجهما من الجنة .

« فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجه . فلا يخرجكما من الجنة

فتشقى » .

(١١٧ - طه)

ومع كل هذا ، نسي آدم التحذير وأكل من الشجرة ، وأخرج من الجنة ، وبدأ الشقاء .

وهنا نلاحظ أن التحذير كان بصيغة المثنى . لكونه لآدم وحواء . فحين أن الشقاء كان في صيغة المفرد المخاطب وهو آدم . مما يحمل ضمناً أن جزءاً أكبر من الشقاء سيكون من نصيب آدم لقوامته على المرأة ومسئوليته في البحث عن معاش الحياة . وقد يكون فتشقي في صيغة المفرد والخطاب لآدم ولكنه يتضمن حواء أيضاً لكونه هو الأقوى . وإذا شقى القوى فمن باب أولى أن يشقى الأضعف أيضاً

وبدأ يحسان بالجوع - ولم تكن الثمار في متناول يده كثمار الجنة فكان عليه أن يتسلق الأشجار ليصل إلى الثمار - وطمأ - فبحث عن الماء حتى اهتدى إلى نهر أو يثر - وشعر بلقحة الشمس وجرحها فأتسمى بظل الأشجار . الشيء الرابع الذي كان له في الجنة هو « ولا تعري » - وحينما اقتربا المعصية وبدت لهما سوءاتهما غطيا أنفسهما بورق الجنة . وما كانت هذه الأوراق لتدوم بل جفت وتهرأت ولعله اهتدى إلى جنود الميوانات كبديل أكثر بواراً وأكثر مناسبة . كذلك لعلهما بحثا عن كهف يلجآن إليه حماية من البرد . ومن الحيوانات الكاسرة وحياء . ليشعرا بالخصوصية وهما يمارسان حياتهما الزوجية

وقال تعالى: « هو الذي خلقكم من نفس واحدة . وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاهما حملت حملاً خفيفاً فرمت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ، لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهاما صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتاها . فتعالى الله عما يشركون » .

(١٨٨ - ١٩٠ الأعراف)

ويقول الألويسي وهذه الآية عندي من المشكلات

وقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حديثاً عن عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال . لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان هذا نوعاً من الشرك بالله

ورواه الترمذي في تفسير الآية عن مجاهد عن المثنى بن عبد الصمد وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم . ورواه الحاكم في مستدركة من حديث عبد الصمد مرفوعاً . ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد . ولو أن أبو الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره ضعفه وأرجح بأن الصحابي عمر بن إبراهيم هو الذي ذكره وقال لعله تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب .

وقال محمد بن اسحق بن سيار عن داوود بن الحصني عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لأدم عليه السلام أولاداً فيُحبِّدُهم الله ويسمِّيهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت . فأتاهما إبليس فقال لو أنكما سميتما بغير الذي تسميان به لعاش . فولدت له ولداً فسماه عبد الحارث .

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك بن حصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتاهما إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة - لتطيعاني أو لأجعلن له قرني إبل فيخرج من بطنك فيشققه ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما . فأبى أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثانية فخرج ميتاً . أيضاً . ثم حملت الثالثة فأتاهما فذكر لهما: فأدركما حب الوالد فسمياه عبد الحارث .

وقد اعترض عدد من العلماء على تفسير الآية بهذا الشكل السابق ذكره ، إذ أن فيه سببة الشرك إلى آدم وحواء ، وأدم عليه السلام نبي معصوم عن الشرك ، فمثلاً الإمام القرطبي ذكر هذا التفسير وبين عدم ارتضائه له وقال - ونحو هذا مذكور في الإسرائيليات وليس لها إثبات ، فلا يُعول عليها من له قلب . ويقول ابن كثير في تفسيره - وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب .

وقد وصف ابن كثير الحديث الذي ذكر في هذا الموضوع أنه حديث شاذ وأن عمر بن إبراهيم الذي رواه قال عنه أبو حاتم الرازي: لا يُحتجُّ به . كما قال ابن الحسن - المذكور في سلسلة رواة الحديث - فسر الآية بغير هذا ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه إلى تفسير آخر . فهذا يدل على أن الحديث موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب ابن منبه .

وأما التفسير للآية الذي قال به الحسن ، فقد ذكر أن محمد بن ثور عن معمر قال الحسن : عني بها نرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني اليهود والنصارى . رزقهم الله أولاداً فهابوا ونصروا . وهو بهذا يشير إلى قوله ﷺ « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأيواه يهودانه أو يمجسانه . ويقول ابن كثير . ونحن على مذهب الحسن البصري أنه ليس المراد في الآية آدم وحواء . وإنما المراد من ذلك المشركون من نريته ولهذا قال الله تعالى :

« فتعالى الله عما يشركون »

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير هو الآية التالية لذلك:

« أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » .

(١٩١ - ١٩٢ الأعراف)

فهذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله ولا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع .

وعن الحسن وقتادة أن ضمير جعلاً وآتاهما يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا إلى آدم وحواء عليهما السلام ، وهو قول الأصم* ويكون المعنى قوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة ، خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وخلق لكل نفس زوجاً من جنسها فلما تفشاها وحملت جعلاً له شركاء - فسميا عبد اللات وعبد العزى وغير ذلك ، ولذلك كان القول « فتعالى الله عما يشركون » بصيغة الجمع يدل على عدم تعلق الآية بآدم وحواء .

وعن أبي مسلم أن صدر الآية لآدم وحواء كما هو الظاهر ، بقوله وهو الذي جعلكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها . وانقطع الحديث . ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر .

وفي رأينا أن أول الآية : هو الذي خلقكم . خطاب لجمع فهو ليس موجهاً لآدم وحواء والجمع المخاطب هم ولد هذه النفس وزوجها وبين الله لهم أنهم خلقوا من نفس واحدة وجعل منها زوجها . ثم تكاثرت الذرية . وأن كل زوجين ، حينما تحمل الأنثى يدعوان الله إذا آتاهما صالحاً سيكوثان من الشاكرين . فما إن يأتيهما الله صالحاً حتى يجعلان له شركاء سواء في التسمية أو في غيرها . وفي نهاية الآية يكون الخطاب ثانية إلى الجمع - من ذرية آدم - في قوله فتعالى الله عما يشركون ولم يقل عما يشركان - حتى لا يختلط الأمر على القارئ فيظن أن المقصود بالشرك هي النفس الأولى وزوجها أي آدم وحواء .

وعلى كل حال فإنها تبين أن الشيطان لم يكن ليكف عن ملاحقة آدم وحواء حتى بعد إخراجهما من الجنة إذ أنه توعد بنييه أيضاً . لقوله مخاطباً الله عز وجل .

« قال أرايتك هذا الذي كرمت على . لنن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً » .

(٦٢ - الإسراء)

ولاشك أن وسوسة الشيطان كانت المحرض لقابيل حتى يقتل أخاه هابيل .

قصة هابيل وقابيل :

وتذكر جل الكتب قصة هابيل وقابيل على النحو التالي

خشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض فولدت له قابيل وتوأمته إقليما . ثم هابيل وتوأمته

* تفسير الألوسي جزء ٩ ص ٦٤٠

لبودا في بطن واحد وكان بينهما سنتان في قول الكلبى . ولما بلغوا مبلغ الرجال أدركوا أمر الله تعالى: أن يتزوج قابيل من لبودا توأمة هابيل ويتزوج هابيل ، من إقليما توأمة قابيل . وكانت توأمة قابيل - إقليما - هي الأجمل فأراد أن يستأثر بها لنفسه . فقال له آدم إنها لا تحل له . فرفض قابيل . فقال آدم . قريبا قريانا . فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها .

وكان قابيل صاحب زرع . فقدم صبرة من الطعام من أردإ زرع . وكان هابيل راعيا صاحب ماشية ، فقدم كبشا سميئا من خيار ماشيته . ووضعوا قربانهما على الجبل ، فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش ، ولم تأكل قربان قابيل . فنزلوا عن الجبل وتفرقا . وقد أضر قابيل في نفسه قتل أخيه .

« وائل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قريا قريانا . فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لاقتلك . قال إنما يتقبل الله من المتقين . لنن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك . إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله . فأصبح من الخاسرين . » (٢٧ - ٣٠ المائدة)

وقد اختلف في كيفية قطة . فقال بعضهم ضربه بحديدة . ولكن يرد هذا الرأي أن الحديد لم يكن معروفاً في هذا الوقت . ويقال إن إبليس تمثل له وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر . وقصد قابيل أخاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فلما قتله لم يدر ما يصنع به .

« فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه . فقال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى ، فأصبح من النادمين . » (٣٢ - المائدة)

فبعث الله غرابين . قتل أحدهما الآخر ، فحفر له ، ودفنه برجليه ومقاره . فعلم كيف يصنع بأخيه . فحفر في الأرض قبراً لأخيه ، ووضع فيه ، ووارى عليه التراب .

وتقول التوراة تكوين - ٤ - ٨ (وقد سبق ذكر ذلك في المقدمة)

فقال الرب لقائين أين هابيل أخوك . فقال لا أعلم . أحارس أنا لأخى؟ فقال ماذا فعلت؟ صوب دم أخيك صارخاً إلى من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك . متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها . تائها وهارياً تكون في الأرض . فقال قايين للرب نذبي أعظم من أن يحتمل إنك قد طردتني اليوم من وجه الأرض . ومن وجهك

أختفى وأكون تائهاً وهارباً في الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى . فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجدته . فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أراد ألا يقتل قاييل انتقاماً لمقتل هابيل . حتى يظل حياً يتعذب يذنيه ، ويشقى في فلاحه الأرض فلا تعود تعطيه غنتها وثمارها . ويظل بقيه حياته هارباً وتائهاً في الأرض .

ومن الأقوال التي لا يعتد بها ، وما قاله أيضاً الضحاك عن ابن عباس ، أنه مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى أنقن - فإن تغير الرائحة يطهر بعد أيام قليلة فلا يعقل أن يتحملها أحد . كما أن لفظ القرآن الكريم فبعث الله . فالقاء تدل على الترتيب والتعقيب من غير تراخ

ومن الاسرائيليات أيضاً المروية عن ذهب أن الأرض نشفت دم آبن آدم المقتول فلحن آبن آدم الأرض . فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دماً بعد دم هابيل إلى يوم القيامة .

ولعل هذا القول وضعه الأقدمون لتعطيل ظاهرة أن الماء والسوائل الأخرى تتشرب في الأرض بينما يظل الدم لا يتشرب . ولكن حالياً يقدم لنا العلم تفسير هذه الظاهرة ليس بسبب لحن آبن آدم للأرض . بل بسبب أن الدم فيه مواد تجعله يتجلط بمجرد ملامسته للتراب وحتى تتجلط الدم لا يمكنه التسرب في مسام الأرض .

وتعيد هنا ما سبق أن قلناه في المقدمة ، من أن نظرة بني اسرائيل للإله ، فيها نزعة إلى التجسيد . يتضح ذلك في قول قايين للرب : من وجهك أختفى!! في حين يؤكد القرآن الكريم على إحاطة علم الله بكل شيء في قوله تعالى :

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

(١٠٩ - الرعد)

فهما هرب قاييل فهو لن - يختفى عن علم الله .

ومن نظرتهم التجسدية للإله أنهم يخاطبونه كما يخاطبون البشر . من ذلك رد قاييل على الرب لما سأله عن هابيل . فقال لا أعلم . أحارس أنا لأخى؟ وهو سؤال استنكار لا يليق من عبد في حضرة ربه . وهذا من دلالات تحريفهم للقوادة التي أنزلت على موسى عليه السلام .

وهكذا كان دم هابيل أول دم أريق على الأرض من دم ولد آدم - وقال الامام أحمد حدثنا

أبو معاوية عن آخرين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « لا تُقتل نفس ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » .

وحديث آخر روى عن عبد الرزاق عن معمر بن الحسن قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً ، فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم » .

ويقال إن عمر هابيل وقت أن قُتل كان عشرين سنة . ويكون عمر قابيل آنذاك اثنتين وعشرين سنة لأنه أكبر من أخيه يعامين .

وقال سالم بن أبي الجعد لما قتل ابن آدم أخاه ، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك ، ثم أتى فقيل له ، حياك الله ويياك أي أضحكك . ويُسَرُّ بـغلام . فعند ذلك ضحك .

وطاف آدم على امرأته فولدت غلاماً يدون أخت . وقالت إنه قد وهب لها خلفاً من هابيل الذي قُتل وسمي شِيث ومعناها « هبة الله » . وكان عمر آدم يوم أن ولد شِيث مائة وثلاثون سنة .

أما ما نسب إلى آدم عليه السلام من قول الشعر يرثى به هابيل فهو أيضاً من الموضوعات إذ الشعر ممنوع على الأنبياء قياساً على ما قيل في حق رسول الله ﷺ .

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . (٦٩ - يس)

وإن قيل إن ذلك كان خصوصية للمصطفى حيث كانت معجزته هي القرآن وحتى لا يختلط الأمر على الناس إلا أن الآيات التالية تجعله أيضاً ممتنعاً على باقي الأنبياء لما فيه من مبالغات وغزل ومدح وهجاء وهو ما لا يليق بالأنبياء وعصمتهم .

« والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . (٢٢٤ - ٢٢٦ الشعراء)

هل كان آدم نبياً أم رسولاً

روى ابن حبان في صحيحه عن أبي زر قال قلت يا رسول الله كم الأنبياء قال مائة وعشرون ألفاً . قلت يا رسول الله من كان أولهم قال آدم . قلت يا رسول الله نبي مرسل . قال نعم .

وفي حديث آخر بنفس الإسناد أنه أنزل عليه خمسون صحيفة .

وقال الطبراني حدثنا نافع بن هرم عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ . ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل . وأفضل النبيين . آدم . . الخ وهذا إسناد ضعيف

فإن نافعاً أبا هرمن كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعه وأبو حاتم وغيرهم .
وتقول بعض الروايات أن عدة صحف أنزلت على آدم وأن بعضاً منها أنزل أيضاً على ابنته
شيث وكان آدم قد استخلفه من بعده وعهد إليه وعلمه عبادات ساعات النهار والليل ، وبالمطبع
فإن آدم كان يعظ بنيه وأحفاده وذريته . ويحثهم على طاعة الله وعبادته .
وبلغ آدم عمره الذي قدره الله له .

وفي حديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً أن عمر آدم اكتب في اللوح المحفوظ ألف
سنة . وهذا يمكن ألا يتعارض مع ما ورد في التوراه من أنه عاش ٩٣٠ سنة إذ يمكن التوفيق
بين الرقمين من أن ٩٣٠ سنة شمسية تساوي ٩٥٧ سنة قمرية ويضاف إلى ذلك ٤٣ سنة فترة
مقامه في الجنة قبل خروجه منها على حسب ما ذكره ابن جرير فيكون الجميع ألف سنة .

وتوفي آدم عليه السلام يوم جمعة . وماتت حواء بعده بسنة واحدة . وقال ابن اسحق وغيره
إن الله بعث الملائكة غسلته وكفنوه في ثلاثة ثياب ، ثم لدوا له ويدفنه ، ثم قالوا لمن حضروا
هذه سنة ولد آدم من بعده .

ويقال إن قبره كان في كهف وكان بنوه وأحفاده يزورون قبره ويذكرون الله عنده وظلوا على
تعاليمه وشريعته زمناً . ولكن هذا لم يكن ليستمّر طويلاً فقد كان الشيطان يتربص بهم

أبناء آدم

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » (١ - النساء)

وقال أهل العلم بأخبار السلف بأن حواء كانت تلد لأدم توأمين فى كل بطن غلاماً وجارية إلا
ابنة شِيث فقد ولدته منفرداً . وكان جميع من ولدتهم حواء أربعين ذكر وأنثى فى واحد وعشرين
بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث .

وقد عاش آدم على الأرض ٩٣٠ سنة (٩٥٧ سنة قمرية) وماتت حواء بعده بسنة واحدة .
وعدد ٢١ ولادة فى ٩٣٠ سنة تعتبر قليلة جداً . فإن فى الريف ، فى عصرنا الحالى من
تصل ولاداتها إلى ١٥ ولادة فى عمر لا يزيد عن الستين أو السبعين عاماً .

ولهذه المسائل الحسابية أسوق الأرقام التالية

لو فرضنا أن عدد الولادات استمر بمعدل ٢٠ ولادة لمدة ٣ أجيال ثم نقص إلى معدل ١٥
ولادة لمدة ٣ أجيال التالية ، ثم نقص إلى ١٠ ولادات لمدة ٣ أجيال أخرى ثم إلى ٥ ولادات فقط
لثلاثة أجيال أيضاً . لو فرضنا ذلك وهو فرض معقول جداً لوصلنا إلى نتيجة غريبة .

٢ =	آدم وحواء
٤٠ =	الجيل الأول ٢٠ ولادة × ٢ توأم = ٤٠
٤٠ =	وماييل قتل وعوضاً عنه شِيث
٤٠ =	الجيل الثانى ٤٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠ أسرة تبدأ بها الجيل الثانى
٤٠٠ =	ونفترض أن كل أسرة أنجبت ٢٠ طفل
٤٠٠٠ =	الجيل الثالث ٤٠٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠٠ أسرة × ٢٠ ولد
٢٠٠٠٠ =	الجيل الرابع ٤٠٠٠ ÷ ٢ = ٢٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل
٢٢٥٠٠٠ =	الجيل الخامس ٢٠٠٠٠ ÷ ٢ = ١٥٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل
١٦٨٧٥٠٠ =	الجيل السادس ١١٢٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل
٨٤٠٠٠٠٠ =	الجيل السابع ٨٤٠٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل
٤٢٠٠٠٠٠٠ =	الجيل الثامن ٤٢٠٠٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل
٢١٠٠٠٠٠٠٠ =	الجيل التاسع ٢١ مليون أسرة × ١٠ طفل
٥٢٥٠٠٠٠٠٠ =	الجيل العاشر ١٠٥ مليون أسرة × ٥ طفل
١٣١٢٥٠٠٠٠٠ =	الجيل الحادى عشر ٢٦٢٠٥ مليون أسرة × ٥ طفل
٢٢٨١٢٥٠٠٠٠ =	الجيل الثانى عشر ٢٥٦٠٥ مليون أسرة × ٥ طفل
٥ ٢٨١ ٩٦ ٩٤٢	

أى أنه فى مدى اثنتى عشر جيلاً وصل عدد ذرية آدم أكثر من ٥ مليارات وهويقارب عدد السكان الإجمالى لجميع شعوب الكرة الأرضية فى وقتنا الحالى بعد ١٥ أو ٢٠ ألف سنة من عهد آدم ، فلابد أن نسبة الوفيات كانت مرتفعة جداً جداً .

لقد أدرجت هذه المسألة الحسابية لأن البعض قد يستبعد أن يكون كل شعوب الأرض هم من نسل آدم وحواء ، ولكن الحساب يؤيد أن ذلك ممكن جداً .

نعود إلى آدم وحواء أول نزولهما على الأرض وبإلطف كان أكلهما كله فاكهة الأشجار الناضجة - وظل على ذلك عدداً من السنين ، ولابد أن الله ألهمه استئناس الغنم وزراعة الحبوب ، فنحن نرى أن بعض أنواع النمل تزرع فى جحورها أنواعاً من الفطريات (عيش الغراب) لتتغذى عليها ، ونعلم أيضاً أن أنواعاً من النمل تقوم بتربية حشرة المن وتغذيها وتعمل على تكاثرها وحلب لبنها لتتغذى عليها - (شكل ١) .



شكل ١ - يعلب بعض النمل حشرة المن (البقر)

ولاشك أن آدم اهتدى أيضاً إلى زراعة الحبوب وكذلك إلى رعى الأغنام وأكل لحومها وقد رأينا فى قصة ابنى آدم أن قابيل كان يزرع الحبوب وأن هابيل كان يرعى الأغنام .

ويمولد الأبناء الأول لآدم ، بدأت نواة « القبيلة » و « المجتمع » .

ويختلف البشر عن الحيوانات فى هذا المجال فالوليد من قطيع الغنم أو البقر - بعد بضعة ساعات من الولادة - يهب منتصباً على قوائم الأربعة ويمشى مع القطيع صحيح أنه يلزم أمه التى ترضعه لعدة أشهر ولكنه سرعان ما يتعلم الأكل ويمكنه الاعتماد على نفسه ويستقل عن

أمه كُليّة . وقد تنقطع صلته بها . أمّا من الأب ، فلا شعور بالأبوة إلّا في الحيوانات التي يتلازم فيها الذكر والأنثى طول حياتهما . المهم أن الحيوانات يمكنها الاستقلال بنفسها في فترة مبكرة من العمر . وإن كانت غالبية الرئيسيات تعيش في « قطعان » أو « مجموعات » تسهل لها محاصرة فريسة واقتناصها لمأكليها

ولكن البشر يكونون « مجتمعات » . وأحد العوامل التي تحتم « الحياة الاجتماعية » للبشر يتمثل في الوقت اللازم لتربية الأطفال الادميين . ففترة الرضاعة تمتد إلى عامين . وإن كانت تقل في بعض الأحيان عن ذلك ببضعة أشهر . كذلك فإن تعلم المشي يحتاج إلى الإعتماد على الوالدين . ثم يتعلم الطفل الكلام عن طريق محاكاة الأصوات التي تصدر عن الوالدين . ثم يتعلم اللغة بالربط بين غشيء ما وكلمة ما ، أي يتعلم أسماء الأشياء . وهذه هي الملكة التي أودعها الله في آدم وبنه حينما قال « وعلم آدم الأسماء كلها » فلم يكن العلم مقصوراً على آدم فقط أو آدم وحواء معاً . بل كانت ملكة مودعة فيه لإطلاق الأسماء على الأشياء التي يراها . وتتملكنا الفرحة أول ما ينطق أولادنا « بابا » و « ماما » ونبدأ في تعليمهم هذه يد وهذه رجل وهكذا . ويختزن الطفل في عقله ، كل ما يتقوه به والداه من أسماء للأشياء المحيطة . حتى يتعلم الأسماء كلها !! أسماء عالمه المحدود . وكلما كبر واتسع عالمه تعلم أسماء جديدة . وإن قابل أشياء لم تعرض له من قبل أشار لوالديه ليعرف اسمها . وإن كان شيئاً لم يره الناس من قبل . وصعوا له اسماً يعرفونه به .

وحتى بعد أن يتعلم الطفل الأكل والمشى واللغة . يجد نفسه عاجزاً عن الوصول إلى الغذاء في قمم الأشجار أو نهية الطعام من الحبوب . ويمكن القول بأنه لا يمكن للأطفال من بنى البشر أن يصبحوا مستقلين معتمدين على أنفسهم قبل بلوغ سن الإثني عشر عاماً . وخلال هذه الفترة الطويلة من تكويته يظل على صلة مستمرة وقوية ليس بوالديه فقط . بل بإخوته وأخواته ، سواء من كانوا أكبر منه سناً أو أصغر منه . ومن خلال هذه المعاشرة الطويلة تنتقل إليه خبراتهم . ويلمس فائدة ذلك ويميل إلى البقاء داخل المجموعة . ومن الطبيعي أن تكون هناك اختلافات في الطباع والميول وبالتالي تحدث اختلافات في الآراء . وصدامات ومصراعات نتيجة رغبة أحد الأطراف الاستئثار بعميزة دور فرد آخر

وهذا حدث في المجتمع الأول ، مجتمع آدم وحواء ، وقد بلغ قابيل وأخته سن الثانية والعشرين وهابيل وأخته سن العشرين وأراد قابيل الاستئثار بأخته قوامته لمع أن ذلك كان ممنوعاً . وقد سبق تقديم القصة . وقتل قابيل أخاه هابيل وكان هذا من عمل الشيطان ووسوسته تمشياً مع قول إبليس

« لآزين لهم في الأرض . ولاغوينهم أجمعين » .

(٢٩ - الحجر)

ومن الطبيعي أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل ، شعر ببشاعة جريمته ، ولم يكن ليتحمل نظرات أبويه ، ولا نظرات إخوته المستنكرة لفظته ، وخرج هارباً في الأرض خوفاً من أن يقتله أحد إخوته انتقاماً لمقتل هابيل .

وتقول التوراة فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن .

وحتى بعون هذه الجريمة . فما كان لبني آدم وأحفادهم ليبقوا في مكان واحد فقلقد رأينا في المسألة الحسابية السابقة أنهم - بعد ثلاثة أجيال فقط - ولو افترضنا الجيل عشرين سنة - أي بعد ستين سنة وصل عددهم إلى ٤٤٤٢ فرداً . ولم تكن البقعة التي نزل بها آدم وحواء لتسع كل هذا العدد ولا لعشرة فكان لابد وأن ينقسموا جماعات وترتحل كل جماعة سعياً وراء مكان جديد تتوافر فيه مقومات المعيشة من أكل وشرب وأماكن للسكنى . فإن كان آدم وحواء قد وجدا كهفاً يأويان إليه - يحتميان به من البرد . . وحماية لهم من الحيوانات المفترسة فما كانت الكهوف لتتوافر لهذا العدد الكبير في مكان واحد . وهكذا كانت العوامل التي تحدد عدد الجماعة هي الإمكانيات الغذائية وتوافر المأوى . وليس من المحتمل أن أي وحدة من وحدات المجتمعات الأولى كان يزيد عددها عن ٢٠٠ فرداً بلّ المحتمل أنها كانت أقل من ذلك بكثير . وهكذا كان لابد أن ينقسم أبناء الجيل الثالث (٤٤٤٢) إلى حوالي اثنين وعشرين وحدة يرتحل أغلبها وتبقى الوحدة « الأم » في مكانها . وإن كان قابيل قد ارتحل شرقاً بعد ارتكاب جريمته فلا بد أن جماعات أخرى اتجهت غرباً أو شمالاً . ويجب علينا أن نذكر شيئاً عن جغرافية المكان حتى نعرف أي الطرق سلكت هذه المجموعات في ارتحالها وهجرتها . ونبدأ بنبذة عن الأرض ونشأتها .

الأرض :

لا بهمنا هنا كيف نشأت الأرض هل نتجت من تكثف سحابة من الغبار الموجود بين الكواكب وتقاربت ذراته فارتفعت درجة حرارته أو أن نجماً كبيراً مر قرب الشمس فجذب جزءاً من مادتها ، انتثر وكونت معه الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس ومن بينها الأرض . فكل النظريات تؤكد أن الأرض بعد تكوينها كانت كتلة من الحجارة والمعادن السائلة وبمرور الزمن برد سطحها وظهرت به تجاعيد ، فظهرت الجبال وقيعان المحيطات التي امتلأت بالماء عند تكثف بخاره المحيط بالأرض .

ومرت على الأرض أزمنة لا يعلم مداها إلى الله سبحانه وتعالى ولا يعلم طول اليوم إلا هو . ولكنه - كما أخبرنا جل وعلا .

(٩ فصلت)

« خلق الأرض في يومين » .

ولا يعلم أحد ما طول اليوم من هذه الأيام .

(٤٧ الحج)

« وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

« وتعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

(٤ المغارج)

ولا شك أن هناك - في علم الله - أياماً أخرى أطول من ذلك بكثير يصل طول اليوم إلى ملايين السنين بل إلى آلاف الملايين من السنين وما ضرب الله المثلين السابقين إلا تقريباً لأذهاننا .

وتمكن العلماء من دراسة صخور الأرض ومعرفة الأحقاب التي مرت بها الأرض وقسموها إلى حقبة ما قبل الحياة . وهي ما قبل ٣٥٠٠ مليون سنة . وكانت الأرض لا تزال مغطيه . فلم يكن من الممكن أن تنمو عليها أي حياة .

ثم بدأت الأرض تبرد . وبدأت أنواع الحياة تظهر عليها تباعاً حسب ملائمة درجة الحرارة ، وتركيب الجو المحيط بالأرض . كل ذلك ليضع الله الأوقات في الأرض

« قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أزماناً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها . وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين » .
(٩ - ١٠ فصلت)

وكانت المعادن في باطن الأرض من ذهب وفضة وقمح ، وريمت بعض البحار بما فيها من أحياء مائية تحولت بمرور الزمن إلى بترول - وظلت بحاراً أخرى زاخرة بالأسماك
« وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً » .

(١٤ النحل)

وظهرت النباتات على اليابسة .

« وجعل من أعناب والزيتون والرمان مقشابها وغير متشابه » .

(٩٩ الأنعام)

ثم ظهرت الثدييات

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

(٨ النحر)

كل ذلك تمهيد لظهور خليفة الله في الأرض وهو الانسان .

وكانت الأرض تتعرض في بعض الأوقات إلى انخفاض شديد في درجة الحرارة وتتكون طبقات من الجليد تغطي أجزاءً كبيرة من الكرة الأرضية ثم تدفأ الأرض وينصهر الجليد ويتحول إلى ماء وتفيض الأنهار وتمتلئ البحار والمحيطات . ويقدر العلماء أن أربعة عصور جليدية قد مرت على الأرض وكان آخر هذه العصور الجليدية في قمته منذ ٢٠ ألف سنة تقريباً . وكان نزول آدم إلى الأرض في بداية فترة الدفء بعد العصر الجليدي الرابع - منذ حوالي ٢٠ - ١٥ ألف سنة

وكما نرى من شكل ٣ و٢ فإنه أثناء العصر الجليدي يتبخر ماء البحار والمحيطات وبدلاً من سقوط المطر ، يسقط بَرَدٌ ، وتتراكم الثلوج ، فتقل مياه البحار والمحيطات وتتكشف الأجزاء الضحلة من قيعانها . وبعض المضائق الحالية تكون وقتئذ أرضاً جافة يسهل اجتيازها .

وكما يتضح من شكل ٤ - أن مضيق باب المندب لم يكن موجوداً . بل كان أرضاً يابسة يسهل اجتيازها ، وكذلك مضيق هرمز .

سبق أن قلنا إن قابيل لما قتل هابيل فرَّ هارباً في اتجاه الشرق . في طريق الهجرة رقم ١ . وسكن أرض نود شرقي عدن . ولكن مع تكاثر بنى آدم وأحفاده بعبه آخرون وكلما تكاثر العدد اندفعت الهجرات كما في الشكل حتى وصلت إلى مكان مضيق هرمز وعبرته إلى جنوب آسيا . ثم إلى جنوب شرق آسيا ثم استراليا كما في شكل ٥

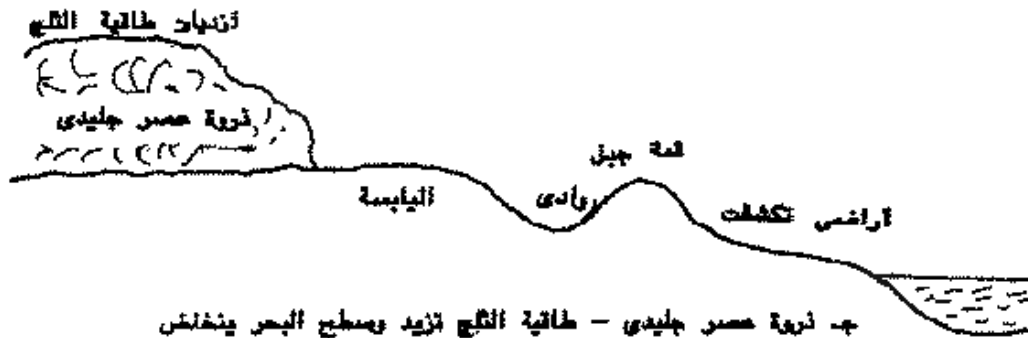
ولابد أنه قد اندفعت هجرات أخرى إلى وسط آسيا ثم عبر مضيق برنج إلى الأمريكتين . ويكون في هذا تفسير لوجود بعض من بنى آدم عند اكتشاف هذه القارات فيما بعد - وهذا ثلرء على من يدَّعون أن سكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر بأمريكا قد انحدروا من آدم آخر غير سيدنا آدم . وزعموا أن ذلك يؤيد نظرية التطور .

ومن هذا الشكل نرى أن من عمروا جنوب وجنوب شرق آسيا وأستراليا كانوا من نسل قابيل . وهي أماكن لم يظهر فيها نبي أو رسول . وهذا يتفق مع العقل . فما كان الله ليجعل من نسل قاتل أخية نبياً أو رسولاً .

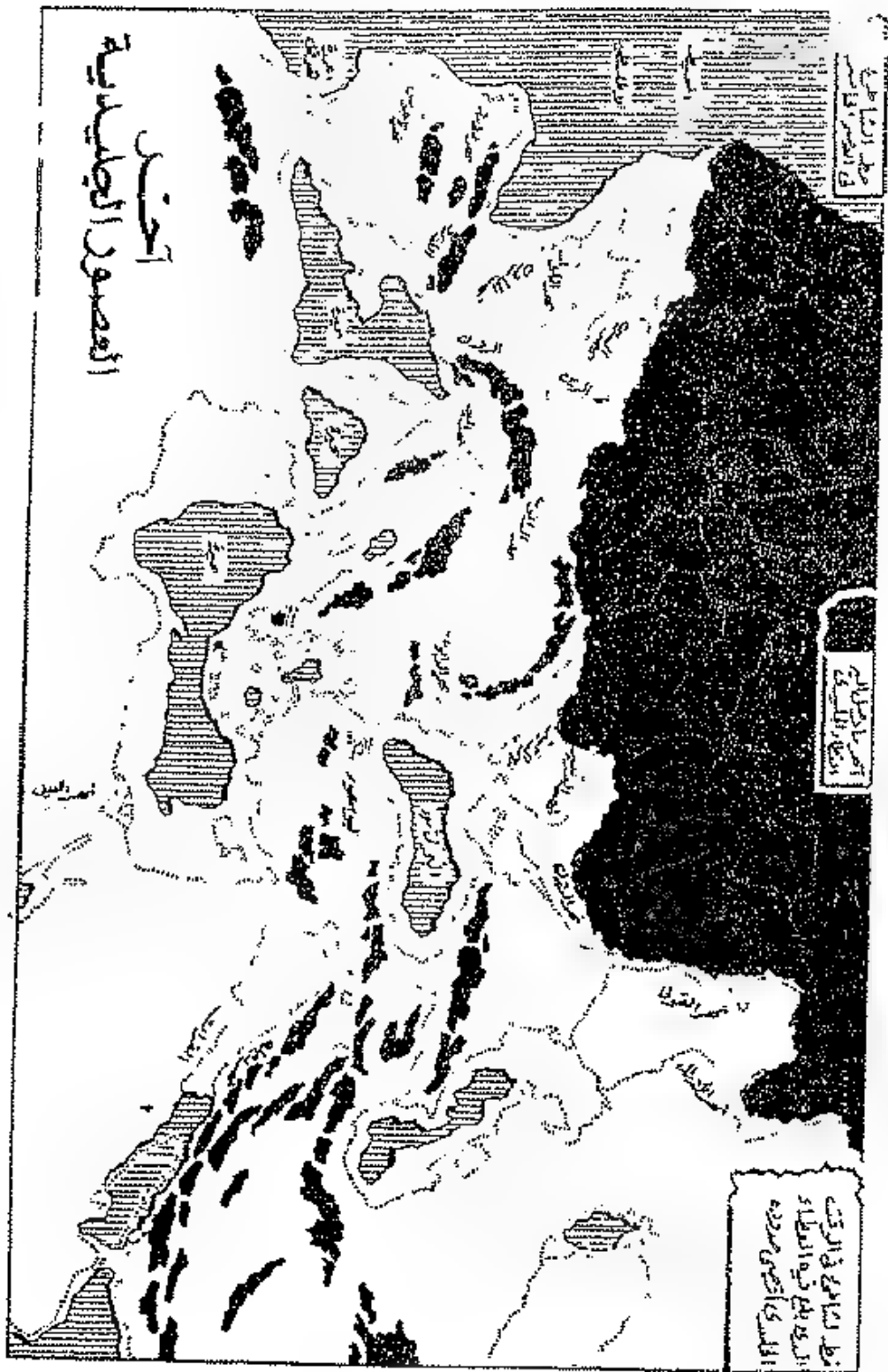
الطريق الثاني لهجرات بنى آدم بعد تكاثرهم ، كان غرباً . عبر مضيق باب المندب الذي كان جافاً . ولابد أن أبناء شيث بن آدم وأحفاده قد اتخذوا هذا الطريق ولما جابهتهم جبال شويشيا المرتفعة ساروا شمالاً بجوار الساحل الغربي للبحر الأحمر وكما سنفصل فيما بعد . فإبهم وصلوا إلى وادي النيل الخصيب وعمروه ثم ظهر فيهم إدريس عليه السلام .



جزء من مياه الأمطار يتجمد

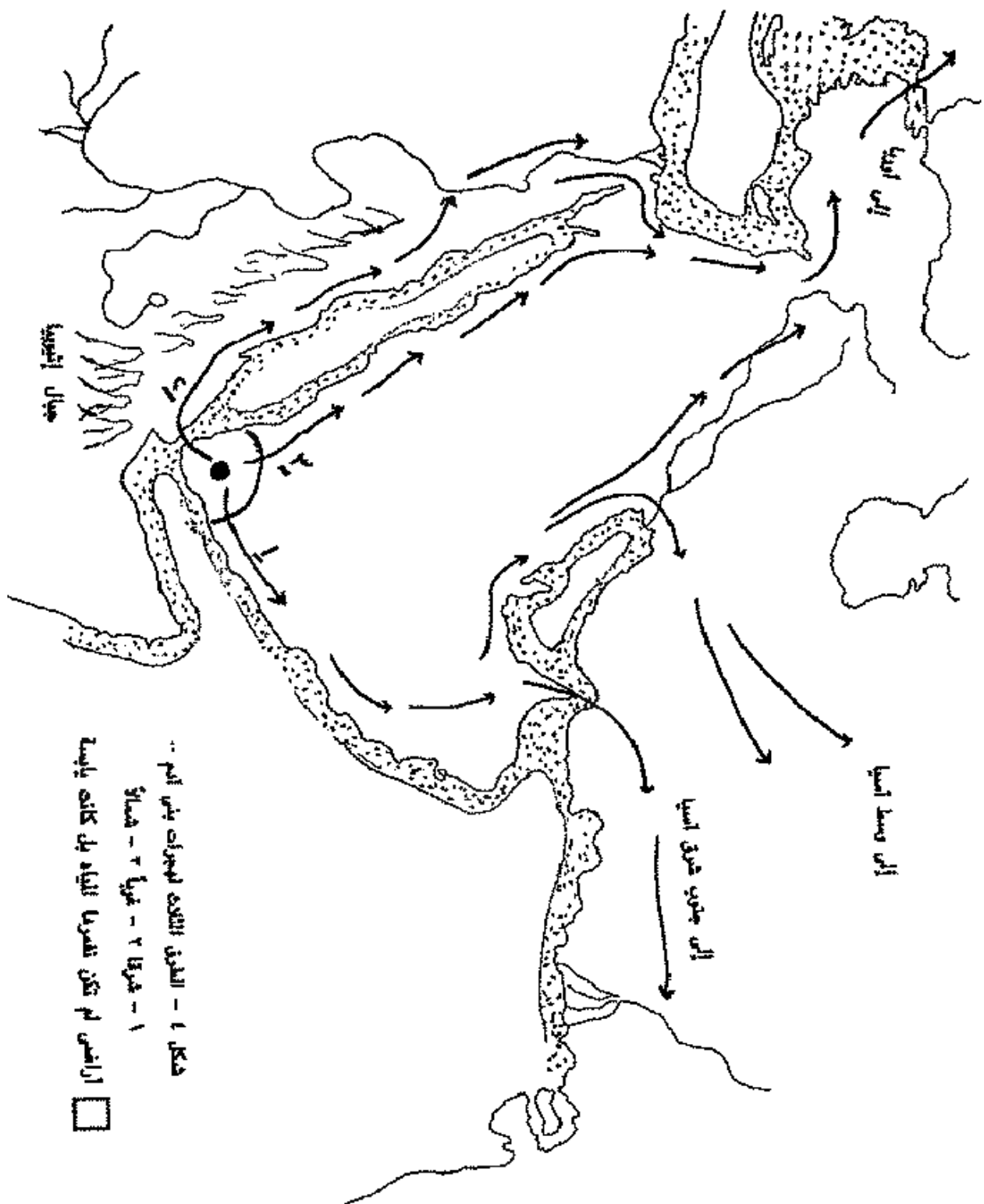


شكل ٢ - التغيرات في سطح البحر في العصور الجليدية

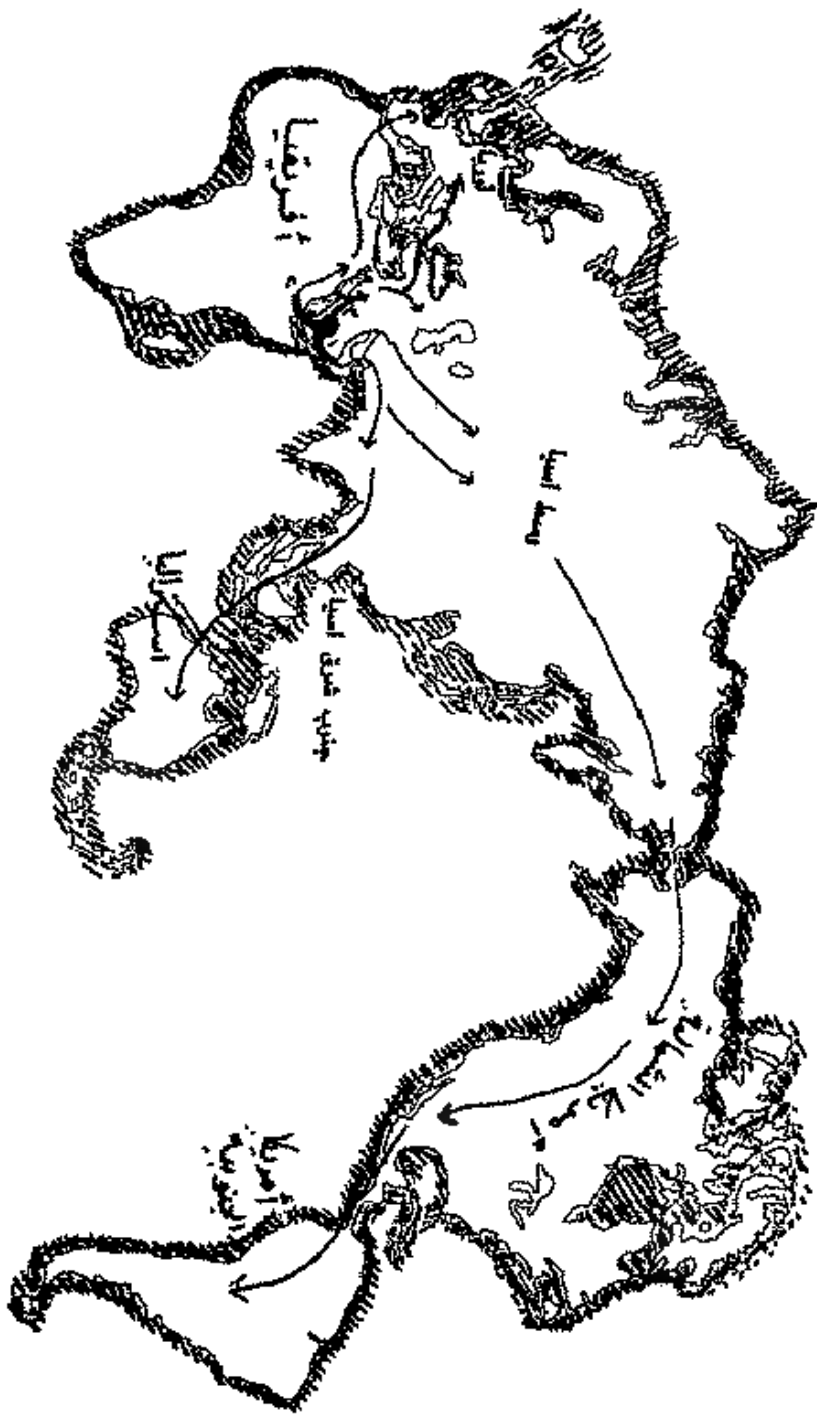


أرضنا طبع في المصدر

شكل - ٣ - منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط
في آخر المصدر الجغرافية



شكل ١ - الطرق الثلاثة لهجرات بني آدم --
 ١ - شرقاً ٢ - غرباً ٣ - شمالاً
 □ أراضي لم تكن تقريبا للبناء بل كانت بايئة



كل - - الممرات الكبرى للمواصلات البحرية
والاقتصاد العالمي كله يرتكز بالأساس في الممرات البحرية

وكان الطريق الثالث للهجرات من عدن . هو شمالاً بحذاء الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، حتى وصلوا فلسطين والشام . ثم آسيا الصغرى قنوريا .

قلنا إن قابيل وبنيه ساروا شرقاً . وأصبحوا بعيدين وغير محتاطين بأبناء عمومتهم الذى كانوا يسكنون قرب قبر آدم . ولم يكونوا ليستطيعوا أن يذهبوا لينزروا قبر جدهم . وتضايق أولاد قابيل ولعل أحدهم قال إن لأبناء أعمامنا ما يطوفون حوله ويعظمونه وأنتم ما لكم من شئىء ، وإننى لصانعكم لكم . وصنع لهم صنما وراح أبناء قابيل يطوفون حوله ليكون آدم . ويمضى الوقت تناسوا ذكر الله وذكر آدم . وكانت هذه بداية عبادة الأصنام .

ولاشك أن وسوسة الشيطان كان لها دور كبير فى هذا الضلال فهو الذى توعد بنى آدم .
« قال أرايتك هذا الذى كرمت على . لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتككن ذريتة إلا قليلا » .
(٦٢ - الإسراء)

وقال « لأزين لهم فى الأرض ولاقوينهم أجمعين » .
وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » .
(١٦ - ١٧ - الأعراف)

وفى المقابل كان الإلتجاء إلى الله هو الملاذ من وسوسة الشيطان وفرايته لقوله تعالى :
« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من إتبعك من الفاوين » .

(٤٢ - الحجر)
وكما بعد الناس عن الطريق المستقيم وضلوا - أرسل الله الرسل والنبيين مبشرين ومنذرين - يهدون الناس إلى الصراط المستقيم

« إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله » .
(١٤ - فصلت)

وكان أول الرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم بعد آدم هو إدريس عليه السلام إلا أنه من المحتمل أن شيتاً . بن آدم كان نبيا - وإن لم يقص القرآن الكريم عنه شيئاً .

شيث عليه السلام

لا تذكر الكتب التي كتبت قصص الأنبياء شيئاً عن شيث - ابن آدم - فهي لا تضعه في عداد الأنبياء - ولكن ورد حديث لأبي ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة * .

ونزول صحف على شيث تجعل منه نبياً - بل ورسولاً أيضاً حسب ما هو معلوم من تعريف الأنبياء والرسول (ص ٢ - المقدمة)

وعلى ذلك يكون شيث ممن قال عنهم القرآن الكريم :

« ورسلاً لم نقصصهم عليك » . (النساء - ١٦٤)

إذ لم يرد شيء عنه في القرآن الكريم .

أما لماذا لم يرد شيء عنه في القرآن الكريم فلعل سببته مع القوم لم يكن فيها ما يمكن استخلاصه ليكون عبرة لغيرها من الأمم . وذلك هو الهدف من القصص القرآني لقوله تعالى

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » . (يوسف - ١١١)

وكان في ميلاد شيث خصوصية تميز بها على باقي إخوته - إذ وُلِدَ منفرداً . وكان كل إخوته يولدون ومع كل واحد منهم أخت له في البطن الواحدة إلا شيثاً . وُلِدَ منفرداً .

ومعنى شيث هبة الله ، وسَمَّيَاهُ بذلك لأنهم رزقوا به بعد أن قُتِلَ هابيل .

وفي هذا تقول التوراة - إصحاح ٤ .

وعرف آدم امرأته . فولدت إبناً ودعت اسمه شيثاً ، قائلة لأن الله قد وضع لي نسلًا عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله .

وفي الإصحاح ٥ تقول :

وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثاً ثمانى مائة سنة .

وعلى هذا فيحتمل أن شيئاً كان أقرب الأبناء شبهاً بآبيه - آدم عليه السلام .

وما كانت الصحف لتنزل على شيث لو بقي في نفس الأرض التي بها أبوه - آدم - إذ الأولى أن تنزل الصحف - كما كانت تنزل - على آدم نفسه . وهذا يدل على أن شيئاً لا بد كان قد ارتحل إلى أرض جديدة . ويؤكد ما افترضناه من أنه مع تكاثر القرية من أبناء آدم وبينهم وأحفادهم - ضاقت بهم الأرض في عدن - فارتحل شيث - ومعه بعضاً من إخوته وبقيهم - في طريق مغاير للطريق الشرقي الذي اتخذه قايين - فارتحل هو غرباً وعبر مضيق باب المندب الذي كان في ذلك الوقت أرضاً يابسة (شكل ٧ صفحة ٥٠) .

كانت الجماعة التي معه على ديانة التوحيد التي علمهم إياها آدم عليه السلام . ولكن البشرية كانت لا تزال في أولى خطواتها وكان أمامها الكثير الذي يجب أن تعلمه . ييسر لها حياتها على الأرض . ولعل الله اختار شيئاً ليكون هو الراعي لشئون القوم وأنزلت عليه الصحف التي جاء ذكرها في الحديث الشريف . وبالقسط لم تزد على أنها استكمال لتعاليم آدم عليه السلام . وتفصيل أو توضيح لما أمرهم به من مجادات . وقد يكون جاء بها شيء يصلح لهم أيضاً من أمور دنياهم - المهم أنه لم يكن في قصته أو سلوك الجماعة معه ما هو عبرة لغيرهم من الأمم ، فلم يكن هناك من داع لذكر شيء عن قصته في القرآن الكريم . بل كان ضمن الرسل الذين لم يقصصهم الله سبحانه وتعالى .

وتقول التوراة أيضاً .

كان عمر شيث ١٠٥ سنة لما ولد له أنوش .

وأنوش كان عمره ٩٠ سنة لما ولد قينان .

وقينان كان عمره ٧٠ سنة لما ولد مهللئيل .

ومهللئيل كان عمره ٦٥ سنة لما ولد له يارد .

ويارد عمره ١٦٢ سنة لما ولد له أخنوخ

وأخنوخ هو إدريس عليه السلام وكان هو أول نبي جاء ذكره في القرآن الكريم بعد آدم عليه السلام .

إدريس عليه السلام

جاء ذكر إدريس عليه السلام في القرآن الكريم في سورتين :
« واذكر في الكتاب إدريس . إنه كان صديقاً نبياً . ورفعناه مكاناً علياً »

(٥٦ - ٥٧ - مريم)

« وإسماعيل وإدريس وداود الكفل . كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا . إنهم من الصالحين » .
(٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

ولم يذكر في القرآن الكريم أكثر من ذلك عن إدريس عليه السلام ولعل ذلك سببه أن المصريين لم يؤثر عنهم أنهم عارضوه بل إنهم آمنوا به واتبعوه - بل إن مبادئ الديانة التي أرسل بها أثرت فيهم تأثيراً عميقاً وبقى الدين محورياً رئيسياً في حياة المصريين - ولم يكن في قصتهم عبرة أو عظة لغيرهم من الأمم اللاحقة .

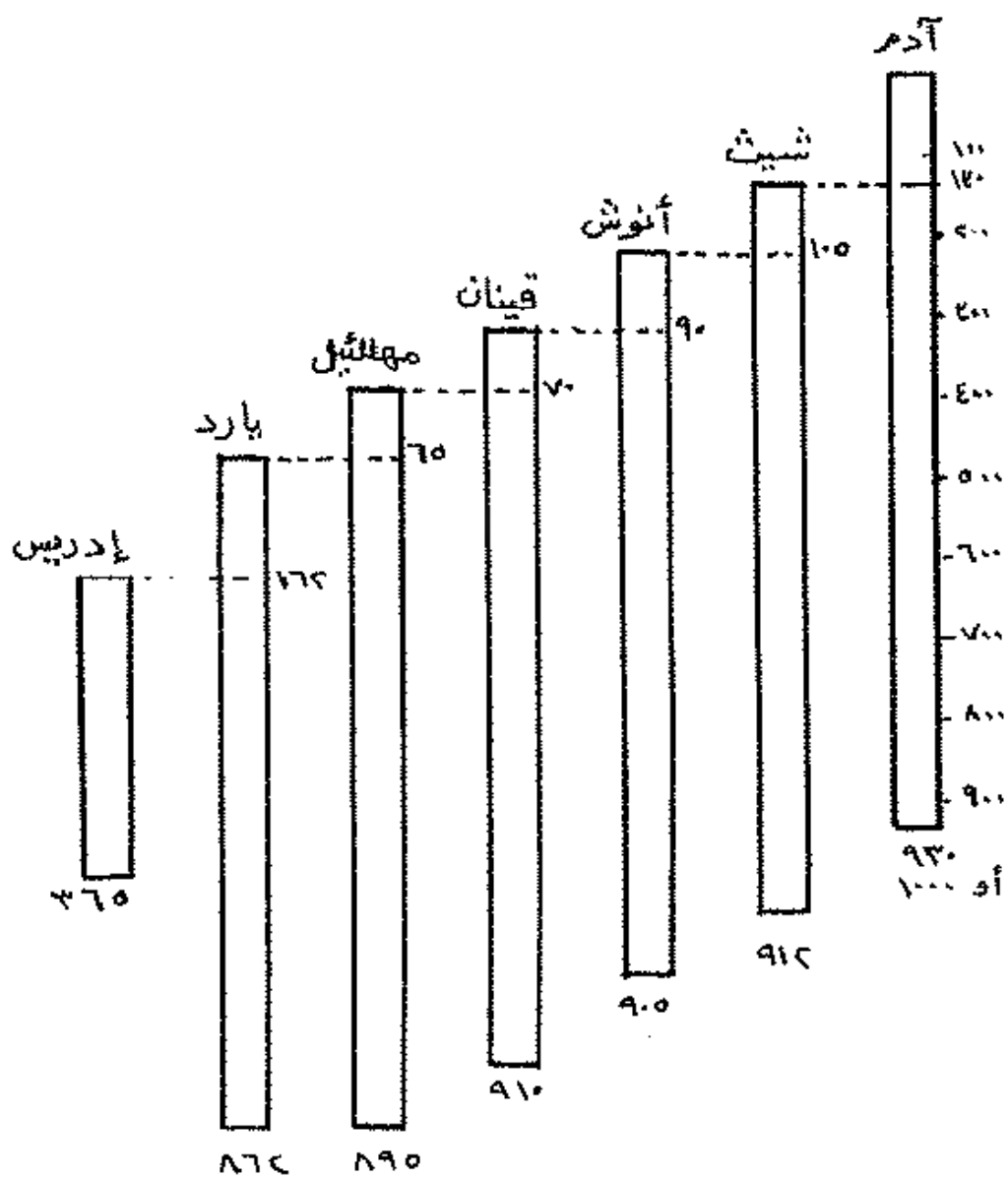
كذلك كان ذكره في كتب قصص الأنبياء مختصراً ، في بعضها لم يزد عن نصف صفحة والبعض الآخر توسع بإضافة ما كتب في التفاسير من أساطير عن تفسير قوله تعالى « ورفعناه مكاناً علياً » وفي كيفية رفعه إلى السماء . وسنذكرها فيما بعد .

وقد جاء ذكر إدريس في صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله ﷺ : « لما خرج بي أتيت على إدريس في السماء الرابعة » .

كذلك لم تذكر التوراة عن إدريس إلا أنه « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » وهو تعبير عن « رفعه » الذي جاء في القرآن الكريم .

وذكرت التوراة سلسلة النسب من آدم حتى إدريس هكذا في آخر الإصحاح الرابع تكوين وهو ما سبق ذكرها في الصفحة السابقة وفي الإصحاح الخامس . تقول التوراة :

هذا كتاب مواليد آدم : .. وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثاً ثمانى مائة سنة وولد يثين وبنت . فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مائة وثلاثين سنة ومات .



شكل ٦ - نسب إدريس عليه السلام - المربع الواحد = ٥٠ سنة
 الرقم أسفل العمود هو العمر كله
 والرقم العلوي هو السن عند ولادة الإبن.

وعاش شيث مائة وخمسة سنين وولد أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مائة وسبع سنين . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسع مائة واثنى عشرة سنة ومات . وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان . وعاش أنوش بعد ما ولد قينان ثمانى مائة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام أنوش تسع مائة وخمس سنين ومات . وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل . وعاش قينان بعد ما ولد مهللئيل ثمانى مائة وأربعين سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام قينان تسع مائة وعشر سنين ومات . وعاش مهللئيل خمسا وستين سنة وولد يارد . وعاش مهللئيل بعد ما ولد يارد ثمانى مائة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات . فكان كل أيام مهللئيل ثمانى مائة وخمسا وتسعين سنة ومات . وعاش يارد مائة واثنين وستين سنة وولد أخنوخ ثمانى مائة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام يارد تسع مائة واثنين وستين سنة ومات . وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالغ . وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالغ ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة . وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه .

هذا ما جاء فى التوراة عن أخنوخ أى باختصار هو أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم . كان عمر آدم لما ولد شيث ١٣٠ سنة وعمر شيث لما ولد أنوش ١٠٥ سنة وعمر أنوش لما ولد له قينان ٩٠ سنة . وعمر قينان لما ولد مهللئيل ٧٠ سنة وعمر مهللئيل لما ولد له يارد ٦٥ سنة . وعمر يارد لما ولد له أخنوخ ١٦٢ سنة (شكل ٦) .

فإذا جمعنا هذه الأعمار لإتضح لنا إن أخنوخ ولد لما كان عمر آدم ٦٢٢ سنة - وبالطبع كانت ذرية شيث قد ارتحلت ارتحالا متواصلا حتى وصلت أرض مصر - حيث ولد أخنوخ . عبر فترة زمنية تقدر بخمسمائة سنة .

ومنشأ القول بأن إدريس الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم هو «أخنوخ» فى التوراة - هو تطابق المعنى فى قوله تعالى « ورفعناه مكانا عليا » - وما جاء فى التوراة . ولم يوجد لأن الله أخذه .

كما أن رفعناه الواردة فى القرآن كان رفعا حقيقيا وليس معنويا - إذ أن جميع الأنبياء لا شك فى ارتفاع مكانتهم المعنوية وارتفاع قدرهم عند الله - إلا أنه لم يوصف أحد منهم بذلك إلا إدريس عليه السلام - وكذلك عيسى عليه السلام فى قوله تعالى

(٥٥ - آل عمران)

« يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی » .

لم ينتبه المستشرقون إلى إختلاف إسم النبي كما ورد في القرآن الكريم - إدريس - عن الإسم الوارد في التوراة - أخنوخ - إذ هم لم يعتقدوا أن الإسمين هما لشخص واحد . ولأننا طنطننا وأفاضوا كما فعلوا في إسم أبي إبراهيم عليه السلام - أزر - كما جاء في القرآن الكريم و - تارج - كما جاء في التوراة . وسيجيء ذلك في التفصيل في الجزء الثاني إن شاء الله في سيرة إبراهيم عليه السلام .

لأن الأستاذ رؤوف أبو سعده فسر إختلاف الأسماء هذا على أن الإسم العربي هو ترجمة لعنى الجذر المشتق عنه الإسم الوارد في التوراة .

ولاقرب المسألة إلى ذهن القارئ أضرب مثلاً من الطب . فإتينا نقول إن شخصاً عنده Anemia وهو لفظ إنجليزى - ويمكن عند تعريبه أن نلجأ إلى إبقاء النطق كما هو عند الكتابة ونكتبه بحروف عربية هكذا - أنيميا - أى كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية . ولكن الغيورين على اللغة العربية لا يرتضون هذا الحل فيرجعون اللفظ الأجنبى إلى مقاطعه ومعناه فتجد أن An تعنى قلة و emia - تعنى دم أى تعنى هلة أو فقر دم . وعلى ذلك فإن فقر دم هى الترجمة العربية لكلمة أنيميا الإنجليزية .

فإذا انتقلنا إلى أسماء الأشخاص ونفرض شخصاً اسمه بالإنجليزية Mr. Carpenter فمن الممكن أن نبقي النطق كما هو ونكتبه بحروف عربية هكذا مستر كاربنتر - ومن الممكن إرجاع الإسم الإنجليزي إلى معناه نجد أنه هو الشخص الذى يعمل الأدوات الخشبية أى النجار فتكون الترجمة العربية لإسم Carpenter كاربنتر - هو النجار .

وعلى هذا المنوال يمكن ترجمة مستر بلاك سميث Mr. Black smith إلى الإسم بالعربية - السيد الحداد .

ومستر Shepard شبرد إلى الراعى

وهذه الطريقة مستعملة حالياً فى بعض الأسماء مثل

مدرسة الراعى الصالح Bon Posteur بدلاً من بوباستير.

مدرسة القلب المقدس Sacre Coeur بدلاً من ساكركير.

وهى طريقة تعطى معنى للإسم العربى لا تعطيه له طريقة كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية

هذا ملخص الطريقة التى افترض الأستاذ رؤوف أبو سعده أن القرآن الكريم قد اتبعها الرجوع بالإسم الأجنبى إلى جذره اللغوى ، ثم ترجمة الجذر أو أخذ مرادفه فى اللغة العربية واشتقاق الإسم منه فيكون للإسم العربى نفس معنى الإسم الأجنبى .

بتطبيق هذه الطريقة على إسم أخنوخ - الوارد في التوراة ، يرى الأستاذ رؤوف أن أصلها العبري هو «حنوك» ، وفي العبرية إذا جاءت الكاف بعد حرف متحرك أو مُعْتَل تنطق خاء ، أي أن حنوك تصبح حنوخ . وكلمة حنوك العبرية مشتقة من حَنَّك وهي تقابل الحنكة في العربية بمعنى الثقافة وحسن التدبير ، وحنَّك العبرية فقهه وثقفه وعلمه فهو حنوك أي حنوخ أو أخنوخ

والجذر العربي المرادف هو درس . والإسم إدريس مشتق من دَرَسَ بمعنى الدارس الحاذق الذي دَرَسَ لغيره وعلمه وهو يسارى في المعنى إسم أخنوخ الوارد في التوراة . المشهور أن إدريس هو الذي علم المصريين العلوم والحساب والنجوم والسياسة فضلاً عن التعاليم الدينية وعقيدة البعث للحياة الآخرة .

وعلى كل فهو أجتهد لا يأس به

كيف وصل إدريس والمصريون إلي مصر؟

كما ذكر في المقدمة فإن نهج الكتاب هو ربط قصص الأنبياء بالتاريخ لذلك كان لزاماً أن نذكر كيف وصل أبناء آدم من نسل شيث إلى وادي النيل ، وأدى تكاثرهم إلى وجود قدماء المصريين - وكيف كانت ديانتهم التي استمدت إرسال إدريس عليه السلام نبياً .

سبق أن افترضنا أن أبناء شيث وأحفاده وبعضاً من إخوته - عندما ضاقت بهم الأرض في عدن - قد اتخذوا طريق الهجرة رقم ٢ - عبر مضيق باب المندب الذي كان في ذلك الوقت - قرب آخر العصر الجليدي الرابع - جافاً يسهل اجتيازه ، وواصلوا سيرهم شمالاً حتى وصلوا أرض مصر (شكل ٧) .

لم تذكر أي من الكتب السابقة مثل هذا الاعتراض ولكنه هو الاحتمال الأكبر حوثاً . إذ أن أول الحضارات التي ظهرت في العالم كانت في مصر . وأول نبي بعد آدم وشيث كان إدريس . وكان ظهوره في مصر أيضاً . ولعل القبائل من نسل شيث ظلت ترحل تدريجياً شمالاً بمحاذاة الساحل الغربي للبحر الأحمر ، في السهل الساحلي حتى وصلوا الهضبة الشرقية لوادي النيل وسكنوها .

ولم يكن مناخ تلك الأماكن صحراويّاً أو جبليّاً قاحلاً كما قد يبادر إلى الذهن إذ نراها الآن . بل كانت الأمطار تسقط عليها . فتوفرت المراعى التي ساعدت على العيش . واستمرت القبائل تتكاثر ويزداد تعدادها . فترحل جماعات منها طلباً للرّزق ويكون الإتجاه شمالاً حيث الأمطار أكثر وفرة والمراعى أغزر .

وسكن بنو شيث وبنو أموش وقينان - ومهلليل الهضبة الشرقية لوادي نهر النيل ولكن لما



شكل ٧ - كيفية عبور شيث وقبيلته باب المنجب
ثم وصول القبائل من تسله إلى معبر
أماكن كانت يابسة في ذلك الوقت

بدأت حرارة الأرض في الارتفاع، بدأ العشب يقل في الهضبة. وأخذ الناس يهاجرون طلباً للماء . ولابد أنهم تعقبوا بعض مجارى السيول ورأوا أن أغلبها يتجه غرباً فتبعوه إلى أن وصلوا إلى نهر النيل العظيم، حيث وجىء الماء العذب متوافراً بكثرة فاستقروا حوله . وأغرى توافر الرزق القبائل الأخرى بالقنوم إلى وادى النيل . فالمرعى تسع الكثيرين ، وبسرعة انتشر الناس في الوادى وعمروه . وقدر لمصر أن تكون مهذاً لأول حضارة في العالم .

ومع دفء الجو ذابت الثلوج وامتلات المحيطات والبحار بالمياه، وأصبح ممر باب المندب مضيقاً تغمره المياه وانفصلت قارة آسيا عن أفريقيا في هذا المكان وأصبح على من يريد العبور من عدن إلى أفريقيا أن يتخذ طوقاً أو مركباً .

ويجدر هنا أن نذكر نبذة عن مصر وعن ديانتها وكيف تطورت من أبناء شيث الذين كانوا يعبدون الله كما علمهم جددهم آدم عليه السلام . وكذلك بما وصلهم من صحف أنزلت على شيث، ولكن بمرور الزمن ضلوا ولزم أن يرسل نبي لهدايتهم وكان هو إدريس عليه السلام .

مصر قبل إدريس عليه السلام :

بعد أن عبرت جماعات البشر مضيق باب المندب اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل في الهضبة الشرقية لوادى النيل التى كانت زاخرة بالمرعى . وكان كل عمل الإنسان في ذلك الوقت هو رعى الأغنام . وشرب لبنها . وأكل لحومها، ولحوم ما قد يصيده من حيوانات أخرى مثل الغزال والأرانب . ولعله تعلم أن يسليخ جلدها بعد ذبحها، ويكشط الدهون منها بقطع من الحجارة شحذها لتكون حادة، ثم يضع الجلود في الشمس بعد أن يشد أطرافها بثواتد ويتركها حتى تجف . ثم يلقها حول وسطه لإخفاء العورة وللحماية من البرد . ولعله بعد ذلك تعلم كيف يخيظ بعضها إلى البعض بإبر من العظم وخيوط من الكتان . فتوفرت له ثياب مهندمة بعض الشيء ، ولعله صنع منها خياماً ليبيت فيها .

وعندما كانت الجماعات تنتقل من أرض إلى أرض ، كانت النساء يحملن الأطفال والمتاع ، بينما الرجال يحملون العصي أو الحراش حماية من أى طارئ .

ولما وصل الإنسان إلى وادى نهر النيل ، بدأ الاستقرار ، فالنساء متوافر - والصيد أيضاً متوافر ، من الأسماك في المستنقعات ، والظباء في الأحراش ، وتوافر العشب للأغنام ، ولم يعد هناك حاجة للإرتحال الدائم . وبدأ يفكر في مبيت أكثر أماناً من الخيام . وأوجدت طبيعة العقل البشرى الخلاقة ، الحل . فقد رأى الطين يجف ويصبح جامداً فكان أن جعل منه قوالب وبنى بها بيئاً . ثم بنى في تشكيل الطين وصنع منه أواني لحفظ الحبوب .

ومن شروط استقرار الحياة استقراراً صحيحاً ، هو وجود منطقة يتوافر فيها الطعام ، ومورد ماء يمكن أن يعتمد عليه على مدار السنة . وتوافر الحشائش كعلف للماشية . ووجود مواد تصلح لبناء المسكن .

ولم تكن هذه الاشتراطات لتتوافر - في ذلك العصر السحيق ، في مكان آخر غير وادي النيل، وفي المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والفرات . لذلك ظهرت أولى الحضارات في العالم في مصر ، وحين وصل البشر إلى منطقة ما بين النهرين ظهرت ثاني الحضارات لذلك كان أول الأنبياء بعد آدم ، هو إدريس عليه السلام في مصر ، يليه نوح عليه السلام في العراق .

كان هذان الإقليمان يتمتعان بمورد دائم من المياه لا ينضب وشمس ساطعة في أغلب العام ، وتربة طينية خصبة ، وهكذا كانت الزراعة تجود على المزارعين بمحمول وافر . بالإضافة إلى مراعى الأغنام وأشجار النخيل والعنب والتين . أما مواد البناء فكان الطين متوافراً في الإقليمين وزاد في مصر فيما بعد ، الحجر الجيري ، وهو سهل النحت وسهل التهذيب . فظهرت المباني من الحجارة في مصر .

وفي هذه الظروف كان الناس يكفون عن التجوال ويستقرون ويتكاثرون ويبتجون عدداً من السكان أكثر مما تطيقه الأرض ، فكان لابد أن تهاجر جماعات - نحو الجماعات إلى أماكن جديدة . وتم طرد عدد كبير من الحيوانات أو صيدها - ولم تعد هناك جلود تكفي احتياجاتهم . وتوصل الذهن البشري إلى غزل صوف الغنم والياف شجر الكتان والنيل في خيوط ثم نسجها في أقمشة .

وبرع سكان مصر في صنع الأواني من الفخار - وظهرت مهارتهم أكثر في قلع الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها . فصنعوا الفتوس والمناجل ثم صنعوا أنية جميلة الشكل من البازلت الأسود والمرمر .

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن السكان قد استقروا في وادي النيل كانوا وحدة واحدة كما في عصرنا الحالي . بل كانوا عبارة عن جماعات صغيرة متناثرة . كل جماعة بنت لها عدة بيوت ، وحولها مساحة لزراعتها تكفيهم من الحبوب ومرعى لأغنامهم . أي أنها كانت قرى صغيرة تفصلها المستنقعات عن غيرها من القرى .

وتعلم الإنسان أن يعمل طوفاً من نبات السمار - ثم من نبات البردي - يركب ليصير به هذه المستنقعات . ثم استعمل سيقان الأشجار بعد تجويفها وفي مرحلة تالية صنع المراكب الصغيرة من ألواح الخشب .

العقيدة :

كان السكان الأوائل قريبي العهد بآدم وشيث . وظلوا في الشدائد والملأت يلجأون إلى الله ويذكرونه . ولعل الشيطان فيما بعد قد وسوس لهم - كما وسوس لبني قابيل الذين ارتحلوا شرقاً - وأغراهم بصنع تمثال على هيئة آدم - حتى يظل في ذاكرتهم . ولعلهم كانوا يطوفون حوله ويذكرون الله . ولكنهم بعد فترة نسوا ذكر الله ونسوا آدم . وبدأوا يقدسون التمثال نفسه

كذلك فإن كل جماعة كان يرأسها أكبرهم سناً . ينظم أمورهم ويحكم بينهم . والكل يطيعونه ويهابونه . وينغرس في نفس الصغار توقير الرجل المس والخوف منه . وكان عليهم ألا يجلسوا مكانه ولا يلمسوا درعه أو رمحاه .

وعند موت أحد هؤلاء الرؤساء والمسنيين كان البعض يراهم في أحلامهم ، فيظن أن أوراخهم هائمة . فكانوا يصنعون تماثيل على هيئتهم لتسكن إليها هذه الأرواح فلا تؤذيهم - وهكذا ظهرت فكرة تقديس الأسلاف وأحياناً كانت الجماعة تتخذ طوطماً - حجراً بدون تشكيل أو بتشكيل بسيط - تزعم أن روح هذا السلف قد حل فيه فيقدسونه . وأحياناً تتخذ الجماعة حيواناً تجعله طوطماً ، وبالطبع فإنها تحرم نبح هذا الحيوان أو صيده . وقد يكون للجماعة عدة طواطم في آن واحد

ثم نشأت فكرة أخرى ، ولعلها كانت بسبب الأمراض التي كانت تسبب الوفاة في سن مبكرة ، وأصبحت تُعزى إلى الإصابة باللعنات . ومن ثم ظهرت فكرة التطهير وإزالة اللعنات ، بإرشاد المسنيين أو العجائز المحنكات . وكان هذا بدء ظهور الكهانة والسحر . وإسترضاء الأرواح الشريرة كانت تُقدّم الضحايا والقرايين . وهذا جعل لطبقة الكهنة سلطاناً عظيماً على الناس . وبدأوا يبنون المعابد التي يقدسون فيها الأصنام والطواطم ، وتُقدّم إليها الهبات والقرايين لتكون من نصيبهم فأزادوا ثراء بغير تعب . وكان لابد من قوة أعلا ينتسبون إليها . فجعلوا الملوك من نسل الآلهة . أو نحل روح الإله فيهم . والتف حول الملوك والكهنة ، السحرة والدجالون . كل ذلك جثم على صدور الشعب وزاد من متاعبهم إذ كان عليهم أن يعملوا ليؤفروا لكل هؤلاء معيشة رغدة بدون عمل حقيقي يؤتونه .

وظل الحال كذلك ما يقرب من خمسمائة عام . وزاد طغيان الكهنة وازداد الظلم ولعل الشعب المغلوب على أمره ، وجد أن خير ما ينسيه همومه ، هو عصير العنب بعد أن يترك عدة ليتخمر ، فانتشرت صناعة النبيذ

وكان لكل جماعة معبودها ، تمثالاً أو طوطماً - على هيئة إنسان أو حيوان أو حتى نبات ، وكانت الصراعات تقوم بين الجماعات لاستلاب الحبوب أو الماشية وكثر الفساد وعم البلاد كلها ، وكان لابد أن تتدخل العناية الإلهية !

جماعة واحدة لما تصيبها هذه الشرور ، هي جماعة يارد بن مهللثيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، ووُكِّدَ ليارد ولد سماه أخنوخ أو خنوخ أو إدريس واختاره الله لهذا الأمر وبعثه نبياً .

إدريس عليه السلام :

« واذكر في الكتاب إدريس ، إنه كان هديفاً نبياً ، ورهعتاه مكاناً علياً » .

(٥٧ ، ٥٦ مريم)

وكان إدريس أول بنى آدم أُعطي النبوة بعد آدم و شيث عليهما السلام .

وقال سفيان عن منصور ، عن مجاهد ، إن إدريس لم يموت ، وُرفِعَ كما رفع عيسى ، وقال رفع إلى السماء الرابعة . وقال العوفي عن ابن عباس ، رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وعن الحسن البصري قال رفع إلى الجنة .

وفي تفسير الألويسي - روح المعاني - حديث عن ابن المنذر عن عمر مولى عفرة يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً . وكان يقسم دهره على نصفين ثلاثة أيام يعلم الناس الخير . وأربعة أيام يسيح في الأرض ويعبد الله مجتهداً . وكان يصدر من عمله وحده إلى السماء من الخير ، مثل ما يصعد من جميع أعمال بنى آدم . وأن ملك الموت أحبه في الله وصحبته (وهو لا يدري أنه ملك) . واختصار الحديث أن إدريس لما رأى أنه لا يأكل شك فيه ، فاعترف بأنه ملك الموت . وسأله إدريس قال : أحب أن تذيبني الموت ثم ترد علي روحى ، فقال ما أقدر إلا أن استأذن فاستأذن ربه فأذن له . فقبض روحه ثم ردها الله تعالى إليه . فقال له ملك الموت : يا نبي الله كيف وجدت الموت . قال أعظم مما كنت أحدث وأسمع . ثم سأله رؤية الجنة وأن يدخلها ليأكل من ثمارها ويشرب من شرايبها ليكون بعد ذلك أشد طلباً في عبادته . ففعل - ولما طلب منه ملك الموت الخروج من الجنة رفض إدريس وقال إن شئت خاصمتك . فقال إدريس إن الله تعالى قال : كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته . وقال وما هم منها بمخرجين . لذلك فهو حي في الجنة .

ودوى ابن جرير الطبري عن عدة رواة . أن الله أوحى إلى إدريس أنه يرفع إليه كل يوم

مثل جميع عمل بنى آدم ، فأحب أن يزداد عمله فتأه ملك من الملائكة فقال له إدريس كَلِّمْ ملك الموت حتى ازداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء . فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكَلِّمْ ملك الموت في الذي كلمه به إدريس . فقال . وأين إدريس؟ فقال هو على ظهري ، فقال ملك الموت فإلْعَجِبْ! بُعِثْتُ وَقِيلَ لِي أَقْبِضْ رُوحَ إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو على الأرض ، فقبض روحه هناك .

ورواه ابن حاتم بنهاية أخرى إذ قال إدريس سَلِّ لِي ملك الموت كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه . فقال لا أدري حتى أنظر . فنظر فقال إنيك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين . فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس . فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر .

وقال الحافظ ابن كثير . وهذا من الإسرائيليات وهي بعضه نكارة والأسلم تفويض علم ذلك إلى الله .

أين ولد إدريس ؟

أغلب الأقوال أنه ولد بمصر في مدينة منف ، وسموه هرمس الهرامسة وسماه الله عز وجل في القرآن الكريم إدريس .

فرقة ثانية قالت إن إدريس ولد ببابل فلما وجد أن من أطاعوه نفر قليل نوى الرحلة عنهم وسار ومن معه حتى أشرفوا على وادي النيل .

وفي رأينا أن هذا الافتراض غير صحيح إذ كيف وجد ببابل؟ وما هو الطريق الذي سلكه أجداده حتى وصل إلى العراق . وهل سلك أبناء شيث نفس الطريق الذي سلكه قابيل - شرقاً . حتى وصل إلى جنوب العراق . ثم وسطها . ثم غرباً إلى فلسطين ثم جنوباً فغروباً إلى مصر . فمادام المقر الأخير إلى مصر . فالأقرب إلى العقل أن يكون طريق باب المندب هو أقصر الطرق إلى مصر وكان الضيق ، كما سبق أن قلنا ، جافاً يسهل اجتيازه ، كما أن الإتجاه غرباً يرجحهم في مغايره الطريق الذي سلكه قابيل .

ماذا كانت دعوته ؟

لقد كانت البشرية لا تزال في أولى خطواتها وكانت تحتاج إلى كثير من علوم الدنيا لتمضي في رحلتها في الأرض . كما كانت تحتاج لتعميق وتأصيل الإدراك بالحياة الآخرة والبعث والحساب . وكانت هذه هي دعوة إدريس عليه السلام .

وأتاه الله العلم . فعلمه للناس فهو أول من خط بالقلم ، وأدخل الكتبة ، وكان خياطاً

فصنع القماش من الكتان وإس المخيط ، وكان الناس قبله يلبسون الجلود . واتخذ المكاييل والموازين . وهو أول من درس علوم النجوم . فقد ألهمه الله عز وجل أسرار الفلك وترتيبه وتركيبه . ونقط اجتماع الكواكب . وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقراءها إلى ذلك .

ولو تمنعنا في قول القائلين بأن المصري القديم اكتشف ذلك بنفسه لوجدنا صعوبة كبيرة في تصديق ذلك . فقد كان ذلك يقتضى أن يخل فرد أو عدة أفراد يراقبون النجوم كل ليلة على مدار العام يسجلون مواقعها بكل دقة . ثم يراقبون تعاقب الفصول ويرصدون دوره القمر ليكتشفوا السنة القمرية - ووجب عليهم أن يراقبوا ارتفاع الشمس في الأفق وميلها ويكتشفوا السنة الشمسية . ثم يلاحظوا كوكبي المشتري والزهرة على مدى عدة قرون ليتمكنوا من رصد انتظام دوراتهما . لهذا بميل إلى الرأي القائل بأن إدريس عليه السلام قد ألهم هذا العلم . فوضع بذلك أساس علم الفلك . وكان سهلاً بعد ذلك على الكهنة أن يستمروا في دراسة حركة النجوم والكواكب

كذلك قالوا إنه أول من علم بالطب . وإن قال البعض إن بعض الحيوانات تعرف أنواعاً من النباتات تفيدها عندما تمرض وذلك بالقرينة قلنا إن القرينة ما هي إلا مقدرة أودعها الله في الحيوان ليحفظ بها نفسه . وتعرف الحيوانات ذلك النوع من الحشائش دون أن يدركها عليه أحد . أما البشر فغير ذلك . فقد يدرك أحدهم بالتجربة - أن نباتاً معيناً له فائدة في ذلك المرض فيعلمه لغيره . فإذا كان الاكتشاف مثيراً وكبيراً . وحدث بطريق المصادفة بدون تجارب كثيرة قلنا إنه إلهام . فإذا كان إدريس قد علم من أسرار الطب وعلاج كثير من الأمراض . فقد كان ذلك إلهاماً ألّاه الله إليه .

كذلك قالوا إنه أول من استعمل المكاييل والموازين .

كذلك قالوا إنه وضع فكرة بناء البيوت في تجمعات على هيئة قرى أو مدن . ويقال إن عدد المدن التي أنشئت في زمانه هي ١٨٨ مدينة . ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أنها مدن كمديننا الحالية إذ الأغلب أن أيّاً من هذه المدن ما كانت لتزيد عن عشرة بيوت أو عشرين أو نحو ذلك . كذلك يقال إنه قسّم البلاد إلى أربعة أقسام وجعل على كل منها حاكماً يسوس الناس .

أي باختصار أن الله ألهمه من أمور الدنيا أسس قيام الحضارة الإنسانية من كتابة وقراءة وثياب ومكاييل وموازين للمعاملات وعلم الطب والهندسة والفلك والسياسة .

هذا من علوم الدنيا - كذلك فقد آتاه الله النبوة . ويقول الألوسي : إن الله أنزل عليه ثلاثين صحيفة . ويقول الأستاذ عيد الوهاب النجار كان فيها الدعوة إلى دين الله ، والتوحيد ، وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا . ويبين أن عمل

المرء محسوب عليه . وأن الموت ليس هو نهاية المطاف . بل إن هناك حياة أخرى توزن فيها الأعمال ويُحاسب عليها . وحضُّ الناس على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل . وأمرهم بصلوات وصيام يضع أيام من كل شهر . وأمرهم بإعطاء بعض أموالهم إلى الفقراء . وغُلظ عليهم فى الطهارة من الجنبات . وحَرَّمَ المُسْكِرُ من كل شئ من المشروبات . وجعل لهم أعياداً كثيرة كان جلُّها مرتبطاً بالكواكب مثل رؤية الهلال ودخول الشمس رؤوس السروج .

ومن أقوال هرمس الذى يرى كثير من العلماء أنه هو إدريس . قوله :

— إذا دعوتكم الله فأخلصوا النية .

— لا تحلقوا كاذبين .

— تجنبوا المكاسب الدنيئة .

حياة النفس الحكمة .

— من تجاوز الكفاف لم يقنه شئ .

— حُب الدنيا وحُب الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبداً .

وقد كان لسلسلة الطبيعة فى وادى النيل من حيث مناخه ، وانبساط أرضه ، وبنظام النيل فى قيصانه ، وجليه الخير والنماء بوفرة للإنسان والحيوان ، أثر فى استقرار الحياة وسلاسة أخلاق سكانه فلم يؤثر عن المصريين معارضتهم لإدريس عليه السلام حين أمرهم بنبذ أصنامهم ولاكذبوه فى أنه مبلَّغ من ربه . بل إن المصريين آمنوا به واتبعوه وتعمقت العقيدة الدينية فيهم وتأسست تأسلاً كبيراً حتى لنلاحظ - أنهم وإن ضلوا طريق الإله الحق فيما بعد إلا أن الدين ظل هو المحرك الأكبر لحركة الحياة لدى المصريين القدماء . كذلك إن قلنا إن المصريين قد آمنوا بإدريس عليه السلام . فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن المصريين كلهم ، فرداً فرداً . قد فعلوا ذلك . فإن المجتمعات الأولى كانت عبارة عن قرى صغيرة وكل مدينة منفصلة عن المدن الأخرى بمستقعات كثيرة . وكل مدينة لها حاكم . وكان هذا الوضع يسمى إمارات المدن City States أى كل مدينة هى إمارة مستقلة . وإذا وقع حدث ما فى مدينة . فلا يستدعى ذلك أن نكلم به كل المدن الأخرى ، صحيح أن المدن المجاورة لابد أن نكلم به . فقد كان اتصال المدن ببعضها البعض أمراً ضرورياً ، ولكن المدن البعيدة كان يصعب الاتصال بها وهكذا فقد ظلت على عبادة أصنامها وطواطمها . إلا أن التعاليم السماوية التى جاء بها إدريس عليه السلام . لابد بمرور الزمن ، قد وصلتها ، وتطعمت بها العقيدة الوثنية التى كانت سائدة فى هذه المدن .

وحتى المدن التى كانت بلغتها دعوة النبى إدريس ، وأمنت به ، واتبعته ، لعل الكثير

منها - بعد رفعه - لم تظل متمسكة بالديانة الإلهية التوحيدية . إذ لم تستطع عقولها هضم فكرة إله واحد لا تراه الأعين . وكان الفكر البشري في هذا الطور البدائي من الحضارة لا يؤمن إلا بما هو محسوس وواقع تحت بصره . لذلك فقد ارتدت بعض الجماعات . وتلمست إلهاً فيما يقع عليه بصرها . واتخذت كل قبيلة لها رباً وكان طور تعدد الآلهة هو ما يسمى Polytheism وتعددت الأرباب والآلهة ، لتصل إلى العشرات بل المئات .

إلى قبيلة واحدة . هم نسل إدريس عليه السلام . فقد ظلوا على إيمانهم بالله الواحد الأحد . ولعلمهم لم يطبقوا العيش وسط الضلال الذي بدأ يحيط بهم فارتحلوا شمالاً حتى وصلوا إلى الدلتا ثم إلى سيناء شرقاً . ثم شمالاً إلى فلسطين ثم شرقاً عبر الشام إلى شمال العراق . وكان إدريس قد ولد له متوشالغ وعمره ٦٥ سنة . وفي أثناء ارتحالهم وكِدَ لمتوشالغ لامك عند عمر ١٨٧ سنة أي كانت قد مرت ٢٥٢ سنة لتجوالهم . وصل لامك في نهايتها إلى شمال العراق . وبعد ١٨٢ سنة من عمره ولد له نوح - الذي أصبح نبياً - مرسلاً إلى أصل العراق .

هل هرمس الهرامسة هو إدريس عليه السلام ؟

ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار أنه جاء في صفحة ٢٤٨ من كتاب تاريخ الحكماء بخصوص هرمس الهرامسة ما يأتي : « زعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ النبي ابن يارد بن مهللنيل بن قيفان بن أنوش بن شيث بن آدم وهو إدريس النبي عليه السلام . وقالوا إنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية وأول من بنى الهيكل ومجد الله فيها . وأول من نظر في علم الطب . وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية . وقالوا إنه أول من أُنذر بالطوفان . ورأى أن أفة سماوية تلتحف الأرض من الماء .

وقيل أيضاً أن هرمس هذا كان رجلاً آدم تام القامة . حسن الوجه كث اللحية مليح الشماثل . عريض المنكبين . ضخم العظام ، قليل اللحم ، متأنياً في كلامه . كثير الصمت ، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض ، كثير الفكرة ، وإذا اقتناظ احتد

وكان مدة مقامه في الأرض اثنتين وثمانين سنة وكانت له مواعظ وآداب مثل :

- « الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر .

- الأعياد في حفظ القروض . والشريعة من تمام الدين . وتمام الدين كمال المروءة .

- السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة .
- لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نِعَمِهِ بمثل الإنعام على خلقه .
- من أراد بلوغ العلم ومخالج العمل . فليترك من يده أداة الجهل وسيء العمل كما ترى الصانع الذي يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة التجاره فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أيدأ .
- خير الدنيا حسرة ، وشرها ندم .
- إذا دموتم الله سبحانه وتعالى فاخلصوا النية . وكذا الصيام والصلوات فافعلوا .
- لا تحلفوا كاذبين ولا تهجموا على الله سبحانه وتعالى باليمين . ولا تُحلفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم .
- تجنبوا المكاسب الدنيئة .
- أطيعوا للوكم ، واخضعوا لأكابريكم ، وأملوا أفواهكم بحمد الله .
- حياة النفس الحكمة .
- لا تحسدوا الناس على مواتة الحظ فإن استمتعهم به قليل .
- من تجاوز الكفاف لم يغه شيء .
- فإن كانت هذه الأقوال حقيقة من أقوال هرمس فالاحتمال الأكبر أنه هو إدريس عليه السلام - لأن هذه الأقوال تعبر عن إيمان حقيقى بالله وتدعو إلى مكارم الأخلاق إلا أن هذه الأقوال ، وما جاء عنه فى كتاب تارويخ الحكماء لم يؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص قاطع .
- كذلك يضعفها ما قالوه عنه من إخباره بالطوفان . وقولهم إنه بنى الأهرام والبرابى فى صعيد مصر الأعلى . وصور فيها جميع الصناعات والآلات. ورسم فيها صفات العلوم حرصاً منه على تخليدها لمن بعده خشية أن يذهب رسمها من العالم .
- وهذا الكلام يجافى الحقيقة . فبعد أن أميط اللثام عن أسرار اللغة الهيروغليفية وجد أن هذه الرسوم كانت لتمجيد الملوك ولم تكن لتسجيل العلوم خشية ضياعها ولو كان ذلك كما ذكروا لكأنت طريقة التحنيط جديرة بالتسجيل أيضاً وهو ما لم يحدث . كما أن الذين بنوا الأهرام والمعابد عرفت أسمائهم . ولم يكن من بينهم من تسمى باسم هرمس الهرامسة كما أن الإخبار عن الطوفان كان من الممكن أن يؤيد قولهم لو كان الطوفان قد عم مصر . أما وأن

الطوفان لم يوجد له أثر في مصر فإنه من غير المعقول أن يتنبأ بالطوفان الذي سيحدث في العراق . فأي فائدة تُرجى من ذلك لأهل مصر!! فإذا كان هرمس هو إدريس عليه السلام فإن بعض الأخبار عنه قد أضيفت ظناً أنها تؤيد نبوته - أو أن هرمس كان رجلاً صالحاً يتبع ملة إدريس . وأضيفت أيضاً هذه الأخبار على سيرته .

مصر بعد إدريس عليه السلام

ليس الهدف سرد لتاريخ مصر في هذه الفترة - بل سيكون الكلام من جزئين : الجزء الأول يتحدث عن الديانة المصرية القديمة والجزء الثاني يختص بآثر دعوة إدريس السماوية على هذه الديانة .

(أ) الديانة المصرية القديمة :

سبق أن قلنا (ص ٥٣) إن تقديس الأسلاف كان هو بداية الانحراف في العقيدة الدينية ولم تكن هذه الظاهرة فاصره على مصر وحدها فقد كانت منتشرة بين جموع بني البشر وكان لها أثر أيضاً في العراق في ظهور الآلهة . ود سواع ويعوق ويغوث ونسر ، كما سيجيء عند الكلام عن نوح عليه السلام .

كذلك كانت محاولة استرضاء الأرواح بعمل تماثيل أو طواطم تسكن إليها - عاملاً آخر في ظهور الوثنية .

وكان الرجل البدائي ينزع إلى أن يعزو لكل شيء روحاً حتى الجمار وهو ما سماه الأستاذ عباس العقاد « استحياء » Animism . ولكن لأن لفظ استحياء قد يحمل معنى من الحياء وليس الحياة - لذلك فالأفضل منه لفظ « إضعاء الحياة » .

كذلك لم يكن الفكر الإنساني في ذلك العصر قد تطور تطوراً كبيراً . وكان من السهل أن يتخيل أشياء تخرج عن المنطق ، ولا يمكن أن نتصورها في عصرنا الحالي . كما كانت مخاوفه كبيرة . كذلك كان الناس يدركون أنهم في حاجة إلى قوة تفوق ما لديهم من قوة ، يلجأون إليها عند الشدائد . وكان عندهم «وعى» بوجود هذه القوة أو ميل غريزي يؤكد لهم وجودها ولكن لم يكونوا يعرفون كنهها . لذلك لجأوا في تجسيد هذه القوة مذاهب شتى .

والمصريون القدماء - مثلهم في ذلك مثل غيرهم من بني البشر في ذلك الوقت - التمسوا

الاتصال بهذه القوة وارتأوا أن أفضل السبل لذلك هو اختيار إطار أو محور محدد مرئى ، يمكن أن تتجمع فيه الصفات التى تعبر عن هذه القوى ، وكما أرائوا الإستعانة بصفة ما لهذه القوة ، جعلوا لها روحاً ، ثم جعلوا لها رمزاً لتعمل فيه ، ليتمكنهم طلب العون من خلاله وسنرى فيما يأتى الآن أن تعدد الآلهة كان بسبب تعدد صفات هذه القوة ، وتعدد إمكانياتها وتعدد المطلوب منها . فلم تعبد المقررة أو القطرة فى مصر القديمة لذاتها ، بل لأنها ترمز إلى تجسيد صفة من صفات القوة العليا .

فإذا نظرنا إلى ديانة مصر القديمة ، وجدنا تطبيقاً لنظرية إضفاء الحياة ووجود روح لكل شئ . وتبعاً لتعدد المطلوبات من صفات القوة العليا ، فإن الأرباب كانت أيضاً متعددة مثل .

١ - أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها ، كالرعد والبرق والمطر والرياح والشمس والقمر .

٢ - أرباب النسل والخصب وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث ، ويسمونها بالأمهات الخالدات ، وقد ترقّت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

٣ - أرباب المعانى ، كرب العشق ورب الحرية ورب السلام ورب العدل ورب الحرب ورب الصيد .

٤ - أرباب الإنسانية والأسرة . وهم الأبطال والقادة المحبوبون والموهوبون أو الأسلاف ، ترقوا بعد وفاتهم إلى أرباب .

٥ - آلهة الخلق - التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان .

٦ - الآلهة العليا - وهى الآلهة التى تحاسب الناس بشرائع الخير ومحاسن الأخلاق وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء .

فى هذه المرحلة تعددت الأرباب بصورة كبيرة ووصلت إلى العشرات بل المئات بل توشك كسل أسيرة كبيرة أن تتخذ لها رياً تعبدده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات .

بعد ذلك بدأت مرحلة أخرى . وهو دور التمييز والترجيح بين الأرباب Henotheism . إذ يأخذ رب من هذه الأرباب المتعددة فى البريز والرجحان على سائرهما - لأنه رب قبيلة كبيرة دانت لها القبائل المسفري . ثم ظهرت آلهة المدن ، والمعبود المحلى هو إله المدينة وحاميها . وكما سبق أن قلنا إن هذه المدن كانت « إمارات مدن » أى كل مدينة إمارة مستقلة تضم حولها عدداً من القرى . ثم بدأت بعض المدن تتعاظم وتضم إليها مدناً أخرى ، بالتالى يسود

إله المدينة الأقوى وتختفى الآلهة المحلية ، أو تتوارى إلى الظل ، أو يتم امتصاصها في أقانيم الآلهة الأعظم أهمية ، وبدأت الآلهة تقل في عددها إلى عدد المقاطعات أو الأقاليم التي تتكون منها مصر وهي ٢٢ في الوجه القبلي و٢٠ في الوجه البحري .

تجسيد الآلهة :

كان المصري القديم في ذلك الزمن المبكر - ينظر إلى الحيوانات البرية - رغم كونها هدفاً للصيد - نظرة ملقها الرهبة بسبب ضراوتها وقوتها ، أما الحيوانات المستأنسة ، فقد عبد بعضها تعظيماً منه لصفة فيها ، واعتقاداً منه أنه بعبادتها ستضفي عليه من صفاتها هذه .

ومن الحيوانات والطيور التي عبدها قدماء المصريين :

- ١ - اللبؤة . وليس الأسد .
- ٢ - الثور . بسبب قوته الإخصابية .
- ٣ - الكيش . أيضاً لقوته الإخصابية .
- ٤ - البقرة . اختيرت رمزاً للأمم لعنايتها وحنوها على وليدها .
- ٥ - العجل حامى أو العمل أبيس . وكان يُنتقى إما أسود اللون تماماً أو أبيض تماماً .
- ٦ - فرس النهر والتمساح .
- ٧ - القطة . وهي المعبودة الحامية من لدغات الثعابين ، إذ أن القطة كانت دائماً قاتلة لهذه الكائنات السامة .
- ٨ - الصقر حورس .
- ٩ - الطائر المقدس إيبس وهو بالعربية أبو منجل من فصيلة أبي قردان . والشوع الذي قدسه المصريون يمتاز بريشه الأبيض ورأسه ورقبته سوداء اللون .
- ١٠ - الكوبرا : وقد أصبحت رمزاً لمملكة الدلتا ، وبعد التوحيد السياسى ظلت توضع على التيجان والرموز الملكية

كذلك قدست شجرة الجميز فقد كان المعتقد أن أرواح الموتى القادمة من المدافن المجاورة على شكل طيور ، تجد في ظل الجميزة الوارف ، حاجتها من الطعام والشراب تقدمها لها الإلهة الخيرة التي تقطن الشجرة . فقدست نزولاً على ذلك الاعتبار .

ومع التقدم الفكرى ، تغيرت النظرة لهذه الحيوانات . فقد انجلى الكثير من الغموض الذي كان يحيط بها ومن ثم الرهبة منها . إذ كان في الماضى يخشاه أو يطلبها بجانبه . ولكن مع اتساع المعرفة تراجع تقدير المزايا التي عبدها من أجلها مثل ، جبروت قوة الوحوش أو غرائز

الأمومة في إناث الحيوانات ، أو القدرات الفائقة لتحليق الطيور الجارحة . واضمحلت في نظر الإنسان هذه القوى الجسدية ، وأضحت القيمة المعنوية الموجودة لدى الإنسان ، مساوية في الأهمية . وهكذا مزجوا الفكرتين . معاً فأصبحنا نرى آلهة ذات جسد بشري ورأس حيواني . ولطرافتها رأينا وضع صور بعضها (شكل ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) .

فالإله حورس يُصوّر بجسد إنسان ورأس صقر .

والإله أنوبيس يحمل رأس ابن أوى أو رأس كلب .

والإله خنوم يحمل رأس كبش على جسد إنسان .

والإلهة حتحور رغم أنها تحمل رأساً بشرية ذات وجه أنثوي إلا أنها زودت بقرنى بقره بينهما قرص الشمس

وكانت آخر مرحلة في تصوير المعبودات هي تصويرها في هيئة بشرية كاملة بجسد إنسانى ورأس إنسانى أيضاً (شكل ١٢) .

أثر الحياة السياسية على العقيدة :

وكان للحياة السياسية أثر كبير على الحياة الدينية . فقد أدت مراحل الاندماج السياسى بين المقاطعات والأقاليم إلى تغيرات في مراكز الآلهة . فقد كانت تسود آلهة المقاطعات الأقوى وتختفى الأخرى أو تقل أهميتها . وقد يعمد كهنة واتباع الآلهة المهددة بالنسيان - من أجل الحفاظ على مراكزهم وبالتالي على ما يقدم لهم ولآلهتهم من قربان وهدايا - إلى تزويجهم من الإله الرئيس أو إدخالهم في ثالث إلهى مقدس معهم . وباشترت أقاليم الوجه البحرى نضجها السياسى وتجمعت في مملكتين

مملكة شرق الدلتا : وقدست معبودها عنجتى . وصورته في صورة بشرية مميزاً بريشتين فوق رأسه . وكانت عاصمتها بلدة عنقة

- **مملكة غرب الدلتا .** وقدست ربها الأكبر حور . ورمزت إليه بهيئة الصقر .

ثم اتحدت المملكتان في مملكة واحدة عاصمتها سايس (صا الحجر حالياً قرب فرع رشيد) واتخذوا المعبودة «نيت» حامية لهم ورمزوا لها بسهمين متقاطعين وقوسين متشاكين باعتبارها من رعاة الحرب .

وأعقب ذلك اجتماع أقاليم الصعيد تحت زعامة مدينة نوبت (قرب قنا) واتخذت « ست »



ب - الإله أنوبيس



أ - الإله حوريس

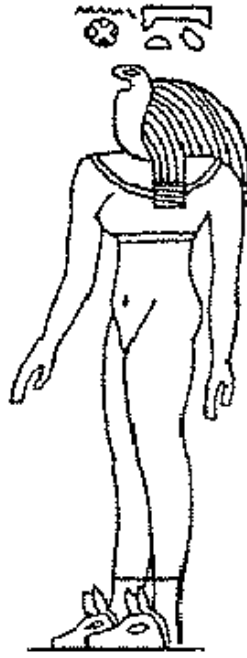


ج - الإله خنوم

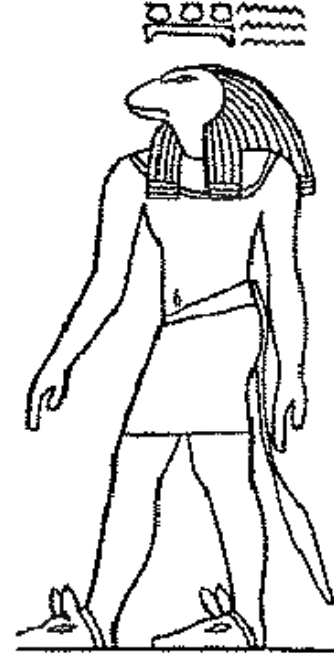
شكل ٨ - آلهة برأس حيوان وجسد إنسان



ج - الإلهة سخمت
(رأس لبؤة)



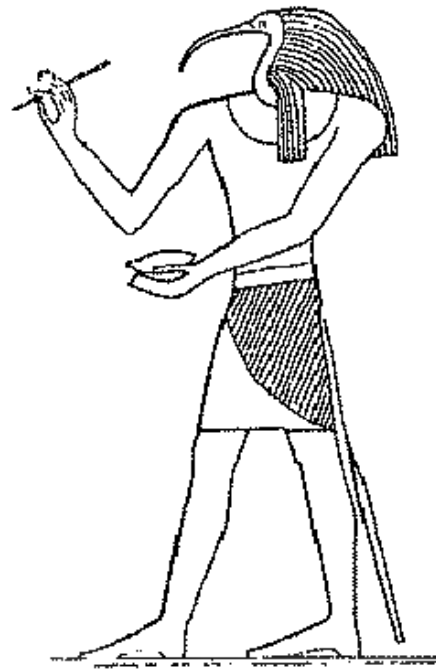
ب - الإلهة نوت
(رأس ثعبان)



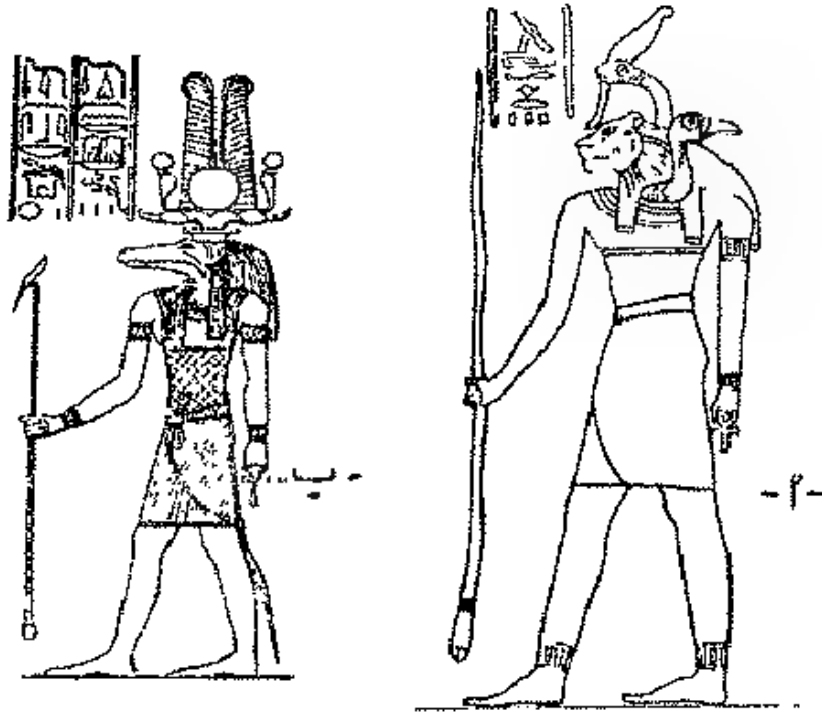
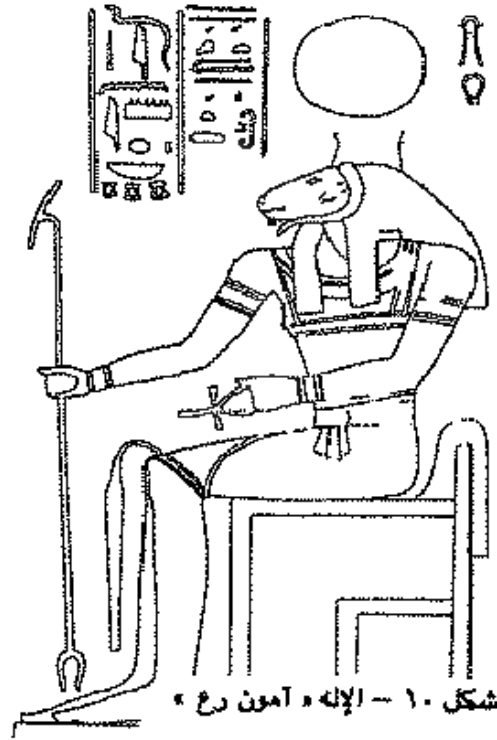
ا - الإله نون
(رأس ابن آوى)



هـ - الإله خرشف
(رأس كبش)



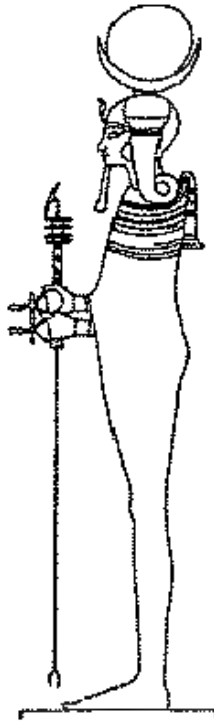
د - الإله تحوت
(رأس الطائر أبو منجل)



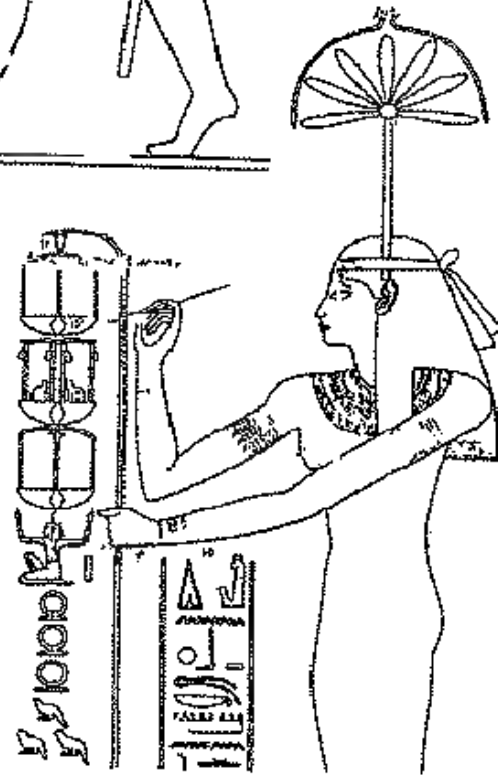
شكل ١١ أ - الإله « آش » بجسم رجل ورأس لبقة ولعنان
ب - الإله « سوتيك » برأس تمساح



أ - الإله « حا » في يده حورية
يحمي بها المتوفى



ج - الإله « خونسو »



ب - « سشات » إلهة الكتابة
تسجل أعمال البشر

شكل ١٢ - آلهة في صورة بشرية كاملة

وبألها واعتبروه من أرباب السماء والأملار

ثم انتقلت عاصمة الوجه البحرى إلى عنجة وتزعمها « أوزير » أو « أوزيريس » . ثم خلعوا عليه من أوصاف الآلهة وقدموه وسميت العاصمة باسمه براوزير (أبو صير حالياً) . وحارب أوزيريس الصعيد وانتصر عليه وضعه إليه . وكان أوزيريس أول من تولّى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة الأرضيين .

ولكن الصعيد ثار وتعصب لعبوده ست . ولكن تمت الوحدة مرة ثانية واتخذوا مدينة أون (عين شمس والمطرية حالياً) كعاصمة وظلوا يمجنون الرب أوزيريس بجانب رع رب الشمس .

ومنذ الأسرة الرابعة أصبح الملك ابناً للإله « رع » وظهرت أسماء الملوك الذين بنوا الأهرام خفرع . منكاورع ، ثم ملوك الأسرة الخامسة . تى رع . سر رع . وجد رع .

هل أوزيريس هو إدريس عليه السلام ؟

رجح البعض أن إدريس هو أوزيريس . ولعل تقارب الإسمين هو الذى أوحى بهذه الفكرة ولكن قيل الخوض فى هذا الجدل نذكر أسطورة أوزيريس نفسها .

وأسطورة أوزيريس واحدة من أشهر الأساطير فى مصر القديمة . وقد سُجِّلت فى بعض متون الأهرام الدينية ، منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٥ ق.م) مما يدل على أنها منقولة عن عصور أسبق منها ، وأن لها صبغة القداسة ، وتدخل فى نسجها ذكريات قومية بعيدة ومسحة دينية وعبرة خلقية .

وكان أوزيريس وإيزيس (أوزير وإيسة) أخوين وزوجين ، يكملهما أخوان آخران هما ست (سوتخ) وزوجته وأخته نفتيس (نيت حت) . (ولعل هذه الرباعية تحكى هابيل وقابيل وأختيهما) . وكان الأربعة يجمعون بين الألوهية والبشر . واعتبرت الأسطورة أوزيريس ملكاً على البشر ، يُعَلِّمُ الناس السلام والعدل ، ويعلمهم الزراعة والكتابة (ولعل هذا مأخوذ عن قصة إدريس عليه السلام لأنه أول من خط بالقلم) ، فأحبه الناس ، وحقد عليه أخوه ست ، وأخذ يدبر له مكيدة يتخلص بها منه . فصنع تابوتاً يسعه تماماً ، وزخرفه بالجواهر والأحجار الكريمة . ودعاه إلى وليمة كبيرة حضرها كثيرون . وأعلن أنه سيتمنع هذا التابوت لمن يكون على قدمه . فقام كل من المدعوين يجرب حظه ولكن على غير جدوى ، ثم قام أوزيريس ودخل الصندوق ، ولم يكد يمد جسده فيه حتى أسرع المتآمرون وأغلقوا عليه ، ثم ألغوا به فى النيل ، فحمله التيار إلى البحر المتوسط . وما زالت الأمواج تتلففه حتى ألقت به عند مدينة سيبيلوس

(جُبيل) بفينيقيا (لبنان) . فلما علمت زوجته إيزيس بما حدث له ، حزنت عليه وبكت بكاءً مرّاً . وجدت في البحث عنه ، حتى وجدت الثابتات وعادت به إلى الدلتا ، ولكن قبل أن تتمكن من فتحه ، فاجأها ست وقطع جسم أخيه إلى اثنتين وأربعين قطعة (عدد مقاطعات مصر) وألقى بقطعة في كل مقاطعة . لم يفت ذلك في عصر إيزيس ، وركبت قارباً لتجمع تلك الأشلاء ، وعاونها في جمعها « تحوت » ، إله العلم والحكمة ، وأختها نفتيس زوجة ست ، و« أنوبيس » إله التحنيط . ولما جمعت الأشلاء كلها قرأت عليها بعض التعاويذ السحرية . فهدبت الحياة فيها من جديد وحملت منه حملاً ربانياً ، وضعت منه طفلها حور (حورس) ورئت طفلها خفية في أحراش الدلتا . وعاونتها كائنات عديدة على كفالته . فأرضعته بقرة ، ورعته معها سبع عقارب . ثم عادت إيزيس وشهرت بسبب الغاصب القاتل . وكان أوزيريس قد عهد بالملك لولده حورس ، وتعاونت إيزيس مع ولدها للأخذ بثأر أبيه ، وطالت المواقع بينهما . وقد تمكن ست في الموقعة الأولى ، من نزع عين حورس . ثم استمر القتال بينهم ، وانتهى بنصر حورس ، واسترجاع عينه التي نزعته منه . وقد قدم حورس هذه العين لوالده أوزيريس قارنث إليه بصره . ومنذ تلك اللحظة أصبحت العين رمزاً على كل قربان جميل وكل هدية حسنة ثمينة تقدم للمتوفى .

وعاد النزاع من جديد بين « ست » و« حورس » على العرش وكان حورس يعتمد على إرثه الشرعي للملك . ومساعدة إيزيس له . وكان ست يعتمد بقوته وجبروته ، ومعاضدة « رع » له . فعرضوا النزاع على محكمه الآلهة والحكماء أصحاب القضاء في عين شمس . وجاؤا ببدن أوزيريس ليكون شاهداً على ما حل به من غدر . فأدان القضاء ست بالإعتداء على أخيه . وتولى حورس الملك . ولم يكن لأوزيريس في الدنيا غاية فانتقل إلى العالم السفلي مملكة الأموات - واختارته ليكون قاضي الموتى . فأصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم . وإصدار الحكم عليهم بالنعيم أو الجحيم .

وهكذا انتهى جوهر الأسطورة بتغلب الحق على الباطل . والإيمان بعدالة الأرباب . وتبرير أسباب تقديس أوزيريس . وجعل قداماء المصريين مقبرة أوزيريس في أبيدوس مزاراً (حالياً - العراة المدفونة - مركز البليينا محافظة جرجا) وكان لزاماً على كل مصري أن يحج إلى هذه المقبرة مرة في حياته على الأقل .

كذلك كان « رع » يتمتع بشعبية كبيرة في « هليوبوليس » .



ج - ست بعد ان أصبح ملكاً



ا - اوزيريس



ب - جثة اوزيريس بين
نباتات البردي



هـ - ايزيس تحمي اوزيريس بجانحيها



د - ايزيس ترفع حودس وهما
مختبئان بين الاحراش

شكل ١٣ - صور من اسطورة اوزيريس وايزيس

وللتوفيق بين العبادتين أصبح كل ملك موحداً مع « حورس » وابن الإله « رع » . كذلك يعتبر كل ملك أنه يُوحد مع « أوزيريس » بعد وفاته ، وكما بُعث أوزيريس ، فإن الملك سيُبْعَث مرة أخرى وبذلك استمر أوزيريس . بل وأضحى كل مصري ميت ، ذكراً أو أنثى ، كأنه يتوحد مع أوزيريس ، وهكذا استمرت مكانة أوزيريس حيث أنه لم يكن ينافـس الآلهة الأخرى ، فهو يعنى فقط بعالم الموتى

هذه هى أسطورة أوزيريس . ولا ترى من تشابه بينها وبين قصة إدريس عليه السلام ، إلا فى ما ينسبونه إلى أوزيريس من أنه هو أول من علم الناس الكتابة والطب وعلم النجوم . مثل ما فعل إدريس عليه السلام . أما ما عدا ذلك فليس هناك من تشابه إطلاقاً فإن الصراع بين الأخوين ، أوزيريس وست - وإن كان يشبه صراع ابنى آدم - هابيل وقابيل - إلا أن سبب الصراع فى الحالتين يختلف اختلافاً كبيراً . فى أحدها صراع على الأخت ، وفى الأخرى صراع على العرش . كذلك فإن إدريس عليه السلام بشر رفع إلى السماء . أما أوزيريس فكان بشراً إلهياً فى حياته وبعد قتله وإحيائه مرة ثانية صار إلهاً . ولكنه لم يرتفع إلى السماء . بل كان يعنى بالعالم السفلى ، عالم الأموات .

لذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون أوزيريس هو نفسه النبى إدريس عليه السلام .

(ب) أثر إدريس على الديانة المصرية القديمة :

سبق أن ذكرنا أن الظروف البيئية والجغرافية لكل من وادى نهر النيل وأرض ما بين النهرين كانت متشابهة من حيث وفرة الماء والغذاء والمسكن للإنسان ومواشيه . مما هباً لمن يصلون إلى هاتين المنطقتين الاستقرار اللازم للنشوء ونمو وترقى الحضارة . وإن كانت هذه الظروف أكثر ملاءمة فى مصر عنها فى العراق . فقد كان فيضان نهر النيل منتظماً . وهادئاً فى أغلب الأوقات . اللهم إلا مرات قليلة يكون فيه الفيضان عالياً فيغرق مساحات كبيرة من الأراضي بعكس أنهر العراق التى كان فيضانها العنيف يكتسح كل شىء أمامه . وإذا جف . فإنه يصبح مثل ترعة صغيرة . ولهذا كانت الحضارة المصرية أسبق فى نشوئها وأسرع خطى فى تطورها .

ولكن حضارة مصر أيضاً ، اختلفت كثيراً جداً فى بعض النقاط ، عن حضارة ما بين النهرين ، بما لا يمكن تفسيره على أسس جغرافية أو بيئية أو أسس مرحلية ، أى تأخر حضارة العراق مثلاً بمرحلة أو مرحلتين عن حضارة مصر . كذلك فإن هذه النقاط من الصعب

أن نتصور أنها قد نبعث ذاتياً في تفكير الكهنة ، إذ يصعب تصور أن يصل إليها العقل البشري من تلقاء ذاته - ولو كان الأمر كذلك لوصل إليها أو إلى ما يشابهها كهنة العراق ولو في وقت متأخر وهو ما لم يحدث .

وهذا يرجع أن هذه النقاط هي بقايا تعاليم سماوية أنزلت على نبيٍّ أوحى إليه من السماء . ولم يكن هذا النبي سوى إدريس عليه السلام .

وبالرغم من تفشي الوثنية وعبادة الأصنام كما أسلفنا - إلا أن دراسة أسس العقيدة ذاتها تكاد تنفي بما افترضناه من بقايا تعاليم سماوية جاءت في زمن ميكر واندثر أغلبها . كما أنه لا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن إدريس وقد بعث في إحدى المدن أن دعوته انتشرت لكل ما حوالها من المدن إذ أن صعوبة الإتصال بين المدن ، لم يفتح لباقي المدن الإلزام بها ، لذلك ظلت على عبادتها لآلهتها المحلية . ولعله بين الصين والآخر كانت واحدة من هذه الأسس السماوية تصل إلى الكهنة فيجدون فيها ما يطعمون به أفكارهم ومن ثم تفسيراتهم الدينية . وسأحاول هنا أن أذكر أهم ما أعتقد أنه مشتق من تعاليم سماوية - هي تعاليم إدريس عليه السلام .

١ - نظرية الخلق :

طبقاً لفلسفة الأشمونيين اللاهوتية لم يكن في البداية سوى اللا وجود أو الفوضى ذاتها ، والتي تخيلها المصريون إما كعنصر عبارة عن المياه الأزلية ، أو قوى تتجسد في الإله « نون » الذي أطلق عليه إسم « الواحد القديم » ، فهو المبدأ الأول أو الأصل الأول ونلمح هنا تصور إله واحد قديم أزلي ومياه أزلية ، فكانهم يقولون هو الأول ولا شيء قبله ، وكان عرشه على الماء !!

ولكن العقل البشري في ذلك الوقت لا يتحمل تصور غيبى أكثر من هذا - فيعود إلى تجسيد الأزل فيقول : إن قوام هذا الأزل أربعة عناصر . ماء كثيف ، وظلام محيط ، وقوة دافعة ، وعنصر لطيف لا يرى . وتخيّلوا أن كلاً من هذه العناصر الأربعة يهيمن عليها ويُجسدها بؤمان لكل عنصر فيها ، الأصل مذكر ، والفرع مؤنث .

فعنصر الماء الكثيف أو العمق العظيم يجسده « نون » و« نونت »

والظلام المحيط بجسده « كوك » و« كوكت » .

والقوة الدافعة أو اللانهاية يجسدها « حوح » و« حوحت » .

أما العنصر الرابع فهو روح لطيف لا يرى ويجسدها «أمون» و«أمونت» . وعندما استقر
أمون في ملية أصبح رباً للهواء وحفيظاً على مقومات الحياة ونسماتها .

أما لاهوت هليوبوليس فيقول بأن الإله «أتوم» قد بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى
انبثق بسوره من الماء الأزلى . ثم نفخ الإله فى يده ويسزق من فمه الإله «شو» وقريقتيه
«نفتوت» والذين نسلا ، خلال ولادة طبيعة بقية المعبودات . ويعزى إلى «أتوم» الذى يعنى
اسمه فى اللغة المصرية القديمة «الكامل» أو «المطلق» ثلاث صفات رئيسية .

١ - فهو الموجود بذاته - الذى أتى إلى الوجود بنفسه .

٢ - وهو الأقدم أو الأزلى .

٣ - كما أنه «الأوحد» - المتفرد بذاته و«سيد الجميع» .

وكان «شو» يُجسّد الهواء ، وأعطى الحياة أو القوة الخالقة والريح والأنسام التى
تتنفسها الأحياء . وهو «لانهائى» و«غير مرئى» .

هذه النظريات عن الخلق وما فيها من لمحات صومعية كأنها ومضات نور ، تشير إلى بقايا
تعاليم سماوية لم يستطع أن يستوعبها فكر بدائى ، فجسدها بمحسوس ، حتى يستطيع عقله
أن يقبلها .

٢ - القَدَر :

قدر الإنسان ومصيره يقع بين يدي الإله «شو» أو «شوى» أو «شاي» فهو الذى
يحدد مصيره عند مولده ، إما رديئاً أو طيباً . ويبدو فى مفهوم المصرى القديم أن مصائر
البشر أو أقدارهم ليست حتماً يستحيل تجنبها . فالإنسان قادر على تغيير قدره من خلال
أفعاله إذا أراد الإله له ذلك وطالما أن الغد دائماً يقع بين أيدي الإله ، فالطفل يولد مصحوباً
بالعناية الإلهية . والوالدان يوطدان صلتيهما بالآلهة ، فتأمر بأن يولد الطفل لهما . ومعتقد
فإن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال مشيئة الآلهة وموافقتها . فالبشر يقترحون الأفعال
أما الآلهة فيقرضونها . أو كما عبّر عن ذلك أحد حكماء قدماء المصريين بقوله . الإنسان
ينطق بالكلمة أمّا الأمر فللرب .

الا يحاكى ذلك قولنا «العبد فى تفكير . والرب فى تدبير» .

٣ - خلق الإنسان من طين :

فالإله خنوم هو الإله الذى يخلق البشر حيث يقوم بعمل الفخارى فيجلس إلى دولابه ويشكل الطفل وقريبه (شكل ١٤) ومن ألقابه «الفخارى الذى يشكل الإنسان» .

وجاء فى القرآن الكريم « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » . (١٤ الرحمن)
ولعل مثل هذه الآية وردت على لسان إدريس عليه السلام . ولكن العقل المصرى القديم جسدها فى صورة الإله خنوم يجلس إلى دولاب يُشكِّلُ البشر من الطين والفخار كما فى الصورة ، ويشكل قريته الذى يشبهه تماماً ، ثم تقوم الإلهة « حكات » بإعطائه الحياة أى تهب له الروح (شكل ١٤ ب) .

٤ - الروح والقرين والوفاة والبعث :

قلنا إن الإله « خنوم » يجلس إلى دولابه ، ويعمل الإنسان من الفخار . ويستقبل كل إنسان ، عند مولده ، بأمر من الإله « رع » الـ « كا » - والكا هى القرين وتشبه الإنسان تماماً إلا أنها لا تُرى (شكل ١٥، ١٦) وقد ورد أن إله الشمس « أتوم » عندما خلق أول إلهين - وذلك بأن تعلهما - وضع ذراعيه من ورائهما ، ففاضت عليهما الكا التى كانت له ، ودبت فيهما الحياة . ولابد أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا . ولذلك كانت الذراعان الممتدتان فى رمز « الكا » وإلى جانب الكا ، توجد الـ « يا » . وتخيّلوها عادة كأنها طائر له وجه إنسان (شكل ١٧) وهى الروح .

فإذا مات الإنسان هجرته الكا ، إلا أنها تظل تعنى بالجسد الذى سكنته أمداً طويلاً . وتكون بجانب الميت ، من وقت لآخر على الأهل ، فالموت إذن ليس نهاية ، بل هو انتقال إلى حالة أخرى . والموتى يقيمون فى مقابرهم أو فى عالم خاص بهم ، وتكون الكا بجوارهم ، لذلك فإن القبر يسمى « دار الكا » وجاء فى كتبهم ، إنك تعيش سميذاً أبداً (فى القبر) وبجانبك الكا التى لك ، إنها لن تهجرك أبداً .

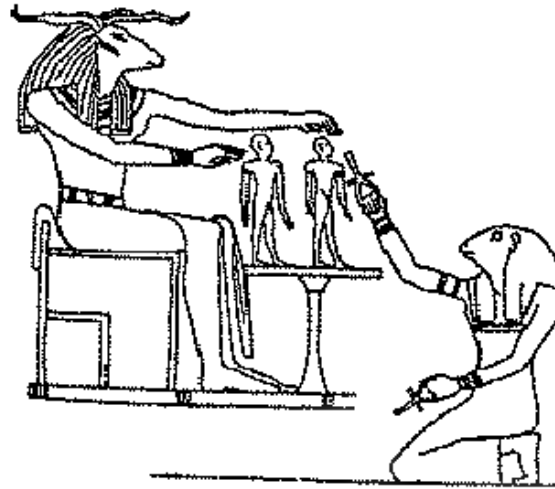
لذلك كانت تُقدَّم الأطعمة وفقاً لصيغة القرين الشائعة إلى « كا » الميت ، وكان ينظر إلى الكا وكأنها « الملاك الحارس » الذى يهنم بالإنسان ويعنى بأمره لذلك كان يوضع بجوار الميت أوانى تحتوى على طعام وشراب .

أما الروح فكانت تترك الجسد وتنقلت منه عند الموت . وتخيّلوها عادة كأنها طائر (شكل ١٨) وربما تمثلوا روح الميت الذى يبيكونه بين الطيور التى تستقر على الأشجار (شكل ٩٩) . أو تتمثل الروح فى هيئة زهرة وعلى العموم فهى قد تتشكل فى أى صورة . ولا تستقر فى



أ

أ - الإله « خنوم » يشكل على دولابه القخاري إنسان وقرينه
والإلهة « حاتحور » تقدم رمز الحياة



ب

ب - الإله « خنوم » يشكل طفلاً وقرينه
بينما تقوم الإلهة « حكات » بإعطائه الحياة

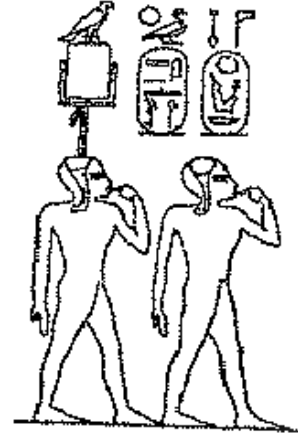
شكل ١٤ - تصور المصريون القدماء لخلق الإنسان وقرينه من طين وإعطائه الحياة



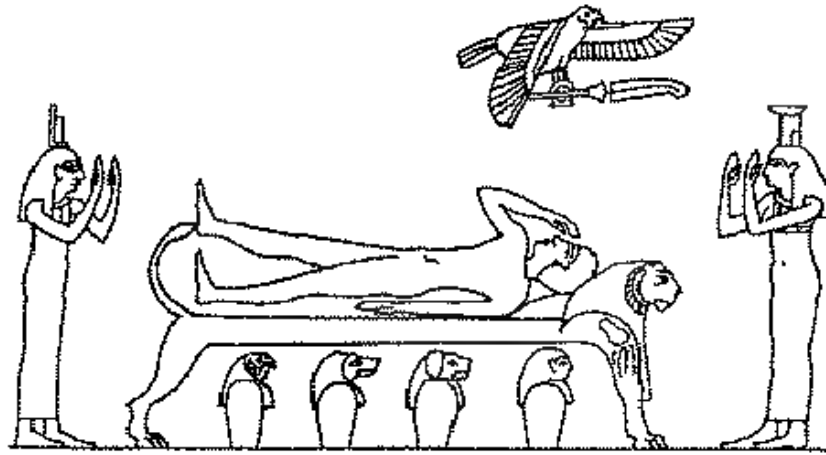
شكل ١٥ - خلق الملك وتربيته عند ولادته بواسطة الإله « حكاو »
 وخلفه الإله « حابي » يمسك رموز الحياة بعد ذلك يقدمهما الإله
 « حورس » إلى الإله « آمون رع »



شكل ١٧ - الروح (على هيئة طائر)



شكل ١٦ - الملك طفلاً ومن وراءه الكا



شكل ١٨ - عند الوفاة تتطلق الروح على هيئة طائر وتترك الجسد
يلتصق الإلهة « نفثيس » عند رأس المتوفى و « إيزيس » عند قدمي



شكل ١٩ - أرواح الموتى طيور تلوى إلى شجرة
الجميل ويقوم الآلهة بإطعامها



شكل ٢٠ - هبوط الروح
على السلم إلى القبر

مكان ، فهي السوم هنا وغداً هناك ، وبين الحين والآخر تهبط إلى القبر لتزور الجسد (شكل ٢٠) .

والملك المتوفى يطير في شكل طائر إلى السماء على سلم فإذا كان قد فعل صالحاً في الدنيا فإنه يطير في السماء إلى جانب إخوته الملائكة . وقد يأخذه إله الشمس « رع » معه في سفينته ويجوب السماء معه .

أما الصالحون من عامة الشعب ، فينتهون إلى « مقر الأبرار » وتصوروه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه ، والطعام فيها وفير ، بل إن فيها حقل يسمى « حقل الأطعمة » ، وأزكى منه حقل يارد « مقر الآلهة والمجدين » على أنه لم يكن من اليسير أن يوفق كل إنسان في بلوغ حقل الأبرار لصعوبة اجتياز المياه التي تحيط به ، لهذا كان من الناس من يأمل في عطف الطيور المقدسة ، راجياً أن تنقله إلى هذه الحقول ، ومنهم من كان يرجو أن تأتي له الآلهة بقارب يعبر به ، وإن كان صالحاً جداً يأخذه معه إله الشمس نفسه ليعبر به في سفينته إلا يشبه ذلك - الصراع - الذي يمر عليه الناس يوم القيامة ؟

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » .

(١٣ - الإسراء)

وسبق أن قلنا إن المؤمن بديانة أوزيريس ، يعتقد أنه كما أن أوزيريس لم يموت حقاً ، فإنه كذلك لن يموت ، وأنه سيبعث في حياة جديدة سعيدة ، وسيصحو ثانية على نحو ما بُعث أوزيريس للحياة . لا على شكل خيالي ، وإنما في مبعث جسد ، لأن الآلهة جمعت معاً عظام أوزيريس . وأن أم أوزيريس - الإلهة « توت » - كما جاء في كتاباتهم ، إنها تعطيك رأسك ، وتجلس لك عظامك ، وتجمع لك أعضاءك وتضع قلبك في جسدك ، وروحك تأتي إليك ، وستصاحبك من جديد الكا التي لك ، وتأتي لك حياتك ، ويأتي الإله « جب » ليفتح فمك لتستطيع الكلام من جديد ، و« تحوت » و« حورس » يوقفانك ، ثم يدعو « حورس » « تحوت » بأن يسوق إليك عدوك ثم يضعك فوق ظهره . خذ مكانك فوقه فتنتصر على مضطهدينك .

ألا يتفق ذلك مع قوله تعالى :

« رُبْنَا أَرْبَا الَّذِينَ أَضَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » .

(٢٩ - فصلت) .

وعن القرين جاء في القرآن الكريم .

« قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » .

(٥١ - الصافات)

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ قَرِينٌ » .

(٣٦ - الزخرف)

« قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين . فيئس القوين » . (٢٨- الزخرف)

« ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » . (٢٨- النساء)

« قال قرينه هذا ما لدى حديد » . (٢٣- ق)

« قال قرينه ربنا ما أطقيته ، ولكن كان فى ضلال بعيد » . (٢٧- ق)

وفى الحديث الشريف : ما من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن .. قالوا ولا أنت يا رسول الله . قال ولا أنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير

أما الروح فقد قال الله تعالى :

« ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

(٨٥- الإسراء)

أما عن الحال فى القبر فقد جاء فيها قوله تعالى :

« ومن وراءهم يزخ إلى يوم يبعثون » . (١٠٠- المؤمنون)

وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، ليسوا مع أهل الدنيا ياكلون ويشربون ، ولا هم مع أهل الآخرة - يجاوزون بأصنامهم . وقال أبو حنيفة : البرزخ المقابر لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة ، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون .

وجاء فى الحديث الشريف . القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

٥ - يوم الحساب :

آمن المصريون القدماء أنه ، بعد القبر يوجد بعث . وحينئذ يحاسب المرء على أفعاله أمام محكمة الموتى .

وجاء مكتوباً عن أحد الحكماء : لا تظن أن هناك أمد طويل إلى أن تحين المحاكمة ، وأنه حتى ذلك الوقت سيتسنى كل شيء . فإنهم - القضاة - ينظرون إلى أن الحياة كأنها ساعة ألا يشبه هذا قوله تعالى :

« ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » . (٢٢- الاحقاف)

وقوله تعالى :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » . (٥٥- الزمزم)

ويمضي الحكيم قائلاً : وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكون أعمال إلى جانبه .
ألا يشبه ذلك قوله تعالى :

« ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً » . (٤١ - الكهف)

ويمضي تصور المصريين ليوم الحساب هكذا . يجلس قضاة أوزيريس وعددهم ٤٢ قاضياً - بعدد أقاليم مصر في ذلك الوقت - ويتنصب الميزان العظيم . يوزن فيه قلب الميت مقابل علامة الحق . ويتحقق حورس و« أنوبيس » إن كان أخف منها أو أثقل (شكل ٢١ - ٢٢) .

وهذا الأمر - الميزان - لم يأت في ديانة أخرى غير ديانة قدماء المصريين فلماذا أنهم أخذوه من تعاليم نبي مرسل - وهو إدريس عليه السلام - وما حدث به يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » (٤٧ - الأنبياء)

« والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » (٨ - ٩ الأعراف)

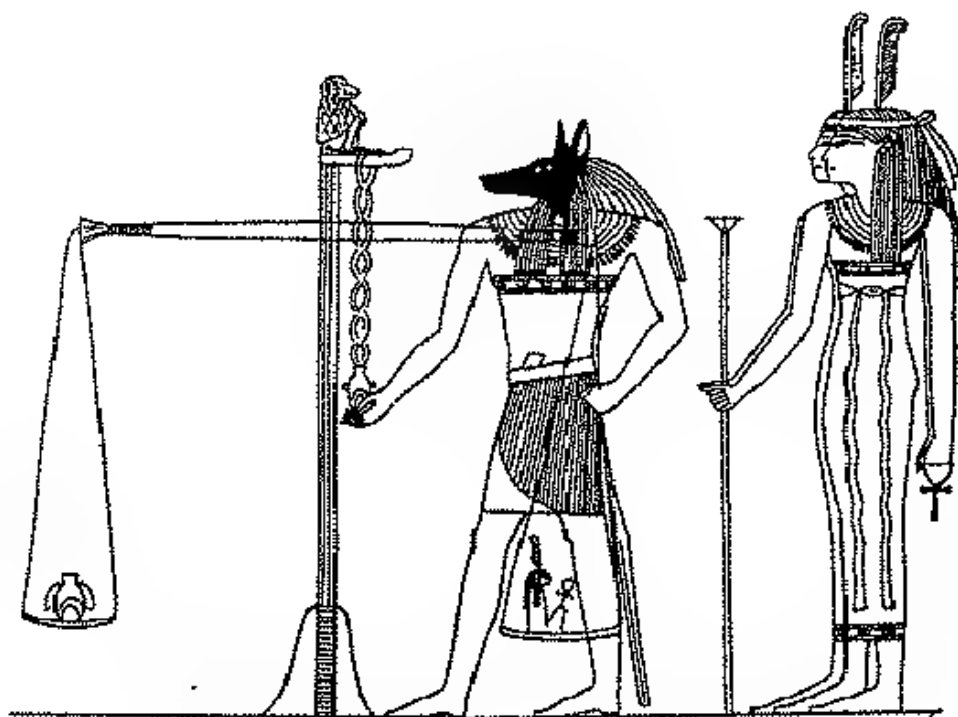
« فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . واما من خفت موازينه فاما هاهوية »

(٦ - ٨ - القارعة)

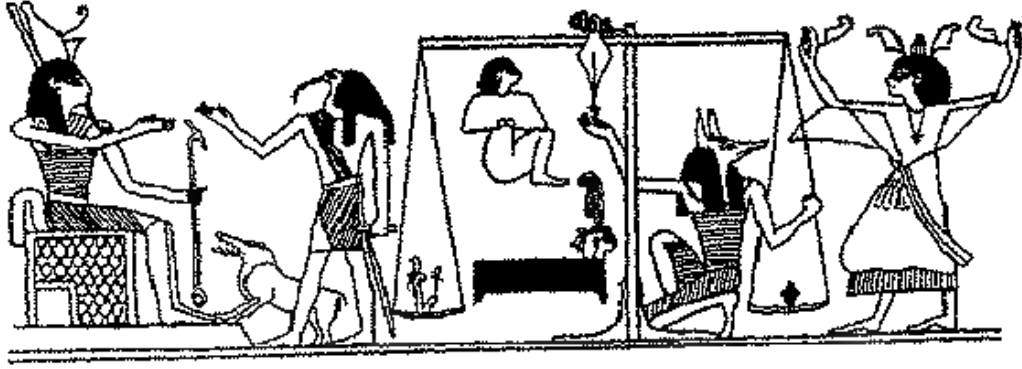
كما أن الحديث الشريف يقول . لا نزولاً قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه . حديث صحيح أخرجه السيوطي عن أبي برز

وتقترب من هذا المعنى - الفلسفة الدينية عند قدماء المصريين إذ تطلب من الميت أن يقدم - ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا الحالي - كشف حساب عن أعماله أمام المحكمة (شكل ٢٣) ، وكمثال لما يقوله الميت . وكأنهم يلقنونه ما يقول حتى تبرا ساحنه .

لك الحمد أيها الإله العظيم ، يارب الحقيقتين هأنذا أجي إليك أجلب الحقيقة وأطرد الإثم .
إنني لم أقترف إثماً ضد البشر . ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة . ولم أسع بأحد عن رئيسه .
ولم أجوع أحداً . ولم أذع أحداً يبكي . ولم أقتل ولم أذع إلى القتل . ولم أسبب لأحد المأ . ولم أقتل في المعابد الطعام . ولم أسلب طعام المجددين . ولم أفسق في المكان الطاهر لإله مدينتي . ولم أطفئ مكيال الحب . ولم أنقص مقياس الذراع . ولم أسرق الماشية من مرعاها . ولم أمنع ماء الفيضان في وقته ولم أسد على الماء الجارى .



شكل ٢١ - الإله « أنوبيس » يزن قلب المتوفى ويخلفه ثقب « ماعتى »



شكل ٢٢ - وزن قلب المتوفي أمام الإله « أوزيريس »



شكل ٢٣ - محاكمة المتوفي أمام القضاة (في أعلا الصورة) بعد وزن أعماله

ثم يلي هذا اعتراف أمام كل إله على حده : يا صاحب الحظوة العديدة في هليوبوليس .
إني لم أقترف ذنباً . يا حاضن الذهب في خراجاو . إني لم أنهب . يا إله هرموبوليس . إني لم
أغش . ويظل ينكر كل إله بمنطقته ويرى نفسه من إثم مثل . إني لم أقتل البشر . إني
لم أطفف مكبال الحب . إني لم استرق السمع . إني لم أزن . وهكذا يرى نفسه مرنين .
والميت المبرور - إن له مقره أمام الإله العظيم .

وهذا يشبه قوله تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . (هـ - القمر)
وهو يخرج إلى حقل يارو (مقابل الجنة) وهو يُعطى الفطائر والخبر . وحقل طول الشعير
والقمح فيه سبعة أذرع .

إن الاتقياء (الذي يعبدون أوزيريس) لا يذهبون أمواتاً . بل يذهبون أحياء . وهم لا يحيون بعد
الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب . وإنما يبعثون لحياة حقيقية جديدة يحزنون فيها
أجسادهم وأرواحهم ، فلهم قلوبهم ، ولههم أزواجهم ، ولههم أقراهم ، ولههم أرجلهم ، ولههم
أذرعهم ، ولههم سائر أعضائهم

كل هذه العقائد وردت في كتاب الموتى . وعلى ذلك فإنها ترجع إلى زمن قديم جداً . ولما
كانت الأهرام قد بنيت في عصر الأسرة الثالثة فإن نشأة هذه العقائد ، ترجع إلى عصر ما قبل
الأسرات وهو ما يدل على أنها مستقاة مما حدث به إدريس عليه السلام . والمؤكد أنه كان في
زمن ما في عصر ما قبل الأسرات أيضاً .

ويمضي الزمن . وتمر القرون . ويتكاثر الخلق في مكان آخر من الأرض . هذه المرة في
أرض ما بين النهرين (العراق حالياً) وتبرز الحاجة إلى نبي يهديهم سواء السبيل . وكان هذا
النبي هو نوح عليه السلام .

نوح عليه السلام

العراق قبل نوح :

لقد افترضنا فيما سبق أن قابيل بعد أن قتل أخاه ترك إخوته وأباه وهاجر شرقاً (في الطريق رقم ١ شكل ٢٤) وكما تقول التوراة : سكن أرض نود - شرقى عدن .

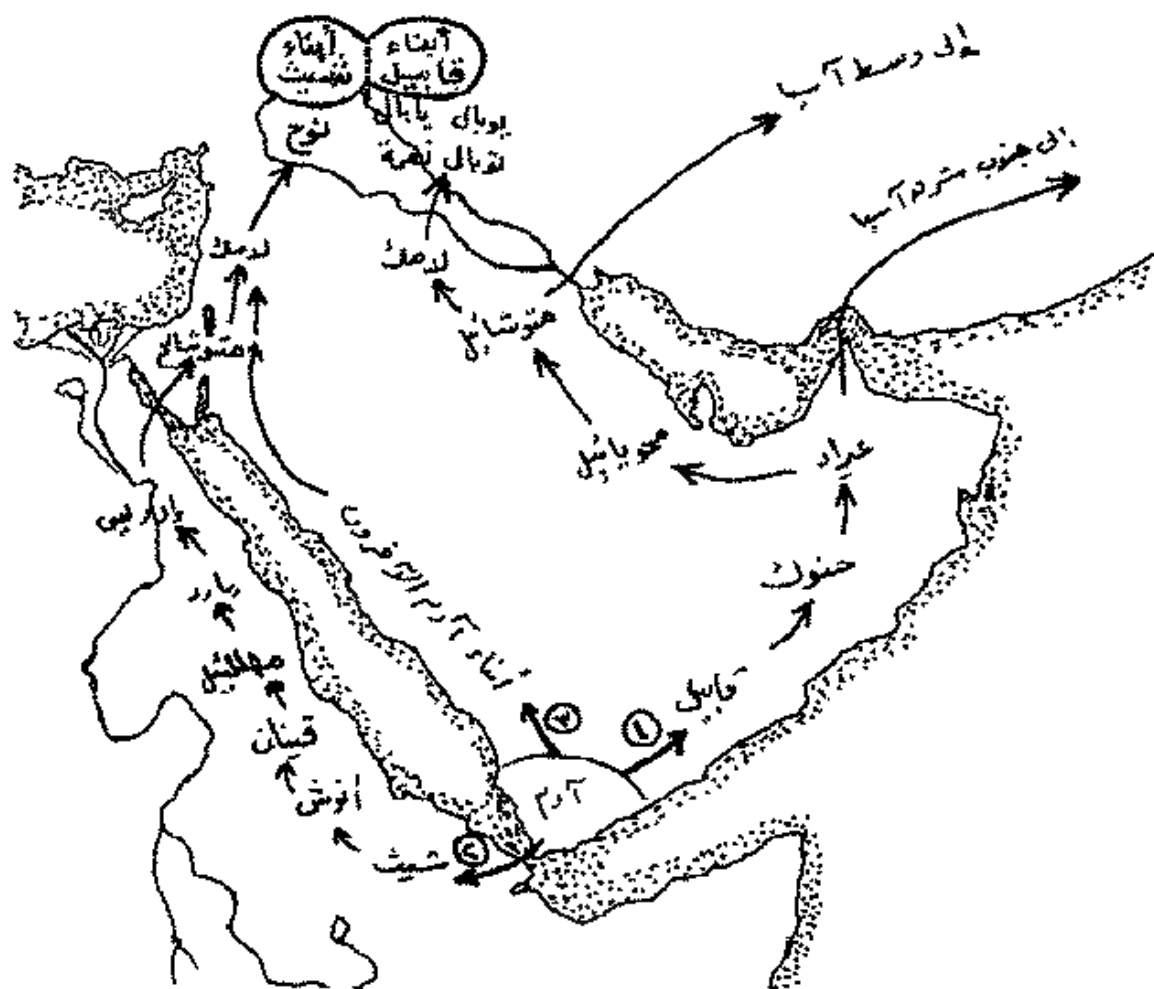
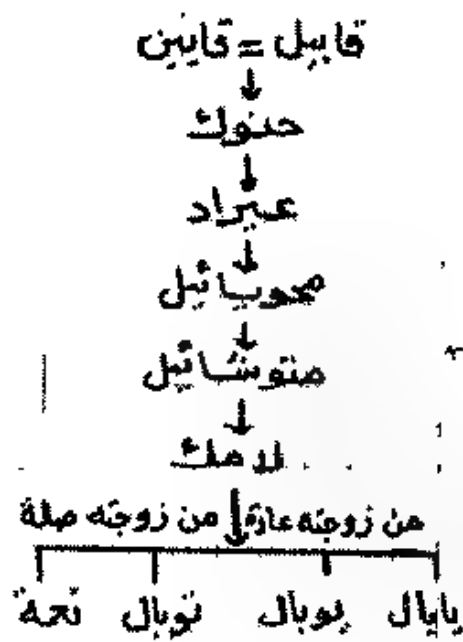
وتكاثر أبناء قابيل وزاد عددهم فلم تعد أرض نود تكفيهم - فارتحلوا شرقاً أيضاً . بحذاء ساحل البحر ، ثم تبعوا الشريط الساحلى شمالاً ، حتى وصلوا إلى مكان مضيق هرمز . وفى ذلك الوقت من أواخر العصر الجليدى الرابع ، كان المضيق جافاً ، فعبّره جماعات منهم اتجهوا إلى جنوب شرق آسيا . وواصل آخرون السير شمالاً حتى وصلوا أرض العراق الخصبة ، أرض ما بين النهرين .

وجاء فى كتاب العهد القديم تكوين ٤ : وعرف قايين (قابيل) امرأته ، فحبلت وولدت حنوك . وكان يبني مدينة فدعا إسم المدينة كاسم ابنه حنوك . وولد لحنوك عيراد . وعيراد ولد محويائيل . ومحويائيل ولد متوشائيل . ومتوشائيل ولد لامك . واتخذ لامك لنفسه امرأتين ، اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة فولدت عادة يابال الذى كان أباً لساكنى الخيام ورعاة المواشى . واسم أخيه يوبال الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار . وصلة أيضاً ولدت توبال قايين . الضارب على كل آلة من نحاس وحديد . وأخت تسمى نعمة .

وتكاثر أبناء قابيل . ولورجعنا إلى المسألة الحسائية ص ٢٢ لوجدنا أن عدد أبناء قابيل وأحفاده ، فى الجيل السادس قد يصل إلى حوالى المليون نسمة . وحين وصلت جماعات منهم إلى أرض ما بين النهرين وحدث الماء الوفير والأرض الصالحة للزراعة - فتوافر الغذاء للإنسان والحيوان . ومكنت هذه العوامل على الاستقرار . وهذا هو أول طريق الحضارة . لذلك فقد شهدت أرض ما بين النهرين ثاقى حضارة فى العالم ، فقد سبقتها مصر إذ وصلها أبناء شيث واستقروا فى وادى النيل وكونوا أول الحضارات ، ولما كان جنوب العراق تغطيه المستنقعات والأشراش . فقد واصل الزحف السكانى مسيرته إلى شمال العراق واستقر الناس فى الوديان وحول المجارى المائية . وبدأت فى الألف الخامس قبل الميلاد - أولى مظاهر الاستقرار وكشفت البحوث الأثرية عن حضارات الحقبة الحجرية الحديثة فى ثلاث مناطق : (شكل ٢٥) .

فى جarmo : شرق منطقة كركوك الحالية .

فى حسونة : جنوب الموصل الحالية .



شکل ٢٤ - طرق هجرات أبناء آدم
 واللقاء أبناء شيث وأبناء قاييل في شمال العراق

فى حلف : فى أعالى نهر الخابور .

وقد اعتبرت جاورمو أقدم قرية زراعية فى العراق ، ووجد بها تماثيل طينية بدائية متواضعة لحيوانات ورجال وما يشبه نساء جالسات .

ووجد فى مخلفات حسونة آثار أكثر تقدماً - إذ وجد فخار خشن بدائى ، وفخار ذو زخارف مرسومة ، وفخار ذو رسوم محفورة حقراً بسيطاً .

أما حضارة خُلف فكانت أرقى ، فقد وجد بها فخار يدوى مصقول ، مزخرف برسوم حيوانية ونباتية وتخطيطية .

وتتأبّع التطور فى صناعة الأوانى فى إتجاه الشمال يؤيد ما ذُكر من أن ارتحال القبائل كان من الجنوب إلى الشمال .

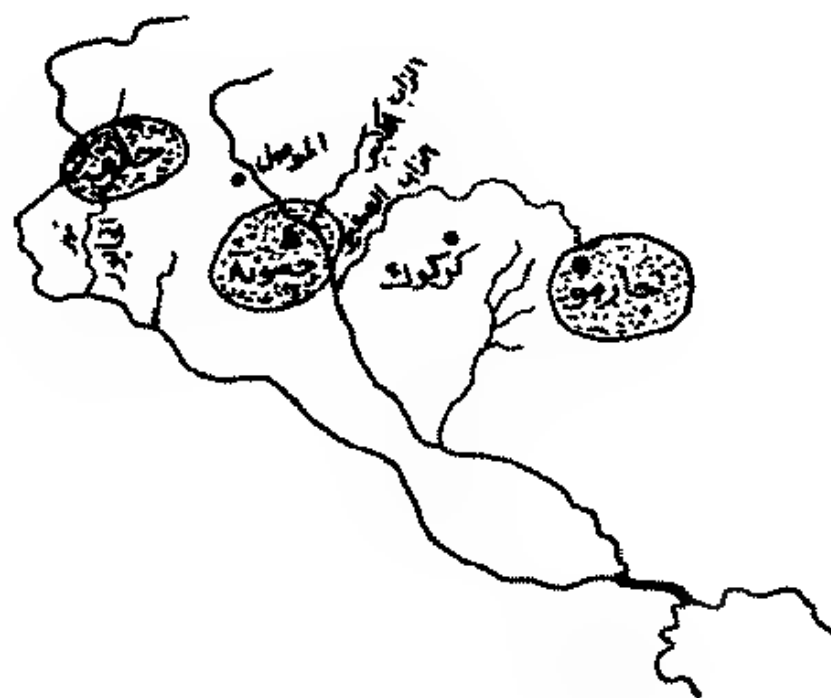
وتكاثر أبناء قاييل ، وكانوا - كما تقول الكتب - مثل جددهم قاييل . غلاظ القلوب قساة .

وفى المراحل الأولى من هجرتهم - شرقى عدن - لعلمهم اشتاقوا لرؤية جددهم الأكبر آدم . ولم يكونوا يستطيعوا العودة لرؤيته فى حياته ، أو لزيارة قبره بعد مماته . ولعل الشيطان أغواهم . ووسوس لبعضهم أن يصنع تمثالاً على هيئة رجل ، ليرمز لأبيهم آدم - وكانوا يطوفون حوله ويدكرون الله . وعلى مر الأيام نسى الأحفاد وأبناء الأحفاد - ذكر الله . وعبدوا الصنم ذاته . وكانت هذه بداية الشرك بالله .

ولما ملأت الذرية شمال العراق . يقال أنه ظهر فيهم خمسة رجال صالحين ، هم ود وسواع ويغوث ويصوق ونسر . وأحبهم الناس لعدلهم وصلاتهم . وتصادف أن ماتوا جميعاً فى شهر واحد . فجزع القوم عليهم فقال رجل من نسل قاييل : هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم حتى تذكروهم ؟ فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم . ومرت السنون وقدموها وعبدوها .

كذلك سبق أن قلنا إن شيث عبر مضيق باب المتدب وسار بنوه شمالاً وعبروا أرض وادى النيل وظهرت فيهم عبادة التماثيل والأصنام فأرسل الله إليهم إدريس عليه السلام - فأمنوا به - وترسخت فكرة البعث وال الحساب فى الآخرة فى الوجدان المصرى منذ القدم - إلا أن القوم - بعد أن رفع إدريس عليه السلام - لم يلبثوا إلا قليلاً حتى عاودهم الضلال . وخاقت أرض مصر بسكانها ، فارتحلت قبائل منهم فى إتجاه الشمال الشرقى ، ووصلت أرض فلسطين ، ثم الشام ، ثم شمال العراق - حيث إلتقوا بأبناء عمومتهم أبناء قاييل .

وقال ابن عباس : كان آدم قد أوصى آل يناكح بنو شيث بنى قاييل وكان بنو قاييل يعيشون فى السهول ، بينما بنو شيث يعيشون فى الجبال ، وظلوا يتجنبون الإختلاط بهم فترة



شكل ٢٥ - حضارات العصر الحجري الحديث في العراق

من الزمن . ويستطرد ابن عباس قائلاً . وقال مائة من بنى شيث لو نظرنا ما فعل بنو عمنا - يعنون بنى قابيل . فهبطت مائة من الجبال إلى السهل . ورأوا النساء من بنى قابيل ، وكُنَّ صباح الوجوه ، واحتبس النساء الرجال فلم يعوبوا . فنزل مائة أخرى احتبستهن النساء أيضاً . ثم هبط بنو شيث كلهم واختلطوا ببنى قابيل (شكل ٢٤) وظهرت المعاصي فيهم أيضاً .

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد تكون مجرد تعبير عن إرجاع الفساد والصلال إلى أبناء قابيل

وتكاثر الناس ، وظهرت حضارات ذكرها جورجى زيدان فى كتابه «العرب قبل الإسلام» ، أخذاً عن الترجمة اليونانية لكتاب الكاهن بروسوس . وقال إن عدة دول وجدت فى بلاد ما بين النهرين قبل الطوفان . وأن عدد ملوكها ١٠ وأن سنى حكمهم بلغت ٤٢٢٠٠٠ سنة . ومن المؤكد أن هناك خطأ فى عدد الأصفار والأقرب للعقل أن تكون سنى حكمهم ٤٢٢٠ سنة فيكون حكم كل ملك هو ٤٢٢ سنة . وهى فترة معقولة بالنسبة للأعمار فى ذلك الوقت .

وخلال هذه الحقبة الطويلة نسيت الأجيال أى ذكر عن الله . ونشئوا تجسيد القوة الخالقة فى تماثيل صنعوها وعبدوها . وسبق أن ذكرنا أنهم عبنوا الأسلاف . ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً . وبنو المعابد لهذه الأصنام وقدموا القرابين وتسلمت الكهنة والملوك على الرمية ، وساد الظلم ونشت الفاحشة ، وخاصة بين أبناء قابيل ، والذي تقول التوراة عن أن يوبال - وهو من ذرية قابيل - كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار . ونحن تعلم ما لتأثير الموسيقى على النفوس . ولعله وضع من الألحان والتراتيم ما يضيق على الجوارهية مما يزيد من تسلط الكهنة ونفوذهم . ولم يقتصر الضلال على أبناء قابيل وحدهم فقد ضل أيضاً كثير من نسل شيث . إلا بطناً واحداً من نسل إدريس عليه السلام .

وكان إدريس عليه السلام فى مصر وقد وُِدَّ له عند عمر ٦٥ سنة ابنه مدوشالح ثم وُِدَّ لمدوشالح عند عمر ١٨٧ سنة ولد سماه لامك . وعاش لامك ٧٧٧ سنة . ولابد أن متوشالح ولامك كانا ضمن من هاجروا من مصر إلى فلسطين ثم عبروا سوريا واستقروا فى شمال العراق وكان لامك ابن ١٨٢ سنة لما وُِدَّ له ولد سماه نوحاً (شكل ٢٦) .

تقول التوراة إصحاح ٥ : وعاش لامك مائة واثنتين وثمانين سنة . ودها اسمه نوحاً قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التى لعنتها الرب .

ونفهم من هذا أن الاسم مشتق من ناح يتوح بمعنى العزاء والراحة والإستراح والتنعيم . ومنها جاء استخدام المسيحيين لفظ «المتنجح» بمعنى المرحوم . وصفاً ودعاءً للميت بالرحمة والراحة والتنعيم فى الآخرة .

إلا أن بعض المفسرين يروونه مشتقاً من النواح .

كما أن الأستاذ رؤوف أبو سعدة يرى أنه مشتق من ناح يقوح العبرى ، بمعنى البقيا والتلث لطول مكثه في قومه (ألف سنة إلا خمسين عاماً) .

وقد يكون هذا صحيحاً لو كان الذي اختار له الإسم هو الله سبحانه وتعالى . كما كان الحال مع إسماعيل وإسحاق، إذ أن الملائكة التي بشرت بهذين النبيين أعطتهما أسميهما عند البشرى بهما - أما نوح فليس هناك من دليل على أن الله هو الذي اختار له هذا الإسم . ولم يكن لامك يعرف أن ابنه نوحاً سيعيش هذا العمر المديد ليسميه نوحاً من البقيا والتلث .

كذلك لا نرى معنى للإشتقاق من النواح لأن كل الأطفال تبكى في الصغر . وإن كانوا يقصنون النواح على قومه لعدم إيمانهم به . فما كان لامك يعرف أن ابنه سيكون نبياً وأن قومه سيكذبونه ، وسيكون النواح عليهم .

ولذلك لا بأس من الأخذ بما قيل من أنه سُمي نوحاً - من قبل والده - بمعنى الراحة والاسترواح والتنعيم بعد تعبته في فلاحه الأرض

نوح في قومه

وشب نوح - كما يشب غيره من الشباب . ولا تعرف إن كان رعى الغنم في شبابه ، كما فعل كثير من الأنبياء . كذلك فلعل والده كان نجاراً . فأخذ نوح عنه النجارة كسنة أو أن صناعته للسفينة فيما بعد كانت إلهاماً من الله بدون سابق معرفة أو حيرة ، ونكون هذه معجزة أخرى لقوله تعالى : «واصنع الفلك بأمرتنا ووحينا» (من ٢٧ - هود)

ومن المرجح أيضاً أن والده - لامك - لم يكن من المتدينين أو لم يكن من المعتصمين لديانة قومه . فلم يجبر نوحاً على الركوع أو السجود للأصنام التي كان يعبدونها قومه لعصمة الأنبياء من ذلك حتى في طقوسهم أو المراحل الأولى من شبابهم .

وشب نوح ، ورأى الضلال الذي عليه القوم ولم يقتنع أن هذه الأصنام التي يعبدونها هومه آلهة حقه ، أو أنها قادرة على نفع الناس أو ضرهم . فالتاس هم الذين يصنعونها بأيديهم .

وراح يقلب بصره في السماء يطلب الهداية ، واجابت عن قلبه الغشاوة ، وعمره نور ، وجاعته البيئة ، وحيّاً من الله ، يصب في قلبه العقيدة الحقة ، وهي أن خالق هذا الكون هو إله واحد لا إله إلا هو واحد أحد لا شريك له

« إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين » (٢٣ - آل عمران)

واختلفوا في سن نوح يوم بعثه . عن ابن جرير قال ابن خمسين سنة ، وقيل أيضاً ابن ثلاثمائة وخمسين سنة . وعن ابن عباس قيل ابن أربعمائة وثمانين سنة .

ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده ، وحذّرهم من مغية العصيان .

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . (٥٩ - الأعراف)

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . (٢٥ ، ٢٦ - هود)

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله . ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون » . (٢٢ - المؤمنون)

بهذه الآيات من ثلاث سور مختلفة كانت بداية ذكر قصة نوح ويمكن استخلاص الكيفية التي دعاهم بها إلى دين الله كالآتي -

- دعوة إلى عبادة الله .

- ليس هناك إله إلا الله وحده .

- أئذّروهم إن خالفوا وعصوا . وتوعدهم بعذاب ، وصف مرة بأنه عذاب عظيم ، ومرة أخرى بيّنه عذاب أليم .

وآمن به نفر قليل - من الضعفاء والفقراء وريقى الحال . وكذب به كبراء القوم وبجهاؤهم . بالطبع حرصاً على مكانتهم وثرائهم . ولكنهم راحوا يتلمسون أعذاراً يبدونها - يُخلفون بها أهواهم فقالوا :

« ما نراك إلا بشراً مثلاً » . (٢٦ - هود)

أى أنهم رأوه واحداً منهم - لا يمتاز عليهم بشيء - لا بالفقى ولا بالثراء فاستبعدوا أن يكون الله قد اختاره لذلك الأمر . وقالوا إنه إنما يريد بهذه الدعوة ، أن يتخذ مجلس الصدارة فيهم . وأن يكون له الفضل عليهم أو يرأسهم بهذه الدعوة .

« فقال الملا الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة . ماسمعنا بهذا في أبائنا إلاولين »

(٢٤ المؤمنون)

وكان الرد على هذا الاعتراض هو :

« أو عجبتُم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا
ولعلكم ترحمون ؟ » . (٦٣ - الأعراف)

ونفى أنه يريد بهذه الدعوة أجراً ، من جاءه أو مال أو سلطان عليهم .

« ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله » .

(٢٩ - مود)

وقال . « إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من
أجر ، وإن أجرى إلا على رب العالمين » . (٧٢ - يوس)

وأكد لهم أنه رجل منهم ، ويشر متلهم ، ولكن الله من عليه وهده .

« ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك » .

(٣١ - مود)

ولعلهم طلبوا منه بعض الخوارق مثل أن يرزقهم مالا كثيراً وذهباً . أو يخبرهم بما يحدث
في الغد أو كذا وكذا ... وهذا دأب الكذابين في كل العصور . فقد قال الكافرون لرسول الله
صلى الله عليه وسلم

« وقالوا إن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة
من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت
عليناً كسفاً ، أو تأتي باله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو
ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل
سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم
الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً » .

(٨٩ - ٩٤ - الإسراء)

سبب آخر أبدوه لعدم اتباعهم لنوح عليه السلام ، وهو أن الذين اتبعوه هم من الضعفاء ،
كالباعة والحاكة وأشباهم ، ولم يتبعه الأشراف ولا أثرياء القوم ، ثم قالوا له إن هؤلاء الذين
اتبعوه لم يتبعوه عن ترو منهم أو تفكر ، بل بمجرد أن دعاهم أجابوه ولبوا بدعوتهم من أول الأمر
ومن مبدئه وأن هؤلاء لا يفضلونهم بمال أو جاه

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا
من فضل ، بل نظنكم كاذبين » .

(٢٧ - مود)

(١١١ - الشعراء)

« قالوا اتؤمن لك واتبعك الأراذلون » .

ثم قالوا ، إن هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا به ، منهم من كان خطئاً من قبل . فكان الرد عليهم إنه لا يلزمه شيء بما كانوا يعملون في الماضي وأن حسابهم في ذلك على ربهم .

وطلبوا منه إن كان يريدهم أن يؤمنوا به أن يطرد هؤلاء الضعفاء أنفةً منهم أن يجلسوا معهم واستكباراً عليهم . وكان الرد بالرفض .

« قال وما علمي بما كانوا يصنعون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين » . (١١١ - ١١٥ الشعراء)

« وما أنا بطارد الذين آمنوا . إنهم ملاقوا ربهم . ولكني أراكم قوماً تجهلون » . (من آية ٢٩ - هود)

وكان هذا نفس ما طلبه أشراف قريش من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - إذ طلبوا أن يجعل لهم مجلساً خاصاً لا يشاركون فيه الفقراء ولا الضعفاء ولا العبيد . فنزل قوله تعالى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

(٥٢ - الانعام)

ثم راح قوم نوح يلتمسون الأعذار لعدم إيمانهم به . وألهمه الله الرد على هذه الأعذار . قالوا إنه افترى هذا الأمر .

« أم يقولون افتراء . قل إن افتريقه فعلى إجرامي وأنا يرىء مما تجهلون » . (٢٥ - هود)

وقالوا إنه حاد عما كانوا يعبدون . وضل عن شريعتهم

« قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة . ولكني رسول من رب العالمين » . (٦٠ - ٦١ الأعراف)

قالوا إنه مجنون

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون وازجر » . (٩ - القمر)

« إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » . (٢٥ - المؤمنون)

كذلك كانت امرأة نوح تقول لقومها عنه إنه مجنون لأنها كانت كافرة مثلم . وكانت هذه خيانة منها لزوجها - إذ المفروض أن الزوجة ألصق الناس بزوجها وأعلمهم بحاله . وكانت تعلم جيداً أن ما يدعى إليه هو وحي من الله تعالى . ولكنها مجارة لكفرها ولقومها كانت تشيع عنه

أنه مجنون . وعبر عن ذلك القرآن الكريم بالخيانة في قوله تعالى :

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط . كانتا تحت عبيدين من عبادنا فخاقتاهما . فلم يفتيا عنهما من الله شيئاً . وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .
(٩ - ١٠ التحريم)

وليس المراد في قوله تعالى فخاقتاهما ، إتيان فاحشة ، إذ أن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء . قال سفيان الثوري عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قوام . سمعت ابن عباس يقول في هذه الآية - ما زلتنا - أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر عنه أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافة . وقال العوفي عن ابن عباس . كانت امرأة نوح تُطلعُ على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحدُ أخبرت الجبايرة من قوم نوح به . فيعذبونه أو يصنونه عن دين الله .

وسيأتي ذكر هذه النقطة ثانية عند الكلام عن ابن نوح الذي كان من المفارقة .

ذكر نوح مومه بآيات الله في الكون . واستحالة أن تكون أصنامهم التي يعبدونها هي التي خلقت السماوات والشمس والقمر . ويستحيل أن تكون هي التي خلقتهم . وكان في اللفظ القرآني إشارة إلى أن الإنسان يتغذى وينمو على ما تنبت الأرض من خيرات ، سواء له أو لمواشيه فكان الإنسان يتبث من الأرض - وإذا يموت يعود تراباً لأنه خلق من تراب الأرض . وهذا شيء ملموس لهم . ومن الواجب أن يؤمنوا كذلك بأن الله سيخرجهم ثانية من الأرض ليحاسبهم على أفعالهم . كما أن الله هو الذي جعل لهم الأرض ذللاً منبسطة بمشون في مناكبها ومسالكها .

« ألم ترأى كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سُبُلًا فجاجاً » .
(١٥ - ٢٠ نوح)

ويجدر بنا أن نشير إلى إعجاز اللفظ القرآني الذي احتوته هذه الآية في قوله تعالى « وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » . إذ أن السراج يشتعل ويشتع ضوءاً وحرارة . وهذا ما يحدث داخل الشمس إذ أثبت العلماء أن تفاعلات نووية تحدث بها وترفع حرارتها إلى ملايين الدرجات وتشتع الضوء والحرارة أما القمر فهو يعكس هذا الضوء فينبو منيراً ، ولكنه ليس بسراج يضئ بذاته وليس به احتراق يشتع ضوءاً .

كذلك اعتماد الإنسان في معيشتة وبناء جسده ونموه على ما تنبت الأرض فكأنه ينبت من الأرض . ثم إشارة سريعة إلى البعث في الآخرة « ويخرجكم إخراجاً » .

وهذا ما سبق أن أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب بأن الهدف من القصص القرآني ليس فقط السرد التاريخي للأحداث . بل تمتزج به العبرة والعظة والترغيب والترهيب . في إيجاز وإعجاز لا يتعارض مع أي تقدم علمي يظهر في المستقبل .

ورغبتهم في الإيمان بأن لهم الثواب في الدنيا . مطرٌ غزير تكثر به الغلة وتزداد المراكبي فتزداد ثروتهم وأموالهم ، ويكثر أبنائهم وتخضر الأرض ، وتصبح كأنها جنة تجري من خلالها أنهار كثيرة . وكيف أنهم بعد كل ذلك لا يطمعون في ثواب الله فيعظمونه ويوقروه . وأن الله سيغفر لهم ما سبق بن تكذيبهم ومن خطاياهم

« فقلت استهزؤا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين . ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ما لكم لا ترجون لله وقاراً » . (١٠ - ١١ نوح)

ولكنهم أصروا على تكذيبه بل وهددوه بالرجم . « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » . (١١٦ الشعراء)

وبدأوا في إيذائه .

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله ، فيجتمعون عليه ويضربونه بالضرب المبرح ، ويخنقونه حتى يغمس عليه ، ثم يلقونه في حصير ويرمون به في الطريق ، ويقولون أنه سيموت بعد هذا اليوم . فيعيده الله سبحانه وتعالى إلى قوته ، فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله ، فيفعلون به مثل ذلك .

وقال مجاهد وعبيد بن عمير كانوا يضربونه حتى يغمس عليه ، فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وقال ابن عباس جاء رجل يتوكأ على عصا ومعه ابنته إلى نوح ، فدعاه نوح إلى عبادته الله . فقال الولد . يا أبت أمكنني من العصا فأتخذ العصا وضرب نوحاً فشق في رأسه وسألت الدماء منه . فقال نوح « رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خير فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين .

وقيل إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه . فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه . أعطني حجراً . ورمى به نوحاً عليه السلام فاندماه .

وهكذا بقى النبي الكريم يُؤذَى ويُعَذَّب ، وهو مع ذلك صابر ، لا يدعو على قومه بالعذاب ، وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح ويقول ، لعل الله يخرج من أبنائهم من يؤمن بالله . ومع هذه المدة الطويلة التي ظل نوح يدعوهم فيه - لم يؤمن معه إلا القليل منهم . وكان كلما انقضى جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن . فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به . وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل - يا بني إحدُر هذا . لا يغرُك عن دينك والهِتكَ (تفسير القرطبي) .

وأقام فيهم ست مائة سنة داعياً ومذكراً وناصحاً ، وسلك جميع الطرق لإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان . ومع ذلك لم تلتن قلوبهم وقابلوا الإحسان بالشدة . ومالوا عليه بالضرب ونفثوا تهديدهم بأن يكون من المرجومين ورجمونه .

قال لهم لقد اثبت فيكم مدة طويلة وطال مقامى بينكم وكثر تذكيرى بآيات الله عليكم ودعوتى لكم لتعبدوه . وقد توكلت على الله فلا أبالى بشئ بعد ذلك . وطلب إليهم أن يجتمعوا هم وشركائهم الذين يدعوهم من دون الله وكذلك المشركون أمثالهم . وألا يكون الأمر ملتبساً عليهم . بل يدرسوا الأمر جيداً ويفصلوا فيه . ويتخذوا قراراً بمسده : وطلب منهم أن يخبروه بعد ذلك بما استقر عليه رأيهم ، إن كانوا سيؤمنون به أم يظلون على كفرهم . وطلب منهم ألا يباخروا في إخباره بما استقر عليه رأيهم . وذكرهم ثانية بأنهم إن كذبوه ولم يطيعوه ، فإن ذلك لن يكون سببه أنه طلب منهم أجراً لا يطيقونه فهو لم يسألهم أجراً وإنما أجره على الله وأن كل ما يهدف إليه هو أن يؤمنوا به ويكونوا لله مسلمين .

« قال إن كان كبير عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله . فعلى الله توكلت . فاجمعوا أمركم وشركاكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلتى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فكذبوه » . (٧١ يونس)

ثم بدأ ينذرهم بعذاب الله إن أصروا على كفرهم .

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم . قال يا قوم إلتى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » . (٤١ - نوح)

وأصروا على الكفر وعبادة الأصنام . فبدأ نوح يخيق بهم ويكفرهم .

« قال نوح . رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله ولولده إلا خساراً

« ومكروا مكراً كبيراً . وقالوا لا تَدْرُونَ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويهوئ
ونسراً . وقد أضلوا كثيراً . ولا تزد الظالمين إلا ضللاً » . (١٥ - ٢٢ نوح)

وكرر عليهم الدعوة للإيمان أكثر من مرة بالليل والنهار ولكنهم كانوا لا يستجيبون لدعوته -
بل إنهم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما يدعوهم إليه . وهم في هذا
يحاكون ما فعله كفار قريش مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرنا بذلك الله في قوله .
« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون » .

(٢٦ - فصلت)

واستمر قوم نوح على ما هم فيه من الكفر والشرك .

وكانوا يُفطّون رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعوا قوله ، واستكبروا أن يطيعوه ، واستنكفوا
عن إبداع الحق والإتيان له ، ودعاهم جهره بصوت يسمعه كل الناس . ثم كرر عليهم الدعوة كل
على حده . فيما بينه وبينهم . وطلب منهم أن يرجعوا عما هم فيه من الضلالة . وأنهم لو
استغفروا لذنوبهم وما سبق من تكذيبهم له . فإن الله سيغفر لهم ذلك . بل وسيرسل عليهم المطر
الغدير وتزدهر الأرض وتصبح كأنها جنات - لكل واحد منهم جنة - وتكثر الأنهار . وسألهم
سؤال توبيخ وتقريع - لماذا لا توقرون الله وتعظمونه حق عظمتة وفي هذا استفهام ضمنى ألا
تخافون بأسه وغضبه ونقمته !!

« قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائي إلا فزاً .
وإني كلما دعوتهم لتفقر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم
وأصبروا واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم
وأسررت لهم إسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً . يرسل السماء
عليكم مدرراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً .
ما لكم لا ترجون لله وقاراً » . (١٢ نوح)

وابت فيههم مئات السنين يدعوهم فلم يؤمن به إلا نفر قليل . وضاقوا به وطلبوا منه أن يأتهم
بالعذاب الذي توعدهم به إن كان صادقاً في أمره .

« قالوا يا نوح لقد جادلتنا فاكثرت جوالنا . فأتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين » . (٢٢ هود)

وضاق هو بهم أيضاً كما ضاقوا به . واشتكى إلى الله وطلب منه أن يفصل في الأمر . وأن
يتجّيه هو ومن معه من المؤمنين قال .

« وب إن قومى كذّيون . فافتح بينى وبينهم فتحة . ونجنى ومن معى من المؤمنين » . (١١٧ - ١١٨ الشعراء)

كانوا قد تحووه أن ينزل بهم ما يتوعدهم به من العذاب إن كان صادقاً في دعواه . إذ قالوا « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . وكان رده أن العذاب الذى توعدهم به ليس من عنده هو ، بل من عند الله عز وجل ، وراجع إلى مشيخته ، وهو وحده الذى يحدد متى ينزل بهم العذاب . وقال إن كل شئ مردّه إلى الله . وحتى نصحه لهم لن يكون ذا نفع لهم إن كان الله قد كتب عليهم الضلالة بما علم من فساد طوبيتهم وخبث سريرتهم . وأنهم فى الآخرة راجعون إلى الله . وفى هذا إشارة وتذكير لهم بأن هناك حساب فى الآخرة على أفعالهم وتكذيبهم .

« قال إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصيحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » . (٢٢ - ٢٤ - مرد)

وأخبر الله نوحاً أنه لن يؤمن به من قومه ، إلاّ النفر القليل الذين آمنوا به . وأمره ألا يحزن بسبب ذلك ، وبما كانوا يجيبونه وما كانوا يفعلون به عندما كان يدعوهم إلى الله .

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » . (٢٦ - مرد)

قلما كان الأمر كذلك ، وعلم أن الغالبية الكافرة لن تؤمن مهما كرر عليهم الدعوة للإيمان . فهم سادرون فى غيهم . ضلوا ويضلّون غيرهم .

« وقد أضلوا كثيراً . ولا تزد الظالمين إلاّ ضلّالاً » . (٢٤ - نوح)

وعلم أن لا فائدة من دعوتهم إلى الهدى . ولا فائدة حتى من بقائهم على الأرض أحياء لأنهم حتى إن بقوا فإن نسلهم سيكون كافراً مثلهم . بل إنهم سيعملون على نشر الكفر فى الأرض . فتوجه بالدعاء إلى الله أن يبيدهم .

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنيك إن تذرهم يفسدوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً » . (٢٦ - ٢٧ نوح)

واستجاب الله لدعوة نوح .

« ولقد نادانا نوح فلننعم المجيبون . ونجيناها وأهلك من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين » . (٢٥ - ٨٢ الصافات)

وصدر أمر الله .

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » . (٢٧ - ممد)

ولكن كيف يكون غرقهم ، وكيف تكون نجاته هو وأهله ؟

« واصنع الفلك ياعيننا وروحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا . إنهم مغرقون » . (٢٧ - ممد)

بأعيننا كناية عن عناية الله به أثناء صنعه للسفينة ، من تعدى الكفر عليه ، وكذلك لتكون السفينة جيدة الصنع . وقيل المراد من أعيننا ، ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً لحفظك ولعونتك والمراد بروحينا أن نوحاً عليه السلام ثم يكن يدري كيف يصنع السفينة فأوحى الله إليه طريقة صنعها . وقيل إن الله بعث جبريل عليه السلام فعلمه طريقة صنعها .

وأمره الله تعالى ألا يراجعه في أمر الذين ظلموا وكذبوه ، بأن يطلب لهم التأجيل أو دفع العذاب عنهم ، لأنهم قد حكم عليهم بالإغراق ، وجرى بذلك أمر الله وقضائه ولا راد لقضائه فهم مغرقون

وبدأ نوح عليه السلام في صناعة الفلك .

« واصنع الفلك . وكلما مر عليه مئلاً من قومه سخروا منه . قال إن تسخروا منا ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب ، يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . (٢٧ - ٢٩ ممد)

كانوا يسخرون لأنه لا توجد بحار في هذه المنطقة . والسفن التي كانت تصلح للسير في الأنهار وفروعها - لابد أن تكون أصغر من ذلك بكثير . من هنا كانت سخريتهم . وقيل : كانوا يصاحكون ويقولون : يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً . وكان رده عليهم أنهم بقوتهم هذا يستوجبون السخرية منهم . وقيل لم يسخر منهم فعلاً لأن السخرية لا تليق بالأنبياء . فكان السخرية مجازاً بسبب جهلهم . ومكافئة لسخريتهم به . وسيحل عليهم العذاب الذي يخزيهم ويذلهم ويهلكهم . ولهم في الآخرة عذاب مقيم ودائم في النار .

صُنْعُ السفينة :

لم يتعرض القرآن الكريم لطريقة صنع السفينة ولا أبعادها لأنه - كما سبق أن قلنا - إن الهدف من القصص القرآني هو العبرة والعظة وليس في طريقة صنع السفينة - أو كم نوعاً

طولها وعرضها ، أو كيف طليت بالقار أو من أين جاء القار كل هذه تفاصيل قد تشتت ذهن القارئ عن العبرة المستهدفة ، وهو أن تكذيبهم لنبيهم كان هو السبب في عذابهم وإغراقهم .

وتجاوز القرآن الكريم عن هذه التفاصيل ، ففتح مجالاً عند البعض للأخذ عن مرويات أهل الكتاب . ونحن نعلم مقدار ما فيها من عدم دقة ومبالغات لا يصدقها العقل . ولئن ذُكرت هنا - نقلاً عن بعض الكتب التفسيرية - فليبين أنها إضافات مسلمة أهل الكتاب ، وحتى لو ادعى بعضهم أحاديث شريفة متعلقة بها ، فهي من الأحاديث التي لا يُشكُّ في أنها موضوعة .

قال بعض السلف ، أمره الله تعالى أن يقرر الخشب ويقطعه ويبيسه . فكان ذلك في مائة عام . ونَجَرها في مائة أخرى وقيل في ٤٠ سنة ، وأنه كان خشب الساج .

واختلف المؤرخون في أبعاد السفينة .

فذكر محمد بن اسحق أن طولها كان ٨٠ ذراعاً وعرضها ٥٠ ذراعاً

وعن الحسن كان طولها ٦٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً .

وعن ابن عباس طولها ١٢٠٠ ذراعاً وعرضها ٦٠٠ ذراعاً وقيل طولها ٢٠٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً .

أما التوراة فتذكر طولها ٣٠٠ ذراعاً ، وعرضها ٥٠ وارتفاعها ٣٠ ذراعاً .

ولا شك أن القول الأول وهو ٨٠ × ٥٠ ذراعاً أي ٣٥ × ٢٥ متراً مقياس معقول بالنسبة لسفينة من الخشب . ويسؤال مختصين في بناء السفن أقانوا بأنه في عصرنا الحالي لا تزيد المراكب الخشبية عن ٧٠ متراً طولاً أي حوالي ١٠٠ ذراعاً . وتصل حمولة سفينة كهذه إلى ٢٠٠ طن .

وعلى ذلك فإن طول ٦٠٠ ذراعاً (٤٢٠ متراً) أو ١٢٠٠ ذراعاً (٨٤٠ متراً) أو ٢٠٠٠ ذراعاً (١٤٠٠ متراً) أي ما يقرب من كليو متر ونصف هي مقاييس فيها كثير من المبالغة . فإن وصل أخشاب ليصل طولها إلى كيلومتر أو كيلو متر ونصف تقريباً ، أمر بالغ الصعوبة . كما أنه يُضَعَفُها ويجعلها تنفَسُ عند ارتطامها بالأمواج . وخاصة أن القرآن الكريم قال « وهي تجري بهم في موج كالجبال » .

قد يقول البعض إن هذه السفينة كانت معجزة ، والرد إنها تكون كذلك لو نزلت من السماء سفينة تامة الصنع . ولكن مادام نوح عليه السلام هو الذي صنعها - فإنه يصنعها وفقاً للقوانين الأرضية صحيح أنه يعملها بإرشاد من الله وتوجيهه ولكن طبقاً لسنن الله في الأرض .

وقالوا كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً أي ٢١ متراً ، وأنها كانت مكونة من ثلاث

طبقات كل طبقة عشرة أذرع . السفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر أثراً غريباً من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم . لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها ، قال فانطلق بهم ، حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، فقال أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح ، قال فضرب الكتيب بعصاه وقال قم ياذن الله فإذا هو قائم يتغص التراب عن رأسه قد شاب . قال له عيسى عليه السلام ، أهكذا هلك؟ قال لا ولكني مت وأنا شاب . ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شئت . قال . حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ٦٠٠ ذراع وكانت ثلاث طبقات . طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير . فلما كثر روث الدواب ، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن أغمر ذنب الفيل ، فغمره فوق منه خنزير وخنزيرة فأقبل على الروث . فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها ، أوحى الله إليه أن أضرب بين عيني الأسد فضرب ، فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبل على الفأر . قال . فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا يجلس معنا ويحدثنا ، قال كيف يتبعكم من لا رزق له . قال . فقال له عد ياذن الله فعاد تراباً .

والاختلاق واضح في هذه القصة ففيها أشياء لا يصدقها العقل ، مثل خروج الخنزير والخنزيرة من ذنب الفيل ، وخروج السنور والسنورة من منخر الأسد . كما أن تلاميذ المسيح لم يكونوا ينامونه يا رسول الله ، بل كانوا يقولون يا معلم .

الطوفان :

كانت العلامة على بدء الطوفان ، أن يفور التنور أي يخرج الماء من الفرن الكائن في بيت نوح عليه السلام

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور . قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . وأهلك إلا من سبق عليه القول . ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » .

(٤٠ - مود)

« فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

(٢٧ - المؤمن)

وكلنا يعرف اندفاع الماء بقوة من قاع قنبر على النار إلى السطح عند غليان الماء وفورانه
ولذلك كان لفظ وقار التتور تعبيراً عن اندفاع الماء بقوة كأنه يغلي .

أعقب ذلك هطول الأمطار الغزيرة من السماء . واندفاع الماء بقوة من عيون تفجرت عنها
الأرض .

« ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر . وهجرنا الأرض عيوناً . فالتقى
الماء على أمر قد قُدر » . (١١ - ١٢ القمر)

وقد شبهت السماء في هذه الآية كأنها بحر عظيم . وقاعه له أبواب ، ثم فتحت هذه الأبواب
ولنا أن نتصور شدة اندفاع الماء النازل منها ، ليس على شكل قطرات ، بل كأنه السيل
المنهمر المتواصل المندفع وراء بعضه . كذلك تفجرت العيون في الأرض في كل مكان . ويكمل
المشهد الرهيب بأن يلتقي الماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض فيصبح الماء في كل
مكان . مغرقاً كل شيء كما قدر الله سبحانه وتعالى .

« فالتقى الماء على أمر قد قُدر » . وصدق الله العظيم

من دخل السفينة ؟

أمر نوح عليه السلام أن يحمل في السفينة ثلاثة أصناف :

١ - من كل زوجين اثنين .

٢ - وأهلك إلا من سبق عليه القول .

٣ - ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل .

الصنف الأول :

من كل زوجين اثنين . ذكر وأنثى . من كل صنوف الحيوانات . وقيل هبط جبريل عليه
السلام إلى الأرض وحمل إلى السفينة من كل حيوان وطيور ووحش زوجين اثنين . وكان نوح قد
صنع أقفاصاً للوحش وهو يصنع السفينة .

بعضهم قال وأيضاً من النباتات . وهذا قول فيه نظر فالتبئات لا يخشى عليها من الغرق .
ولو غرقت فإنها بعد أن يجف الماء - لا تثبت أن تنبت من جديد ولذلك فلا داعي لحملها - إلا
أن تكون علفاً للحيوانات .

ويعمل الخيال عمله عند البعض ، فيخلطون أقوالاً غريبة ، فقد قيل إن آخر من أدخل من

الحيوانات الحمار ، فتعلق إبليس بذنبه ، وجعل الحمار يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل نوح عليه السلام يقول له أدخل وإن كان إبليس معك ، فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيل الحمار فدخل ودخل معه ، فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله ، فقال ألم تقل أدخل ولو كان الشيطان معك ؟ قال أخرج يا عدو الله ، قال ما أخرج وما كان بك أن تحملني معك ، وكان - فيما يزعمون - على ظهر الفلك .

وواضح غرابة هذا القول وعدم معقوليته ، ولعلهم بهذه القصة يبررون كيف أن إبليس لم يغرق واستمر في وسوسته لبني آدم بعد الطوفان ، ونسوا أن طبيعة إبليس مختلفة عن طبيعة بني آدم ، إذ يتمكن من الارتفاع في الجو لأي مكان مثله مثل الجن الذين كانوا يرفعون إلى السماء .

« وَأَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ » (١ - الجن)

كما أن إبليس ليس له جسد يتنفس الهواء فيغرق كما يغرق بتوالبشر

كذلك يقال إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى ، وقال ابن حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد عن أسامة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه ، وكيف تلمئن المواشي ومعها الأسد ؟ فسأط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى نزلت في الأرض ، ثم شكوا الفأرة ، فقالوا تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها .

وواضح أن هذا الحديث موضوع ، إذ واضح مشابهته للحكاية المروية عن أصحاب عيسى عليه السلام ، مع إختلاف بسيط هو خروج الهرة من منخر الأسد بدلاً من السنور والسنورة في حكاية أصحاب عيسى .

وعن وهب بن منبه قال ، لما أمر الله تعالى نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ قال الله تعالى له ، من ألقى بينهم العداوة ؟ قال أنت يارب ، قال فأتنا أولاف بينهم حتى لا يتضاروا ، فحمل السباع والنواب في الطبقة الأولى ، فلقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن النواب والبقر .

الصف الثاني :

أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة أهله ، واستثنى بعضهم لقوله : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » . (٤٠ - مد)

« وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ الْقَوْلُ مِنْهُمْ » (٢٧ - المؤمن)

وهم أهل بيت نوح عليه السلام وأهل قرابته ، إلا من سبق عليه القول وسبق أن دعاه نوح إلى الإيمان ولم يؤمن . وكان ممن دعاهم نوح ولم يؤمنوا ابنه يام (وقيل اسمه كنعان) الذي انعزل وحده ، ولجأ إلى قمة جبل مرتفع ظناً منه أن الماء لن يصل إليه . كذلك لم يركب معه امرأة نوح وكانت كافرة . لم يؤمن به وكانت تتهمه بالجنون .

وهنا خلاف . إذ قال قتادة : لم يكن في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيهِ : سام وحام ويافث ونسأوهم . فجميعهم ثمانية . وهذا لا يتعارض مع الرأي القائل بأن امرأة نوح كانت كافرة وكانت من المغرقين ، فلا بد أن كانت له زوجتان إحداهما كافرة غرقت ، والأخرى مؤمنة ركبت معه السفينة .

وقال الأعمش . كانوا سبعة . نوح وثلاثة بنين وثلاث كنانن له .

الصنف الثالث :

من الذين أمرَ بحملهم في السفينة هم . من آمن وما آمن معه إلا قليل . حسب نص القرآن الكريم .

فقال اسحق كانوا عشرة . وقال مقاتل كانوا سبعين ، بالإضافة إلى نوح وامرأته وبنيه الثلاثة ونسأوهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفساً . وقال ابن عباس كانوا ثمانين إنساناً .

وقال علي بن أحمد عن عكرمة ابن عباس قال . فلما ركب نوح في الفلك وأدخل معه كل من آمن ، تفجرت ينابيع الأرض ، وأمطرت السماء كاقواه القرب أربعين يوماً وليلة ، ثم احتمل الماء الفلك .

« قال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال » . (٤١ - ٤٢ م .)

وكان لنوح ابن لم يؤمن واختُلف في اسم هذا الابن . قالوا اسمه يام ، وبعضهم قال كنعان . ولجأ إلى جبل ، ظناً منه أن الماء لن يصل إليه ، ولكن الماء ارتفع ، ووصل إلى مكانه ، فارتقى إلى قمة الجبل . ولكن الماء ارتفع حتى طاله فكان من المغرقين .

« ونادى نوح ابنه وكان في معزل . يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سألني إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » . (٤٢ - ٤٣ م .)

وغرق كل من كان في أرض العراق وكان ممن وصلتهم دعوة نوح عليه السلام ولم يؤمن وباتتالي لم يكن ممن ركبوا في السفينة .

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل : نورحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم انصبى . وذلك أنها خشيت عليه من الماء ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبال وحملت الصبي . فلما بلغ الماء رقبته رفعت يدها حتى ذهب بها الماء فلو رحم أحداً لرحم هذه .

بعض المفسرين والعلماء يقولون إن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة . فلم يولد لهم فى تلك الفترة مولود . وبذلك كان جميع قومه بالغوا التكليف وحق على المكذبين العذاب وحاق بهم الهلاك .

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة هطول المطر ، فهذه ليس بذات أهمية ، المهم أن يستمر الماء فى الزيادة والارتفاع حتى يبلغ قمم الجبال وهى التى يأمل الكافرون أن يلجأوا إليها إنقاذاً لأنفسهم من الفرق . وبالطبع لجأوا إليها وبالطبع ارتفع الماء فوقها فكانوا من المفرقين . وظلت السفينة طافية على الماء وبها نوح والقلة المؤمنة التى معه .

« فإذا استويت أنت ومن معك على الغلج . فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » .

(٢٨ - ٢٩ المؤمنون)

« فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » .

(٦٥ التكهوت)

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية » .

(٢٧ - الفرقان)

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبين . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إله من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين » .

(٧٥ - ٨٢ المسافات)

« وقيل يا أرض . إيلمي ماءك وباسماء ألقمى . وغيش الماء وقضى الأمر . واستوت على الجوى . وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

(٤٤ - مود)

أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها وأمر السماء أن تكف عن المطر وشرع الماء فى النقصان وتم أمر الله وقضاه من إغراق القوم الكافرين . وقضى الأمر كما توعدهم نوح بقوله :

«فسوف تعلمون من ياتي عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم» .

(٢٩ - مود)

وتم تحقيق دعوة نوح عليهم « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنا نقرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

(٢٦ - ٢٧ مود)

وكان جزاء كفرهم وصدهم عن سبيل الله أنهم أغرقوا في الدنيا ولهم في الآخرة النار . ولم ولن ينصرهم أحد من عذاب الله .

«عما خطيئاتهم أغرقوا . فأنخلوا ناراً . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً» .

(٢٥ - نوح)

واستقرت السفينة على جبل الجودي . وهو أحد سلسلة جبال أراط في شمال العراق أو جنوب شرق تركيا . فبعث نوح الغراب ليأتيه بخير الأرض فذهب فوق عسى الجيف فأبطأ عليه . فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ملطخةً رجليها بالطين . فعرف نوح عليه السلام أن المساء قد تضب . فهبط ومن معه من السفينة . وكان خروجهم من السفينة في عاشوراء من المحرم .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا ابن جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي ، عن ابن حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبي هريرة قال : مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بأَناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء . فقال ما هذا الصوم ؟ قالوا . هذا اليوم الذي نجي الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم . فصام . وقال لأصحابه : من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه . ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه . يقول ابن كثير وهذا حديث غريب من هذا الوجه وابعضه شاهد في الصحيح .

وتذكر التوراة (العهد القديم) قصة سيدنا نوح في الإصحاح ٦ إلى ٩ تكوين . وهي تتفق في كثير مما سبق ذكره هنا - إلا أنها تختلف في بعض الأمور .

١ - تذكر التوراة أن سبب الطوفان هو كثرة شرور الإنسان . وهنا تتجلى نظرهم في تجسيد الإله ، ونسبة مشاعر الإنسان إليه فتقول التوراة . « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض . فحزن الرب لأنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف قلبه . فقال الرب أمحو عن

وجه الأرض الإنسان الذى خلقه . الإنسان مع بهائم وديابات وطيور السماء . لأنى حرنت أنى
عسلتهم .

مع أن السبب الحقيقى للطوفان هو إهلاك الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح وكذبوه .

« ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا . إنهم كانوا قوم سوء
فاغرقناهم أجمعين » . (٧٧ - الأنبياء)

« ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مشرقون » . (من ٢٧ - المؤمن)

« قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً
. وعكروا مكرأ كئاراً » . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا
يغوث ويغوث ونسرأ . وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً . مما
خطيئاتهم أغرقوا » . (٢١ - ٢٥ نوح)

فهذه هى الأسباب فى إهلاكهم بالطوفان . تكذيبهم نوح عليه السلام وعصيانهم له .
وإصرارهم على عبادة الأوثان والأصنام . وإضلالهم لكثير من الناس ونهيبهم عن الإيمان بنوح .
هذه هى الخطايا التى استحقوا بسببها الهلاك بالغرق .

٢ - حكاية الميثاق :

تقول التوراة . وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور
قلب الإنسان شرير منذ حداثة .

وتقول : وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً . وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم .
ومع كل نوات الأنفس الحية التى معكم . الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم . من
جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض . أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى
جسد أيضاً بمياه الطوفان . ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض . وقال الله هذه علامة
الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل نوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر .
وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض . فليكون متى أنشر سحباً
على الأرض وتظهر القوس فى السحاب . أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس
حية فى كل جسد . فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذى جسد فمتى كان القوس فى
السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض .
وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمه بينى وبين كل ذى جسد على الأرض .

وهنا أيضاً تتضح نظرتهم التجسدية للإله . فإذا كانت إرادة الله هي عدم إهلاك البشر
فذلك منه فضلٌ ومنّة . وليس تقيداً بميثاق مع البشر والبهائم ووحوش الأرض !! ويبلغ فساد
الرأى مداه إذ جعلوا من قوس قزح ما يذكر الله سبحانه وتعالى بهذا الميثاق المزموم .
« وما كان ريك نسياً » . (٦٤ - مريم)

٣ - من كل زوجين اثنين :

تذكر التوراة في نص منها « من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ، ذكراً وأنثى ،
ومن البهائم التي ليست بطاهرة ، اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً
وأنثى ، لاستيفاء نسل على وجه كل الأرض لأنى بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض
أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته .
وفي نص آخر للتوراة ذكر أن ما أخذ من الحيوانات هو اثنين اثنين . وواضح أن النص
الاول الذى يفرق بين حيوانات طاهرة وأخرى نجسة قد أضيف إلى التوراة عند كتابتها في
السبى . لأن هذه التفرقة بين الحيوانات لم تكن على أيام سيدنا نوح بل أتت في تعاليم موسى
عليه السلام .

والقول الصحيح هو ما جاء في القرآن الكريم . من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى . وهذا يكفى
لتكاثر النوع بعد الطوفان . ولا داعى لزيادة حمولة السفينة بأخذ ستة أزواج إضافية من بعض
الأنواع .

٤ - مدة الطوفان :

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة الطوفان مع أنه في قصة عاد قوم هود حدد المدة التي هبت
فيها الريح فقال .

« وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليالٍ
وثمانية أيام » (ه - المائدة)

ولعل ذكر مدة الريح بالدقة كان لبيان أثرها المدمر إذ عهدنا بالريح أن تشتد عدة ساعات ثم
تهب . وقد تشور ثمانية وهكذا . ولكن أن تستمر الريح عاتية سبع ليالٍ وثمانية أيام فهي ريح غير
معقادة ومهلكة . فالمعجزة تتضمن أيضاً استمراريتها طوال هذه المدة . ومن هنا كان ذكر مدتها

. ولعل القرآن الكريم لم يذكر مدة الفيضان لأن المدة نفسها ليست بمؤثرة في القضية الإيمانية - ويكفى بقاء الحياه عدة ساعات أو عدة دقائق لتموت الفئة الكافرة - إلا أنه بعد توقف سقوط المطر وتفجر العيون - يختلف الوقت الذي تجف فيه الأرض من بقعة لأخرى . فقمم الجبال تجف أولاً . ثم سفوحها وبعد عدة أسابيع تجف السهول وبعد عدة أسابيع أخرى تجف الوديان . وبهذا تختلف مدة الطوفان من مكان لآخر حسب ارتفاعه وحسب كمية المياه الموجودة به . ولهذا لم يتعرض القرآن الكريم لهذه المدة - وإن قيل إن مدة الطوفان تقدر بمدة سقوط الأمطار - قلنا إن القرآن الكريم أشار إلى أن المياه ظلت تتساقط وتتفجر من الأرض حتى بلغت قمم الجبال التي لجأ إليها الكافرون .

وتختلف الكتابات اليهودية للتوراة فيما بينها على مدة الطوفان ففي إحدى الكتابات تقول إن الأمطار ظلت تهطل أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من رسو السفينة وبهذا يكون الطوفان قد دام ٦١ يوماً ورواية أخرى تقول إن الطوفان استغرق اثني عشر شهراً وعشرة أيام . ولما كانت الشهور العبرية شهوراً قمريه . فالمدة تساوي سنة شمسية كاملة .

وفي رواية ثالثة قيل إن المياه نقصت بعد مائة وخمسين يوماً .

٥ - تحفل التوراة في كيفية تأكيد نوح عليه السلام من انتهاء الطوفان وتذكر كيف أرسل الحمامة ثم الغراب ثم السمامة مرة ثانية وهي تفاصيل (استغرقت صفحة تقريباً - وستذكرها فيما بعد) لا تخدم القضية الإيمانية ، ولذلك أوجز القرآن القرآن الكريم ذلك في قوله

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » .

(٤٨ مد)

٦ - لا يفوت اليهود في قصة مثل هذه ، أن ينسوا شيئاً يمجدهم ، فيقولون إن مدينة اورشليم وجبل صهيون بالذات هما اللذان أعلتا من العمر العظيم . أو القول بأن أرض فلسطين كلها مرتفعة فلم تغمرها مياه الطوفان وهذا مثل ادعائهم بأن - العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون - وأن آدم إنما سُوِّي في اورشليم!!

٧ - كذلك لم تذكر التوراة شيئاً البتة عن ابن نوح الذي غرق .

ونستكمل هنا ما جاء في القرآن الكريم بهذا الصدد .

« ونادى نوح ابنه وكان في معزل . يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوى إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

(٤٢ - ٤٣ مود)

وبعد أن توقف الطوفان . وجفت الأرض . تحركت عاطفة الأيوة لدى نوح عليه السلام . وتذكر ابنه الذي غرق - وتذكر وعد الله له بنجاة أهله . وابنه من أهله

« ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من أهلي . وإن وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك . أنه عمل غير صالح . فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعطيك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم . وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

(٤٥ - ٤٧ مود)

كان سؤال نوح عليه السلام ، سؤال استتفهام عن ولده الذي غرق . وهو من أهله . وكان الجواب أن النجاة وعدت لمن آمن من أهله . أما من سبق عليه القول ولم يؤمن . فقد استثنى من الوعد بالنجاة .

فسر البعض قول الله عز وجل - إنه ليس من أهلك - على أن هذا الإبن كان ربيباً عنده . ولو كان الأمر كذلك لكان نوح عالمًا به . ولم قال في سؤاله . إن ابني من أهلي

وقال البعض أيضاً إنه كان ثمرة خطيئة لزوجته . ودللوا على ذلك بقول الله عز وجل عن امرأة نوح وامرأة لوط «فخانتاهما» وقد سبق شرح هذه الخيانة بأن امرأة نوح كانت تشيع عنه أنه مجنون . وهذه خيانة من الزوجة لزوجها . وحاش لله أن ترتكب إحدى نساء الأنبياء الفاحشة فهذا يسىء إلى النبي ذاته . وهم معصومون .

ونقول عن هذه الفرية ما أوجب الله قوله في حديث الإفك

« لولا إذ سمعتموه قلتم . ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سيئاتك هذا بهتان عظيم » .

(١٦ - الترمذ)

وقالوا كذلك إن ابن نوح هذا كان منافقاً يظهر الإيمان مع أنه كان كافراً . وإن نداء نوح لربه كان حسب ما هو ظاهر له . إن ابنه من أهله . وظاهر الأمر أنه مؤمن . ولكن الله بقوله « إنه ليس من أهلك » أوضح أنه كان كافراً .

« قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ... »

(من الآية ٤٨ - هود)

ونزل نوح وبنوه ، ومن آمن من السفينة وكذلك نزلت الحيوانات والبهائم والطيور وانتشروا في الأرض ليعمروها ، بعد أن كانت مظاهر الحياة فيها قد بادت بفعل الطوفان .

وكان أول ما فعله نوح أن صام ذلك اليوم - وقد سبق ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وانتشر الأبناء وزوجاتهم وتكاثروا ، كما سيجي الكلام عن ذلك فيما بعد .

هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً ؟

بمعنى هل عم الطوفان الكرة الأرضية كلها ، أم عم المنطقة التي كان بها قوم نوح ، ولم يغمر غيرها من المناطق ؟

يعض العلماء يميل إلى أن الطوفان كان عاماً وأنه أهلك كل من وما على وجه الأرض ولم يبق على وجه الأرض إلا نوح ومن كانوا معه ، ويحتجون على ذلك بالآية الكريمة

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » . (٢٦ - نوح)

أي لا تترك على وجه الأرض منهم دياراً ، أي ولا دياراً واحداً ، والديار هو الذي يسكن الدار . وقال السدي فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين ، واستدلوا على ذلك بالحديث الشريف (السابق ذكره في ص ١٠٤) والمروى عن عائشة رضي الله عنها (عن ابن عباس حيث قال قال رسول الله ص لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها .. الخ الحديث ، وقال ابن كثير ، هذا حديث غريب ، ورجاله ثقة .

وقالوا إن معنى هذا الحديث أنه لم ينج من الغرق ممن كانوا على وجه الأرض إلا من ركبوا السفينة مع نوح

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين » .

وقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » . (٧٧ - الصافات)

ولكن هاتين الآيتين لا تدلّان على أن جميع البشر على سطح الكرة الأرضية كلها قد بانوا إلا من حملة نوح مع في السفينة - بل يدل على أن الله أنجاه ومن معه في السفينة وغرق

الآخرون . وأن من غرقوا ، هم الذين لم يؤمنوا به ، ولم يركبوا معه فى السفينة من قومه
وبذلك كانت ذريته هم الباقون بعد هلاك المكذبين

كما أن آية - رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً - لا تعنى بالضرورة عموم الكرة
الأرضية كلها وإنما تستعمل لتدل على جزء من سطح الأرض ففى سورة يوسف « قال
اجعلنى على خزانة الأرض » . و « كذلك مكنا يوسف فى الأرض » . والمراد
هنا أرض مصر . لا كل الأرض . ولا كل الكرة الأرضية وكذلك قوله تعالى . « وإن فرعون
لعال فى الأرض » . وكذلك قول فرعون لموسى وهارون . « وتكون لكما الكبرياء فى
الأرض » . والمراد هنا أيضاً أرض مصر . وقوله تعالى « وإن كانوا يستفتونك من
الأرض ، ليخرجوك منها » . (٧٦ - ١٢١سراء) والمراد بالأرض هنا أرض مكة .

وكذلك يكون معنى رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً - أى على أرض القوم الذين
أرسلت إليهم وكفروا - وهى أرض العراق .

وقد قال الإمام محمد عبده . إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان . .
ويقول السيد محمد رشيد رضا إن ظاهر القرآن أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح الذين لم
يكن فى الأرض غيرهم ولكنه لا يقتضى أن يكون عاماً للأرض إذ لا دليل على أنهم كانوا يملكون
الأرض .

والقول بأن قوم نوح لم يكن فى الأرض غيرهم ليس عليه دليل . فقد كانت مصر عامرة
بالسكان من أبناء شيث . كذلك وسط وجنوب شرق آسيا .

ويتبنى آخرون الرأى القائل بأن الطوفان عم المنطقة التى كان يعيش فيها نوح وقومه
وأما بقية يقاع الأرض فلم يعمها الطوفان وهذا الرأى هو الأقرب إلى الصحة .

وأورد الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران أدلة كثيرة على صحة هذا الرأى . أولها أن كل
آيات القرآن الكريم تنص دائماً ودون لبس أو غموض - على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه
خاصة ومن ذلك قوله تعالى :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اصعبوا الله ما لكم من إله
غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملا من قومه إنا لنراك فى
ضلال مبين ، قال يا قوم ليس لى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين » .

(٥٩ - ٦١ الأعراف)

وقوله تعالى . « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً . فآخذهم الطوفان وهم ظالمون » . (١٤ - العنكبوت)

وقوله تعالى . « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه . أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم - قال يا قوم إني لكم نذير مبين » . (٢٠ - نوح)

وغير ذلك من الآيات ، التي تؤكد كل الناكيد ، أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة - شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء والرسل - إلا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . فهو الوحيد الذي أرسل إلى الناس كافة ومن ذلك قوله تعالى

« وأرسلناك للناس كافة . وكفى بآلِكَ شهيداً » . (٤٩ - النساء)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » . (٢٨ - سبأ)

« قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » . (١٥٨ - الأعراف)

وهناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم ، يذكر فيها الله سبحانه وتعالى عالمية الرسالة المحمدية

ولما كان الأمر كذلك ، وكانت القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، هي ألا يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسلاً يهديهم سواء السبيل ، تصديقاً لقوله تعالى .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً » . (١٥ - الإسراء)

ولما كان نوح عليه السلام في العراق فكيف يعذب الله ويغرق أهل مصر ، أو سكان الجزيرة العربية ، بسبب كفر العراقيين بنوح ؟

وإن القرآن الكريم يقول « مما خطبتاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً » . (٢٥ - نوح)

وهذا يعني أن الذين غرقوا . إنما بسبب خطيئاتهم في حق نوح وكفرهم بدعوته .

وقال نوح عنهم . « قال وب إنهم عصوني » .

وكذلك الآية « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » .

(٢٦ - مود)

كل هذا يدل على أن الكافرين الذين أغرقوا كانوا من قوم نوح .

« فكذبوه . فنجيناه ومن معه في الفلك » . وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا

(٧٣ - يونس)

الذين كذبوا بآياتنا » .

أما باقي سكان الكرة الأرضية في مصر وآسيا مثلاً ، فلم تشملهم دعوته ، وبالتالي لم

يكونوا ضمن الكذابين ، وبالتالي لم يكونوا ضمن المفرقين .

أما قول البعض بأن الطوفان كان عاماً ، ويستدلون بوجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء فوق الجبال وهذا يستدعي وجود طوفان غمر هذه الجبال . وهي في أماكن متفرقة من العالم ، فإن هذا في الحقيقة دليل ضد عمومية الطوفان . فإن طوفان نوح عليه السلام ، يفرض أنه عم الأرض كلها - فقد دام مدة قصيرة قليل أربعين يوماً ، وقليل ١٥٠ يوماً ، وأكثر ما قيل سنة شمسية كاملة . وإن صعود الماء إلى الجبال هذه الفترة المحدودة ، لا تكفي لتكون أحياء مائنة ، إذ أن ذلك يستغرق آلاف وملايين السنين .

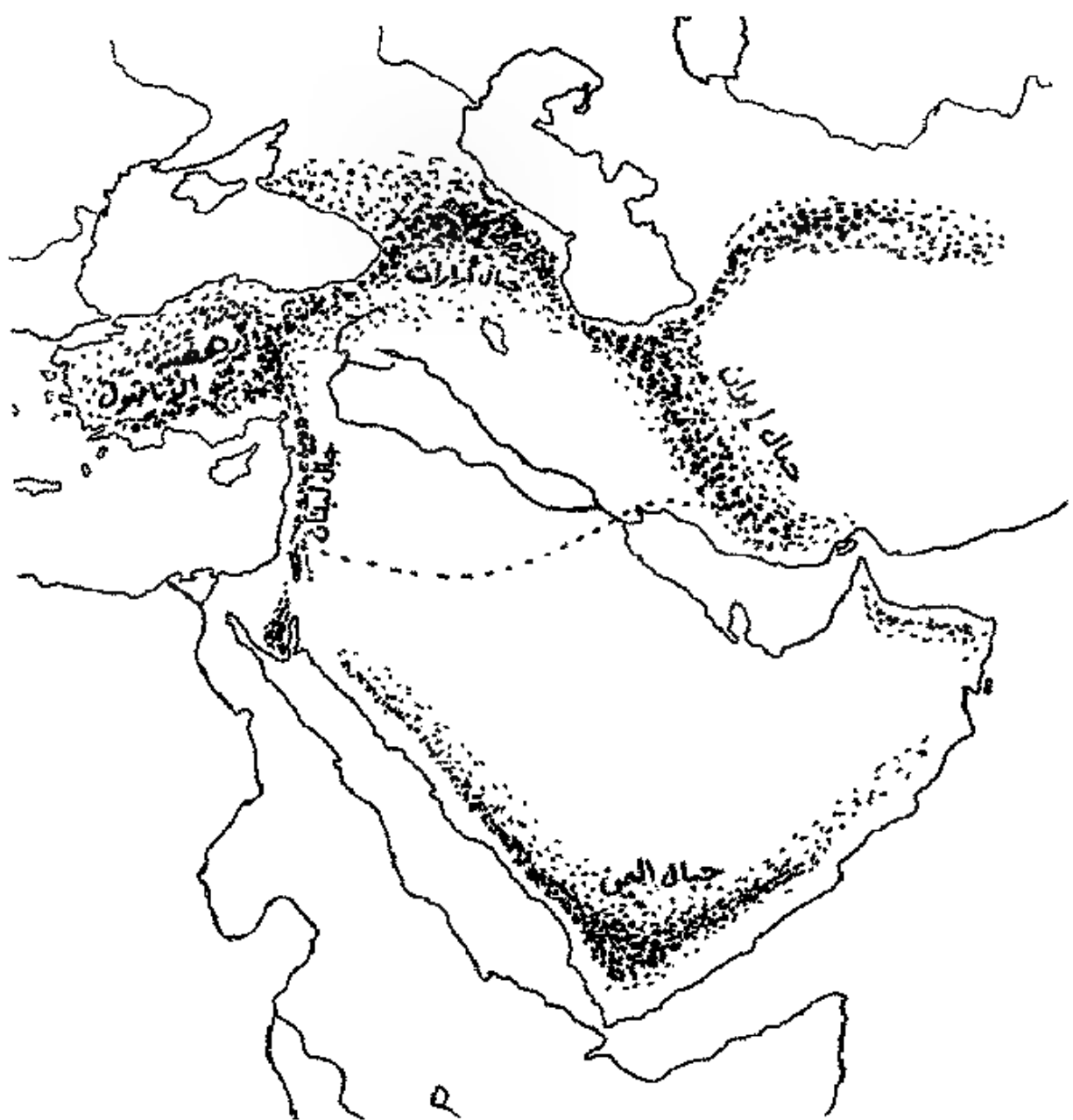
وأضيف أيضاً أن الماء الذي كَوَّن الفيضان كان ماء عذباً . من مطر السماء وعيون الأرض . والأحياء التي وجدت بقاياها على قمم الجبال كانت بقايا لحياة بحرية لا تعيش إلا في المياه المالحة . والأرجح أن تلك الرواسب إنما حدثت في عصور قديمة ارتفع فيها سطح الماء في البحار والمحيطات فغطى أجزاء كبيرة من اليابسة . ثم انخفض سطح البحر في العصور الجليدية ، فتكشفت الأرض وما بها من رواسب . وعلماء الجيولوجيا يقولون بنكرار ذلك عدة مرات . وهذا يفسر وجود تلك الرواسب في عدة طبقات تمثل فترات ما بين العصور الجليدية .

ولو قيل إن الطوفان كان عاماً ، شمل اليابسة والبحار ، فاختلطت مياه المحيطات بالمياه العذبة وانتقلت إليها الأحياء البحرية . وأحدث ذلك لأصبحت الأراضي الزراعية مالحة لا تصلح للزراعة بعد الطوفان وهذا ما لم يحدث إذ تم إعمار الأرض وزراعتها بطريقة عادية بعد الطوفان .

لعل القائلين بعمومية الطوفان يظنون أن عموميته معجزة أكبر من كونه خاصاً .

ونقول إن الصيحة التي أهلك بها قوم صالح كان من الممكن أن تبلغ كل أنحاء الأرض وتهلك الناس جميعاً . إلا أن الله جعلها قاصرة على الكذابين من قوم صالح أما المؤمنون، ولم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً فقد حماهم الله من الأثر المهلك لهذه الصيحة وهذا في حد ذاته معجزة أخرى .

كذلك فإن خصوصية الطوفان لا تقل إعجازاً عن عموميته . فإن ماء الطوفان، وقد ارتفع فوق قمم الجبال بخمسة عشر ذراعاً وفي قول آخر بثمانين ذراعاً في المنطقة التي كان بها قوم نوح - وهي شمال العراق - وهي أصلاً مرتفعة كثيراً عن جنوبيه بدليل جريان ماء دجلة والغرات من الشمال إلى الجنوب باندفاع شديد - ولو نظرنا إلى الخريطة شكل ٢٧ لتبين لنا أن الماء كان حرياً أن يغطي صحراء الجزيرة العربية كلها . ولو أخذنا بخصوصية الطوفان فلا بد



شكل ٢٧ - المناطق التي أغرقها الطوفان .
 المنطقة شمال خط النقط أفرقتها الطوفان
 - المناطق جنوب الخط قد تكون لم يشملها الفرق .

أن حافة المياه ناحية صحراء الشام وصحراء الجزيرة العربية كانت كالطود العظيم . بحيث أنها لم تغرق هذه الأمكنة - بدلاً من ذهاب المفسرين إلى أن التيب المعمور بمكة رفع على جبل أبي قبيس - كما جاء في الطبري - أو كما في قول آخر - أن الله أمر جبريل برفع الكعبة إلى السماء الرابعة ، وخبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس . ويرى آخرون أن البت لم تكن مبنياً قبل أيام إبراهيم عليه السلام . وأن الروايات التي قالت بأن آدم قد نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا لآدم قد طغنا قبلك بهذا البيت . أو أن السفينة قد طافت به ودارت بالحرم آسبوعاً أو أربعين يوماً . فهي كلها مبالغات وخيالات ، ولعلها مأخوذة عن بني إسرائيل . ومع هذا فيحتمل أن يكون الطوفان قد شمل الجزيرة العربية ، مع كل المناطق المحصورة بين الجبال الموضحة على الخريطة السابق الإشارة إليها .

وأضيف أيضاً ، أن وجود عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً ، في بعض القبائل في أطراف الجزيرة العربية في فترة وجيزة بعد الطوفان - فقد وجد في دولة معين في اليمن تمثال ود - يدل على أن عبادة هذه الأصنام قد انتقلت من قوم نوح إلى البلدان عن طريق قوافل التجارة . ولما حدث الطوفان في العراق إندرثت عبادة هذه الأصنام (ود وسواع ...) . ويقاؤها في هذه القبائل العربية بعد الطوفان بفترة وجيزة تدل على أن الطوفان لم يشملها . إذ لو كان عاماً شمل كل الكرة الأرضية لزال عبادة هذه الأصنام أيضاً من اليمن . ومن غير المعقول أن تنشأ عبادة أصنام بنفس الأسماء القديمة من جديد بهذه الأماكن وفي فترة زمنية وجيزة .

كذلك فإن شمال العراق لم يكن به الأفيال ولا الجمل نوال السنامين ولا الزرافة ولا الكنغر . وبالطبع لم يحمل نوح معه أيأ منها في السفينة . فلو أن الطوفان قد عم جميع أنحاء الكرة الأرضية وبادت جميع الحيوانات إلا التي حملها نوح معه - فمن أين وجد الفيل الحالي وأغیره من الحيوانات السابق ذكرها وغيرها . ومن غير المعقول أن العراق كان به جميع الحيوانات التي كانت موجودة على سطح الأرض ، فنحن نعلم أنها أنواع تقدر بمئات الآلاف وحتى لو فرض جدلاً وأنها وجدت في العراق لما اتسعت السفينة لهم جميعاً

كذلك يرى جماعة من أهل قارس والهند ، أن تاريخ الملوك عندهم يمتد في الماضي إلى تاريخ بعيدة - إلى ما قبل التاريخ المحدد لطوفان نوح . وأن عمرابهم متصل من أعمق أجيال إلى اليوم . كذلك فإن الأدب المصري القديم وهو نوح شك من أدق الآداب في تنوينه - لم يذكر شيئاً عن طوفان غمر أرض مصر ولا وجدت حفريات تدل عليه .

لهذا كله ، فمن المؤكد أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها . بل كان عاماً في المنطقة التي عاش فيها قوم نوح ، وبعض المناطق المجاورة ، أما باقي بقاع الأرض فلم يشملها الطوفان . وهذا لا يقلل من قدر المعجزة ، بل لعله يزيد من إعجازها !!

طوفان أم فيضان ؟

هناك اتجاه عند بعض المثقفين لإرجاع المعجزات لأسباب طبيعية تماماً . فمثلاً يقولون إن إنشقاق البحر لموسى عليه السلام كان بسبب موجة جزر شديدة كشفت قاع البحر . أعقبها موجة مد كبيرة أغرقت فرعون وجيشه .

وقالوا أيضاً إن ثمود أهلكوا بصاعقة كهربائية مثل ما نسمع عنه في الإذاعات - من صواعق حارقة (ص ١٧٠) .

وسأذكر هنا الرد فيما يتعلق بالطوفان أما المعجزات الأخرى فسيكون الرد عند ذكرها .

صحيح أن العراق كان يتعرض لفيضانات عالية ، من نهري دجلة والفرات ، تُغرق ضفتي النهر وتبيد مظاهر الحياة فيها . وليس ذلك «ضد» المعجزة كما قد يتوهم البعض ، بل بالعكس هو ما يؤيد الطوفان كمعجزة . فالمعروف أن المعجزات تكون مم برع فيه القوم ، وعرفوا أسرارهم . فإن معجزة موسى عليه السلام لم تكن نوعاً من السحر لأن القوم عرفوا السحر وخبروه ، وبرعوا فيه . حتى إنهم ليلقون حبالهم وعصيهم فيخيل للمشاهد أنها ثعابين تتلوى وتسعى ، وما هي في الحقيقة بذلك . لذلك لما ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هي تلقف وتلتصق بحبالهم أدركوا أن هذه هي المعجزة الحقيقية - وأمنوا برب موسى . ولو أجرى أحد هؤلاء السحرة لعبته هذه أمام أناس ليس عندهم خبرة بالسحر ، لظنوا أنه يأتي بمعجزة مؤيدة من الله عز وجل . ولأمنوا بما يدعو إليه من تآليه فرعون . وعلى ذلك فإن حدوث المعجزة من صنف ما خبره الناس دليل على خرق النواميس المعهودة وذلك لا يتم إلا بقدرته الله تعالى .

ولن أطيل أيضاً في شرح أن معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وهي القرآن الكريم كانت لقوم برعوا في اللغة واتقنوا شعرها ونثرها . فلما جاءهم القرآن الكريم قالوا عنه ما هو الشعر وما هو بالنثر . وأيقنوا أنه معجزة من الله رب العالمين

ولو جئنا لأهل مصر - وقد تعودوا على نهر النيل الذي يجري في أرضهم هادئاً سالماً إلا من بعض فيضانات عالية بعض الشيء - أقول لو جئنا لأهل مصر بفيضان كبير مثل فيضانات نهري دجلة والفرات أو المسيسيبي لاعتدوا أنها معجزة .

أما أهل العراق فهم قد خبروا الفيضانات العالية المدمرة لنهري دجلة والفرات . وما كان ليفوت عليهم الاختلاف الواضح بين هذه الفيضانات ومعجزة الطوفان

والفيضانات العالية تحدث عند هطول أسطار غزيرة على جبال منبع النهر ، أو عند نوبان الثلوج على قمم هذه الجبال . فيضيق مجرى النهر عن كمية المياه المتدفقة ، فتندفع المياه بشدة ، وتفيض على الجانبين وتمضي هادرة تكتسح في طريقها كل ما تصادفه . ففي فيضان نهر

يانجتسى فى الصين عام ١٩١١ . دمر مديناً وقرى ، وغطت مياهه آلاف الكيلومترات المربعة من الأراضى الزراعية وفقد خمسة عشر ألفاً من الناس أرواحهم

وفى عام ١٩٢٧ حدث أكبر فيضان فى وادى نهر المسيسيبى واكتسحت المياه الهادرة القرى والمدن ، واقتطعت الخطوط الحديدية ، وأطاحت بالكبارى المشيدة من الصليب . وما نحن نرى فى التليفزيون الفيضانات تدفع أمامها السيارات وتقلبها وترطمها بالصخور والأشجار .

فالفيضانات كلها عبارة عن مياه ضاقت عنها جوانب النهر ، فطغت على جوانبه وقمضى مندفعة متسارعة تكتسح أمامها كل مظاهر الحياة . وقد لا ترتفع مياه الفيضان إلا أمتاراً قليلة . إذ أن الصور التى أخذت لفيضان المسيسيبى وهو من أشد الفيضانات - تُرينا قمم الأشجار ومداحن المنازل التى لم تنهدم . إذ أن أثر الفيضانات المدمرة ينتج عن شدة إندفاع المياه

أما الطوفان فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً . أمطار غزيرة سقطت فى كل مكان كأنها أفواه القرب . ولم يقتصر سقوطها على جبال منبع النهر - بل على كل أرض العراق شماله ووسطه وجنوبه وكذلك المناطق المجاورة . وتفجرت الأرض عن ينابيع وعيون يندفع منها الماء بقوة . وترتفع المياه أمتاراً كثيرة حتى لتغمر الأماكن المرتفعة ثم تزيد المياه فتغطى سفوح الجبال ثم قممها وتعلو فوق قممها عدة أمتار . وليس هناك اندفاع المياه من الشمال إلى الجنوب كما فى مياه الفيضان شديدة الجريان - بل الماء فى كل مكان . صحيح أن الرياح قد تحدث أمواجاً عالية - وكما أخبر عنها القرآن الكريم «فى موج كالجبال» كما يحدث فى البحر أحياناً من أمواج عالية - ولكن ليس لها اندفاع مياه الفيضان

وما كانت سفينة نوح عليه السلام أو أى سفينة أخرى - لتصمد أمام اندفاع المياه لو كان ما حدث فيضاناً . فقد رأينا فى فيضان المسيسيبى وغيره من الأنهار ، كيف كانت المياه المندفعة تجرف السيارات وتقتلع الكبارى وتذفها بعيداً محطمة . وكان حرياً أن تدفع المياه السفينة أمامها لترطم بأى عائق وتتكرر أو تطيح بها فى الخليج أسفل النهر . ولكن مياه الطوفان ، كانت ترتفع تدريجياً ، فاحتملت السفينة وكلما ارتفعت المياه ارتفعت معها السفينة .

وتكتمل المعجزة بأن ترسو السفينة على الجوى ، وهو أحد جبال أراط فى أقصى شمال العراق . ويستحيل على فيضان أن يدفع سفينة فى عكس اتجاه مياهه .

وكان مكان رؤس السفينة فى أقصى الشمال كان مقدراً ليحضر أى تفكير فى أن ما حدث هو فيضان من فيضانات نهري دجلة والفرات . وأنه فقط فاقها فى الشدة .

وقد تبين بعض المستشرقين ما ترويه الأسطورة السومرية عن الطوفان ، من أن السفينة قد رست فى أرض دلمون وقالوا إن أرض دلمون هذه تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من بلاد

فارس - أى الجزء الشرقى من ساحل الخليج ، ومنهم من قال إنها فى منطقة وادى السند ، ومنهم من رأى أنها تقع فى جنوب غرب بابل - ومنهم من قال إنها تقع فى القسم الشرقى من جزيرة العرب ، أو قرب جزيرة البحرين الحالية . ولعلهم تبنا هذه المواقع لا عتقادهم فكرة عيضان دفع السفينة جنوباً ، فى حين أنهم لو قالوا يرسو السفينة على جبال أراراط لوجب إيمانهم بطوفان معجزة!! وهو ما لا يريدون الاعتراف به

أما عن الخلاف فى الإسم فى مرسى السفينة - حيث جاء القرآن الكريم « واستوت على الجودى » . (٤٤ - مود)

وجاء فى التوراة الصحاح الثانى .

واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط وحاول البعض إظهار تعارض بين النصين السابقين . وأراراط هى سلسلة جبال فى أرمينيا أو هى أرمينيا ذاتها كما جاءت فى المعجم العبرى . ومن هذا يفهم أن التوراة لم تسم مكاناً بعينه لرسو السفينة . بل حددت أنها رست فى أرمينية . وسلسلة الجبال تحتوى على عدد من القمم ، وقيل إن إحدى هذه القمم اسمه الجودى وهو الذى ورد بالقرآن الكريم فلا تعارض إذن بين النصين .

وبعضهم* حتى قال إن الجودى مشتق من الجُدْ - وهو يعنى شاطئ النهر أو ساحل البحر ومنه الميناء المشهور جُدْ بالملكة السعودية أى أن الجودى يعنى المرسى وليس إسم مكان بعينه وقوله تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » أى باسم الله حملها على الماء وباسم الله رسوها على الأرض أى على الشاطئ أى رسوها على الجودى وبالرجوع إلى القاموس المحيط نجد أن الجُدْ مشتقة من «جُدْ وجُدْدُ» - أما الجودى فهى مشتقة من «جود» وهو العطاء .

وعلى ذلك فالأرجح هو أن الجودى هو اسم قمة جبل فى سلسلة جبال أراراط فى أرمينيا شرق تركيا وشمال العراق .

الحفريات الأثرية والطوفان :

لسنا فى حاجة - بعد ما ورد فى القرآن الكريم عن الطوفان - لأدلة أثرية تثبت حدوث الطوفان . والحفريات التى قامت بها - ولا تزال تقوم بها - بعثات الآثار فى جنوب العراق

* الأستاذ رؤوف أبو سعدة .

ووسطه ، كشفت عن شواهد تدل على حدوث طوفان عظيم شمل هذه المناطق . كذلك عُثِرَ على ألواح بها كتابات تحكى قصة الطوفان العظيم - فى أكثر من مكان أُثِرَى ، وتختلف الروايات عن بعضها . فقد أدخلت عليها الخرافات ونسبها كل شعب إلى نفسه وزعم أن بطلها كان فرداً من أبنائه

وكان الاعتقاد السائد حتى أواخر القرن الماضى أن التوراة هى أقدم مصدر لقصة الطوفان . ولكن اكتشاف هذه الألواح والكتابات ، غير هذه الفكرة . فقد عُثِرَ فى عام ١٨٥٢ ميلادية على نسخة من رواية الطوفان البابلية ، وفى الفترة ما بين عامى ١٨٨٩ و ١٩٠٠م اكتشفت بعثة أمريكية اللوح الذى يحتوى على القصة السومرية للطوفان ، والتي يعتقد أنها كتبت فى عهد الملك الشهير حمورابى عام ١٨٠٠ ق م . ومن المؤكد أن القصة نفسها ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير . وبهذا اتضح أن هذه القصص أقدم من العصور التى دُوت فيها التوراة . وأن كتاب التوراة فى ذلك الوقت قد تأثروا بما جاء فى قصص الطوفان القديمة . فإضافوا - كثيراً من التفاصيل والمبالغات التى تصل إلى حدود خيالية - وأضافوها إلى القصة الحقيقية كما أنزلت على موسى عليه السلام ، فخلطوا بينها وبين ما جاء فى التوراة - وخاصة أن العهد القديم (التوراة) كما يقول هـ . ج ويلز ، قد جمع لأول فى بابل ، أثناء السبي ، ويُقدّم ، كثير من العلماء أدلة على تأثير الأدب البابلى فى التوراة . كما أن آخرين يرون أن التأثير بالأدب البابلى قد حدث قبل ذلك بكثير أثناء فترات اتصال الإسرائيليين بالآشوريين .

ثم جاء القرآن الكريم - ليقول قولة الحق فى هذا الصدد - وليرد القصة إلى أصلها الإيمانى ويتجاوز عن التفاصيل التى لا تخدم القضية الإيمانية ويركز الضوء على تكرار دعوة نوح عليه السلام لقومه ورفضهم دعوته وإيذائه ثم تحديه . فكام لا بد من طوفان يبيد هذه الطغمة الكافرة

وسأحاول فى الصفحات التالية ذكر ما وجد من آثار تدل على حدوث الطوفان العظيم وتلخيص ما كتب عنه من قصص* وما بينها من اختلافات .

١٠ - سبق أن ذكرنا أن قابيل وبعضاً من أبناء آدم هاجروا شرقاً ، حتى وصلوا جنوب العراق . حيث وجدوا الأرض الخصبة والصالحة للزراعة لوفرة المياه ، فاستقروا بها . وكان ذلك فى بلدة عبيد أو تل العبيد وسُميت الحضارة التى أنشأها حضارة العبيد . وقد وجدت من آثارهم أوانى فخارية ، وكانوا من المهارة بحث صنعوا بعضها رقيقاً للغاية ، وزود بعضها بمقابض . وزيدوا سطحها الخارجى بنقوش ملونة بألوان حمراء وسمرات تمثل طيوراً وحيوانات وأسماكاً .

* د . محمد يونس مهراڤ . د . عبد العزيز صالح .

وفى بلدة مجاورة - هى بلدة إريدو أنشئ معبد للمعبود «إنكى» وكانوا يبنون المعابد فوق مسطحات مرتفعة تسمى « زهورات » . وكانت هذه المنطقة من أرض العراق تتعرض لفيضان نهري دجلة والفرات ولعل ذلك هو السبب فى أنهم تخيلوا رباً للمياه العذبة هو المعبود إنكى كان يعبد فى إريدو وأور .

وقد عثر أحد الأثريين (سير ليونارد بولى) ، فى حفائره فى أور عام ١٩٢٩ على طبقة سميكة من الغرين السميك الذى يقدر بحوالى ثمانية أقدام - وستة عشر قدماً فى بعض المناطق - واعتبر ذلك دليلاً على حدوث الطوفان العظيم نظراً لكثافة تلك الطبقة وتقع فوق آثار تنتمى إلى عصر حضارة العبيد

٢ - كذلك سبق أن قلنا ، إن الهجرات واصلت سيرها شمالاً ، إلى بلدة أوروك وهى بلدة الوركاء الحالية وأنشأت حضارة الوركاء . وكان الأهاالى أيضاً وثنين ، وكانوا يقدسون « إنانا » أو « إن إن » ربة الزهرة ابنة المعبود « أنو » وزوجته . وكانت الأراضى الزراعية من الوفرة بحيث نشأت عدة قرى أخرى ، واتسع العمران اتساعاً نسبياً . وبنوا المعابد . وصوّر السحّاتون والرسامون كهنة معابدهم قصار الشعور وحليقي الشوارب واللحي

وفى الشمال نشأت بلدة كيش و شوروپاك . وفى هاتين البلدين وجدت طبقة غرينية سميكة تدل على طوفان كبير .

٣ - كذلك وجدت وثيقة تقول بأن الملكية نزلت من السماء فى بلدة إريدو وتذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا ثم جاء من بعدهم الطوفان الذى أغرق الأرض . وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى كيش ثم إلى أوروك

٤ - قصة الطوفان السومرية :

نبدأ بتصور لما حدث فى ذلك العصر البالغ فى القدم

بعد الطوفان انتشر أبناء نوح عليه السلام ، ومن ولد كنعان بن حام ابن يسمي الصميري Sumirari ومن المحتمل أن السومريون ينتسبون Sumerians إليه ومن ذريته ، وارتحلوا جنوباً حتى وصلوا إلى الجزء الأسفل من أراضى ما بين النهرين وكانت بالطبع خالية من السكان بفعل الطوفان فسكنوها ويمرور الزمن نسوا التوحيد الذى أتى به نوح عليه السلام ، وتخيل السومريون أرباباً وصوروهم على هيئة بشرية بلحي كثة ممشطة وشعور طويلة معقوفة من

الحلف ، وشيدوا لها المعابد وكانت بداية الأسرات السومرية حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد .
وتقدمت حضارتهم ، وفي أول الأمر استخدموا الصور في كتاباتهم (شأنهم في ذلك شأن الكتابة
المصرية القديمة في بداية ظهورها) فكان رسم الذراع يعبر عن القوة ورسم القدم يعبر عن
المشي ، وقطورت الكتابة وتم تبسيطها وكانوا يكتبونها في أنهر رأسية يفصل كل نهر منها
وأخر خط رأسى . وكانت الحروف على هيئة خطوط طولية لها رأس في أعلاها يختلف
 باختلاف الحرف وكانت في شكلها العام تشبه المسامير لذلك سميت بالكتابة المسمارية كما أنها
كانت تكتب على ألواح من الطين بقلم مثل المسامير . وكانت اللوحات الهامة منها تحرق في
الأفران ، لزيادة صلابتها وحفظها . ثم بدأت تظهر الكتابة على الحجر في بعض الجهات .

وقد وجد لوح به كتابة تشير إلى حدوث طوفان عظيم ، ولكنها ممزوجة بأسطورة عن الآلهة
التي كانت تعبد آنذاك .

وحتى هذا اللوح قد فقدت منه المقدمة ولم يبق منه إلا ثلثه الأخير مكتوباً في مائة سطر
تتخللها أجزاء كثيرة ممسوحة -- إلا أن ما تبقى يقدم لنا الخطوط الرئيسية للقصة السومرية
عن الطوفان كما يلي .

تبدأ أسطورة الطوفان السومرية بقرار الآلهة إهلاك البشر فتقول على لسان كبير الآلهة .
إن البشر عيادي ، وعن الهلاك المحيق بهم سأعمل ، سأعيد مخلوقاتي ، أما المدن فحقاً سوف
ييسون فيها لأنفسهم أماكن للشرائع الإلهية . وسأجعل ظلالها في سلام ، وأما عن بيوتنا (أى
بور العبادة) فسوف يضعون أجراها في أماكن ظاهرة ثم تذكر القصة بدء الخليقة ، بأن الآلهة
« أنو » و« إنليل » و« إنكي » و« نينهورساج » قد خلقوا البشر . ثم ازدهر الزرع في الأرض
وأخرجت الآلهة الحيوانات ومخلوقات السهول ثوات الأربع إلى الوجود . ثم أنزلت الملكية من
السماء وأنزل الإله تيارا المعظم عرش الملك من السماء . أكمل الشعائر والشرائع الإلهية .
وأسس المدن الخمس وهي إريدو - بادتيبيرا - سيبار - لارك - شوروياك (هذه المدن الخمس
تقع في النصف الجنوبي من أراضي ما بين النهرين - انظر الخريطة شكل ٢٨) .

ثم كان قرار الآلهة باغراق البشر بالطوفان فبكت « نينتو » وناحت « إنانا » الطاهرة من
أجل أناسها ثم قام الملك زيوسودرا وبني معبداً ضخماً للآلهة - وظل واقفاً عليه متواضعاً في
احترام حاضراً كل يوم ناطقاً اسم الإله الأكبر . فسمع من يقول له : قف عند الحائط . إلى
جانبي الأيسر وعند الحائط سوف ألقى إليك كلمتي . اسمع إلى تعليماتي بقضائنا طوفاناً
سوف يكتسح المدن ويقضى على بذرة الشر . ذلك قرار . إنها كلمة مجلس الآلهة بناء على الكلمة
التي أمر بها « أنو » و« إنليل » . ثم عدة أسطر مهشمة لا يدرك فيها أمر الآلهة لـ زيوسودرا
ببناء سفينة هائلة ليأخذ فيها البشر الذين قررت الآلهة نجاتهم . وكذلك الحيوانات - وطريقة



شكل ٢٨ - بعض المدن التي وجدت بها حفريات أو قصص عن الطوفان

بناء السفينة وأبعادها . فقد كان عدد السطور المهشمة يبلغ ٤٠ سطراً . ثم تقول بعد ذلك : وهبت جميع الزوايا بعنف وضراوة كقوة واحدة . بعد ذلك لمدة سبعة أيام وسبعة ليال اكتسح الطوفان الأرض فيها ، وتقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه الضخمة . واكتسح الطوفان كل شيء حتى مراكز العبادة .

وعن انتهاء الطوفان تقول . وظهر «أوتو» الذى يضىء السماء والأرض . وفتح زيوسودرا نافذة الفلك العظيم فأنفذ أوتو أشعته فى الفلك العظيم . وتنادى « أنو » و « إنليل » نسمة السماء ونسمة الأرض فبسطت نفسها . ورسيت السفينة فى أرض ملون وضحى الملك بفحل وشاه .. وسجد زيوسودرا أمام « أنو » و « إنليل » ورضى « أنو » و « إنليل » عن زيوسودرا الملك الذى حافظ على الزرع وبذرة البشر . وبنى معبداً ضخماً للرب . ثم تذكر الأسطورة كيف نفثت الآلهة روح الخلود فى زيوسودرا .

ه - كذلك كان من أبناء كنعان بن حام بن نوح ولد اسمه الامورى ومن المرجح أن الاموريين ينتسبون إليه ومن ذريته . وقد استوطنوا الجزء الأوسط من أرض العراق واتخذوا عاصمتهم فى بابل . ثم انتقلت العاصمة فى العصر الأشورى إلى نينوى . وقد عثر فى مكتبة آشوربانيبال الشهيرة فى نينوى على نسخة من ملحمة جلجاميش .

وكذلك وجد أحد العلماء (سيدنى سميث) على الملحمة مكتوبة على ١٢ لوحاً ، ويحتوى اللوح الحادى عشر على قصة الطوفان .

وجلجاميش هو خامس ملوك مدينة الوركاء فى العصر السومرى ، وكان يحكم فى تاريخ يقرب من ٢٧٠٠ ق . م .

وقد اشتهر جلجاميش فى آداب العراق القديم . وصار موضوعاً لعدة ملاحم سومرية وبابلية أشهرها قصة الطوفان . وإن كان الطوفان لم يحدث لجلجاميش نفسه . بل إن جده أوتنابيشتم أخبره عنه . والقصة هكذا :

كان جلجاميش ملكاً حكيماً واسع المعرفة شجاعاً جريئاً ، لكنه كان ظالماً مستبداً . ومن ثم فإن الآلهة خلقت له « إنكيكو » ليدافع عن الناس ضد ظلمه . وظل الصراع محتدماً ثم تم الصلح بينهما . ثم مات إنكيكو فجأة فحزن جلجاميش لفقده . وظل خائفاً يترقب الموت أيضاً . ثم بدأ يفكر فى وسيلة يتقى بها عائلة الموت وبدأ يبحث عن جده أوتنابيشتم - الذى كانت الآلهة قد رفعتة إلى مصافها وجعلته يسكن بعيداً - متمتعاً بنعمة الخلود . ويتحمل جلجاميش الصعاب والمخاطر والأهوال . ثم يعبر بحرراً مترامياً الأطراف ، حتى يصل إلى جده أوتنابيشتم الذى أطلعه على السر الذى استحق من أجله الخلود فقال

انتوت الآلهة إحداث الطوفان - وكان من بينهم «أتو» و«إنليل» و«نينورتا» و«إيتوجي» و«نينجيكو» أيا «ثم نادى الآلهة على أوتنايشتم وأمرأته . اهدم هذا البيت (بيته) وابن فلكتاً . دع الأملاك وانتقذ حياتك . اهجرت المتاع ودع الروح حية وأحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حى . والفلك التى ستبينها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس مرضها مثل طولها وأجعل لها سقفاً . ففهمت . وقلت . نعم يا مولاي . إن ما تأمر به يشرفنى أن أفعله .

وفى اليوم الخامس أقيمت السفينة وكانت أرضيتها فداناً كاملاً وكان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعاً وطول كل ضلع من السطح ١٢٠ ذراعاً وبنيت هيكل جواربها وربطتها إلى بعضها . وجعلت فيها ستة أسطح . قسمتها إلى سبعة طوابق . وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء . ودققت سدادات المياه بها . وجعلتها بما تحتاج إليه من مؤن . وصبت فى القرن ٦ سار (السار ٨٠٠ جالون) من القار و٢ سار من الأسفلت و٢ سار من الزيت . وبحث ثيراناً للناس ونحرت ماشية كل يوم . وأعطيت العمال عصير فواكه ونببذاً أحمر وآخر أبيض .

واكتمل الفلك فى اليوم السابع . وكان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة . وحملت بكل ما عندى من فضة وذهب . وكل ما أملك من الكائنات الحية . وكل عائلتى ونوى قريائى . أركبتهم الفلك . وكذلك حيوان الحقل ووحوش الحقل . وقد حدد لى الإله وقتاً معيناً

وجاء اليوم الموعد وأنزل الموكل بالزوابع ليلاً مطراً مهلكاً وأخذت أرقب وجه السماء . وكان منظر العاصفة مخيفاً يثير الرعب . فصعدت إلى الفلك . وأوصدت بابه . ومع انبثاق الفجر ظهرت فى السماء غمامة سوداء . وأرعد «أداد» فى داخلها . ونزع «إيرجال» (إله العالم السفلى) الأعمدة الخاصة بسد العالم . وجاءت «نينورتا» (إلهة مياه الأعماق) وجعلت السدود تفيض . وهبت عاصفة الجنوب . وأحال «إداد» النور ظلمة . فلا يرى الأخ أخاه وخشى الآلهة من الطوفان فأجفلوا . وصعدوا إلى سماء «أتو» (وهى أعلى سماء) حيث ربحوا على الأسوار الخارجية . وصرخت «عشتار» وكأنها امرأة جالها المخاض . وناحت سيده الآلهة بصوت عال : واحسرتاه لأنى لعنت الناس فى مجمع الآلهة . ولكن كيف ألعن الناس فى مجلس الآلهة . وأعلن حرباً لفناء الناس بينما أنا التى وهبتهم الحياة وبكى «أنوناكى» معها . وجلس الآلهة جميعاً يبكون فى ذلة وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض .

واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليالى . وفى اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التى شقتها . وهدأ البحر . وسكنت العاصفة . وتوقف الطوفان . وتطلعت إلى الجو . فإذا السكون شامل . ففتحت كوة وسقط الضوء على وجهى . واستوت الفلك على جبل نيسير . وأمسك جبل نيسير بالفلك ولم يدعها تتحرك ستة أيام . وفى اليوم السابع أطلقت حمامة فذهبت وعادت . وعز عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه . ثم أطلقت غراباً فذهب

ورأى الماء يتناقص ، فاكل وعب ودار ولم يعد . فاطلقت الجميع .

وضحيث ، ونصبت أربعة قدور ، وعليها كومت القصب وخشب الأرز والاس . فشمت الآلهة الرائحة الزكية وتكاثرات حول الأضاحي . وعندما وصلت سيدة الآلهة « عشتار » قالت: أيتها الآلهة سوف أنكر هذه الأيام ولن أنساها . ليتقدم الآلهة إلى القريان إلى « إنليل » فإنه لا يتقدم لأنه أحدث الطوفان دون روية . وقاد شعبي إلى التهلكة . وقال نينورتا لإنليل أنت يا أحكم الآلهة كيف تحدث الطوفان دون روية . ليت أسداً هب وقلل من بنى الإنسان بدلاً من إحداث الطوفان . ليت سحابة هبت وقللت من بنى الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان . ليت طاعوناً هب وقلل من بنى الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان!!

وعندئذ صعد « إنليل » إلى ظهر السفين وأمسك بيدي ، وأخذ زوجته وجعلها تركع بجانبه ، ووقف بيننا ليباركنا وقال : لم يعد أوتنايبشتم بشرأ س يكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب وعلى ذلك أخذوني بعيداً وأسكنوني بعيداً عند مصب الأنهار .

٥ - قصة الطوفان البابلية :

كتب بيروسوس ، أحد كهنة الإله مردوخ ، تاريخ بلاده (العراق) ، باللغة اليونانية في ثلاثة أجزاء منذ بدء الخليقة حتى أيامه - وكان ذلك في عهد الملك البابلي أنتيوخوس الأول (٢٨٠ - ٢٦١ ق م) وقد ضاع ذلك الكتاب ، وإنما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه كُتَّاب عاشوا في القرن الأول قبل الميلاد .

وقد قسَّم تاريخ العراق إلى: دول قبل الطوفان وعدد ملوكها ١٠ وكانت سنو حكمهم ٤٣٢٠٠٠ سنة ودول بعد الطوفان وعدد ملوكها ٨٦ حكمت لمدة ٢٤٠٨٠ سنة ثم ذكر دولة مادي ودولة الكلدان ، ثم دولة حمورابي ثم دولة الآشوريين .

وقد انتقد المؤرخون القسم الأول من هذا الجدول لما فيه من مبالغات خرافية في طول سني الحكم وفي رأينا أن تصحيحه يكون على النحو التالي

دول قبل الطوفان عدد الملوك ١٠ سنو الحكم ٤٣٢٠ المتوسط ٤٣٢ .

دول بعد الطوفان عدد الملوك ٨٦ سنو الحكم ٢٤٠٨٠ المتوسط ٢٩٦ .

فيكون متوسط سني الحكم في حدود المعقول بالنسبة لأعمار الناس في ذلك الزمان .

وما يهمنا هنا هو إقراره بوجود طوفان . ولابد أنه كان طوفاناً عظيماً بحيث قسم تاريخ بلاده إلى دول قبله ودول بعده .

وتقول قصة الطوفان البابلية إن الملك إكسيسموثروس رأى أن الإله « كروتوس » يحذره من طوفان ، سوف يغمر الأرض ، ويهلك الحرث والنسل ، ومن ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها وأن يدفن ما يكتبه في مدينة سبيار بلد الشمس حتى لا يضيع في الطوفان الذي سيدمر كل شيء .

كما أمره أن يبني فلكا . ويصدع الملك بأمر إلهه ويبني فلكا طوله ١٢٠٠ ياردة وعرضه ٤٤٠ ياردة . يجمع فيه كل أقربائه وأصحابه ، ويختزن فيه زاداً من اللحم والشراب . فضلاً عن الكائنات الحية من الطيور ودوات الأربع .

ويغرق الطوفان الأرض . ثم تبدأ المياه في الانحسار ويطلق الملك سراح بعض الطيور التي تعود إليه ثانية ثم يطلقها بعد أيام ، فإذا بها تعود وأرجلها ملوثة بالطين . وحين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك . ويعلم الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض . وتستقر السفينة عند جبل تخبره الآلهة أنها أرض أرمينيا . وينزل الملك وزوجته ، ويسجد للآلهة ويقدم لها القرابين . وتختاره الآلهة لكي يسكن إلى جوارها .

٦ - اكتُشف في مدينة تيبور أثناء عمليات حفر - رواية مكتوبة على كسرة من الفخار يرجع تاريخها إلى عام ٢١٠٠ ق . م . وجاء فيها ، أن الإله ظهر لينذع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشري ، وطلب من شخص بعينه أن يبني فلكا ذا سقف قوى لينجو بحياته وأن يأخذ معه صنوف الحيوانات الأليفة وطيور السماء .

٧ - وجدت قصة الطوفان أيضاً مكتوبة على لوح مهشم في مدينة سبيار . ويرجع تاريخ الكتابة إلى العام ١٩٦٦ ق . م . تقريباً . وفيها إشارة إلى المطر الغزير وإلى السفينة التي أمر الملك في شوريك ببنائها وإلى الأفراد الذين انقذوا من الطوفان بواسطة الفلك .

وأضح مما سبق أن جميع هذه القصص مستقاة مما حدث لنوح عليه السلام : طوفان عظيم أغرق الكافرين والمكذبين وسفينة عظيمة نجا بها نوح والمؤمنون ، وأخذ فيها الحيوانات والطيور التي كانت في هذه المنطقة .

وعندما انتشر أبناء نوح في الأرض بعد الطوفان أسسوا قبائل ومدناً وممالك . وراحت كل دولة تتسج قصة طوفان خاص بها ، وتنسب الأحداث إلى آلهتها وإلى بطل من أبطالها . وهكذا ظهرت هذه الروايات المختلفة عن الطوفان ومالت أدب هذه المنطقة في ذلك الوقت

وجاء موسى عليه السلام فيما بعد - وأنزلت عليه التوراة ، ولا بد أن نزل بها ما يُنقى قصة الطوفان مما شابها من خرافات وزيادات ، وحيثما دُمر الهيكل ، ضاعت التوراة الأصلية ، وأعاد اليهود كتابتها في أثناء السبي البابلي متأثرين بما قرأوه في الأدب السومري والبابلي من الطوفان ، فجاءت قصة الطوفان في التوراة مزيجاً من الحقيقة والأساطير التي تضمنتها الرواية السومرية والبابلية عن الطوفان .

٨ - قصة الطوفان كما جاءت في التوراة :

سنذكر هنا قصة الطوفان كما وردت في العهد القديم وهو التوراة - الإصحاح ٦، ٧، ٨ - تكوين

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه فقال الرب ، امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقت ، الإنسان مع بهائم وطيور السماء ، لأنني حزنت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب ، فقال الله لنوح ، نهاية كل بشر قد أتت أمامي ، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم ، فها أنا مهلكهم مع الأرض ، اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر . تجعل الفلك مساكن ، وتظليه من داخل ومن خارج بالقار ، وهكذا تصنعه ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه ، وتصنع كوا (نافذة) للفلك ، وتكمله إلى حد ذراع من فوق ، وتضع باب الفلك في جانبه ، مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله . فها أنا أت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذئب جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستيفائها معك . تكون ذكراً وأنثى ، من الطيور كجناسها ومن البهائم كجناسها ومن كل دبابات الأرض كجناسها ، اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها . وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك ، فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله ، هكذا فعل .

الإصحاح السابع (مع بعض الاختصار) : وقال الرب لنوح ، ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك . لأنى إياك رأيت باراً لدى من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى . ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء أيضاً سبعة ذكراً وأنثى . ومن كل ما يدب على الأرض تدخل اثنان اثنان إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً .

وحدث بعد السبعة أيام الأولى أن مياه الطوفان صارت على الأرض . وانفجرت كل ينابيع الفجر العظيم ، وانفتحت طاقات السماء . وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، في

ذلك اليوم مينة دخل نوح وسام وحام وياقث بنو نوح وامرأة نوح وثلث نساء بنيه معهم إلى الفلك . هم وكل الوحوش كأجناسها ، وكل البهائم كأجناسها . وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها . كل عصفور كل ذى جناح . ودخلت إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذى جسد كما أمره الله . وأغلق الرب عليه .

نلاحظ هنا الاستطراد والتكرار في بيان أشتاف الحيوانات في حين أجمل القرآن الكريم ذلك كله في قوله تعالى : « وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » .

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض وتعاضمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض . فكان الفلك يسير على وجه المياه وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض . فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه . فتغطت الجبال . قimat كل ذى جسد كان يدب على الأرض ، من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء . فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاضمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً .

الإصحاح الثامن . ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك . وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . وانسدبت ينابيع الغمر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء ، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً . وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرام . وكانت المياه تنقص بقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وتطيل التوراة في كيفية التاكيد من انتهاء الطوفان وأن اليابسة قد جفت وأصبح من الممكن النزول من السفينة فتقول : وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طابقة الفلك التي كان عملها . وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت إلى الفلك لأن مياهها كانت على وجه الأرض . فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض . فلبث سبعة أيام أخر وأرسل

الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً ، وكان في السنة الواحدة والست مائة في الشهر الأول في أول الشهر أن الحياة نشفت من الأرض ، فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد كشف . وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض ، وكلم الله نوحاً قائلاً ، اخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بيتك معك ، وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد ، الطيور والبهائم وكل الدبابات التي يدب على الأرض اخرجها معك ، ولتولد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض ، فخرج نوح وبنوه وامراته ونساء بيته معه ، وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كائناتها خرجت من الفلك

وسبق أن أشرنا إلى أن القرآن الكريم قد اختصر ذلك كله في قوله تعالى

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِط بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » .

(٤٨ - هود)

وتستمر التوراة فتقول :

وبني نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حدثته . ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت . مدة كل أيام الأرض ، زرع وحصاد ، برد وجحر ، وصيف وشتاء ، ونهار وليل لا تزال .

وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم اثمروا وأكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبنتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء . مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع . غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه . . . فاثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها .

وتختتم التوراة قصة الطوفان بحكاية الميثاق الذي أخذه الرب على نفسه بعدم تكرار الطوفان . وهو ما سبق ذكره في ص ١٠٧

ونلاحظ في سرد التوراة لقصة الطوفان تفاصيل كثيرة تتشابه مع ماورد بقصة الطوفان في ملحمة جلجاميش . نذكر منها .

— سبب الطوفان رغبة الآلهة وليس تكذيب قوم لتبيهم .

— أبعاد السفينة وتحديد لها بالأذرع .

— طلي السفينة بالقار .

- إرسال الحمامة والغراب عدة مرات للتأكد من صلاح الثيابسة للنزول .
- إقامة مذبج الرب .
- إرتياح الآلهة ورضا الرب عند تنسّم رائحة القرايين والدخان المتصاعد من المحرقات .
- ونحن نُزّه الله سبحانه وتعالى عن ذلك . ويرد القرآن الكريم زعمهم هذا : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » . (من ٣٧ - الحج)

أخبار عن نوح عليه السلام :

- ونختتم قصة الطوفان ونوح عليه السلام بأخبار عن نوح نفسه
- قال الله عنه « إنه كان عبداً شكوراً » . (من الآية ٢ - الإسراء)
- قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه وإبائه وشأنه كله . والشكر شيمة عباد الله الصالحين . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة ، عن سعيد بن أبي يردة ، عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يتكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .
- وقال ابن ماجه عن صيام نوح عليه السلام : حدثنا سهل بن أبي سهل ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن أبي لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة ، عن أبي فراس ، أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » .
- وقال الطبراني عن آخرين أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى » . وصام داوود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر »
- وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبي عن زمعة وهو ابن أبي صالح عن مسلمة بن دهران ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أتى وادي عسفان قال : يا أبا بكر ، أي واد هذا؟ قال هذا وادي عسفان قال لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران (النوق الفتية) لهم حمر خطمهم الليف أزهرم العباء ، وأرديتهم النمار (يرود من صوف) يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير فيه غرابة .

ولعل غرابته هي في أن البيت الحرام بمكة لم يكن قد بنى بعد في عهد نوح عليه السلام .
وقال الإمام أحمد عن آخرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نبي الله نوحاً
عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك وصية ، أَمرك باثنتين وأنهاك عن
اثنتين ، أَمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ،
ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين
السبع كن حلقة مبهمة ، ضمنهن لا إله إلا الله وسبحان الله ويحمده فإن بها صلوات كل شيء
وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر . يقول ابن كثير ، وإسناده صحيح ورواه أبو
القاسم الطبراني عن طريق آخر . وكذلك رواه أبو بكر البزار عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
ويقول أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ٦٠٠ سنة وعاش نوح
بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فكانت كل أيام نوح ٩٥٠ سنة

بعضهم يرى أن قول القرآن الكريم « فليث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً » .

(١٤ : التكوين)

تعني أن هذه المدة كلها كانت قبل الطوفان .

وفي حديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . مكث نوح ، عليه السلام في قومه
ألف سنة إلا خمسين عاماً وعرس مائة سنة الشجر ثم جعلها سفينة . . . فإذا كان هذا
الحديث صحيحاً فإنه يجعل أيام نوح كلها ٩٥٠ عاماً قبل الطوفان + ٣٠٠ عام بعد الطوفان
فيكون كل عمره ١٢٥٠ سنة

وبعضهم قال عن ابن عباس أن نوحاً بعث وعمره ٤٨٠ سنة وبعث بدعو قومه ٩٥٠ سنة
وعاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فيكون كل عمره ١٢٨٠ سنة .

ولعل في هذا مبالغة والأرجح أن قوله تعالى : فليث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً . تشمل
الفترة قبل البعثة وبعدها وقبل الطوفان وبعده أي كل عمره هو ٩٥٠ سنة .

وأما قبره عليه السلام فبعضهم قال ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد
بنى بسبب ذلك . وادعى ابن جرير والإزتي عن عبد الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين
مرسلاً ، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . ويضعف هذا القول أن المسجد الحرام لم
يكن قد بنى في أيام نوح عليه السلام .

أبناء نوح عليه السلام

ينهاية قصة نوح عليه السلام . تقفز كل كتب قصص الانبياء إلى قصة هود عليه السلام . كقصة منفصلة ، ولا تذكر شيئاً عن الرابطة بينهما . لا جغرافياً ولا تاريخياً ولا كيف وصل الناس من مكان إقامتهم بعد الطوفان إلى المكان الذي وُجد به قوم هود . مع أن تاريخ البشرية حلقات متصلة ، تتبع بعضها بعضاً . لهذا كان من الواجب إضافة هذا الباب عن أبناء نوح ، يربط بين نوح وهود وصالح عليهم السلام . كما سبق أن أدرجنا باباً عن أبناء آدم ، ربط بين آدم وإدريس عليهما السلام .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب ألیم . »
(٤٨ - هود)

« وجعلنا ذريته هم الباقين . »
(٧٧ - الصافات)

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام . وأن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقباً باقياً ، غير أبنائه الثلاثة سام وحام وياث وبناتهم ، فإنهم بقوا متناسلين حتى ملأوا الأرض . ويوافقني ذلك كثيرون ويرون أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل له آدم الثاني .

والرأي عندي أنه - وقد قِيلَ أن الطوفان كان خاصاً ، وقد عمَّ العراق والشام وساحل البحر المتوسط أي مكان فلسطين ولبنان حالياً . وشمل أيضاً جزءاً من أوكل الجزيرة العربية - فإن باقى بقاع الأرض لم يغمرها الطوفان وظلت عامرة بسكانها . ومن هذه الأماكن المؤكدة مصر وقارس والهند وقد سبق الإشارة إلى أن تسجيل هاتين الدولتين لتاريخهما لم يتبين منه طوفان غمرهما . وكذلك فإن وسط وجنوب شرق آسيا ظل بها سكانها الأصليون المنحدرون أصلاً من نسل قابيل .

إلا أنه بعد الطوفان ، إنتشر أبناء سام وحام وياث في كل جهات الأرض . وحتى الأماكن التي وجدوا بها أقواماً ، فإنهم امتزجوا بهم وأصبح الكل ينسب إلى أسماء أبناء نوح الثلاثة . سام وحام وياث

تقول التوراة (إصحاح تاسع - تكوين) وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم : أنثروا وأكثروا
وأملأوا الأرض.. وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك هم سام وحام ويافث ومن هؤلاء
تشعبت قبائل في أنحاء الأرض . (وتبين أشكال ٣٠، ٢٩ ، أسماء أبنائهم حسب ما جاء في
التوراة).

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة
رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم ،
ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي ، عن يزيد بن زريع ، عن سعيد وهو ابن هريفة ، عن
قتادة.

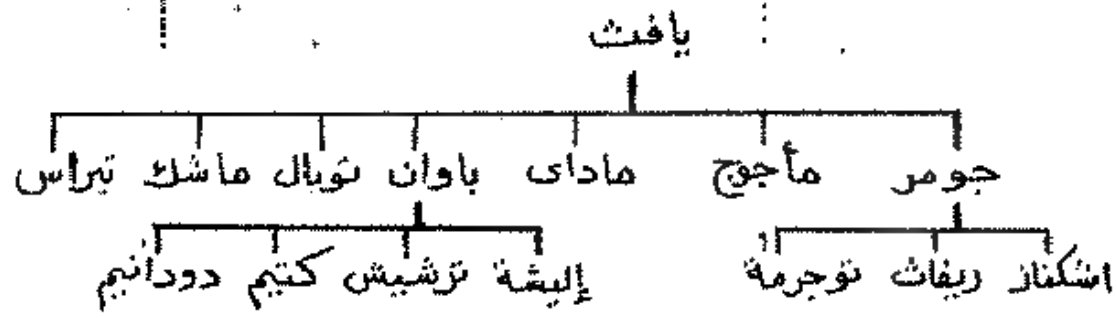
وقد روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ مثله . ويقول ابن كثير ،
والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي ابن ليطي ابن يوفان ابن يافث
بن نوح عليه السلام.

ثم روى من حديث اسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال :
ولد نوح عليه السلام ثلاثة : سام وحام ويافث ، ولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة : فولد سام
العرب وفارس والروم ، ولد يافث الترك والصقالبة وماجوج وماجوج ، ولد حام القبط والسودان
والبربر.

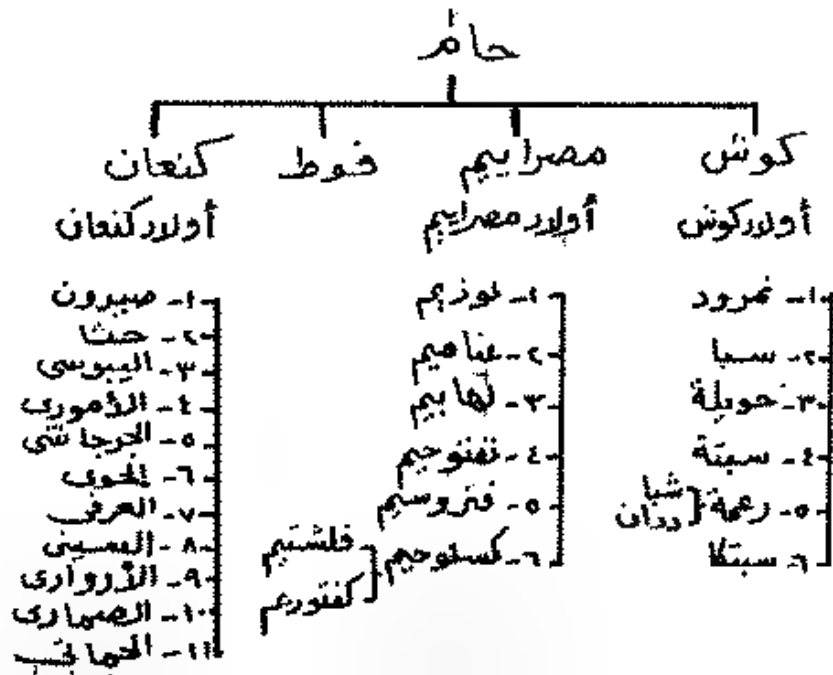
وأخرج ابن مروية عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه . وأخرج اليزار وابن أبي حاتم والخطيب
قال . قال رسول الله ﷺ : ولد نوح ثلاثة ، سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم
والخير فيهم . ولد يافث الترك والصقالبة وماجوج وماجوج ولاخير فيهم . ولد حام القبط
والسودان.

والإختلاف الوحيد في هذه الأحاديث الثلاثة هو في وضع الروم . هل هم من نسل سام أم
من نسل يافث . والأرجح هو الحديث المروي من سمرة في أن الروم من نسل يافث . ويزيده
ابن كثير توضيحاً بأنهم من نسل رومي ابن ليطي ابن يونان ابن يافث - إلا أن التوراة - ولا
أي مرجع آخر - لم يرد فيها أن أحد أبناء يافث كان اسمه يونان . ولكن يزيد رجحان
الاحتمال المفترض وجود بلدة في وسط هضبة الأناضول إسمها تابال . وهو إسم قريب الشبه
جداً من إسم تويال وهو أحد أبناء يافث . ومن المعروف أن المناطق أو المدن تسمى أحياناً
باسم القبيلة أو إسم كبيرها . وشكل ٢٦ يبين تصوراً لانتشار أبناء يافث وأبناء حام.

أما نسل حام ، فإنه من المتفق عليه أن وسط أفريقيا (السودان والحبش) ، وشمال أفريقيا
(البربر) وجزء من قبط مصر ، هم حاميون . وكذلك فإن الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي

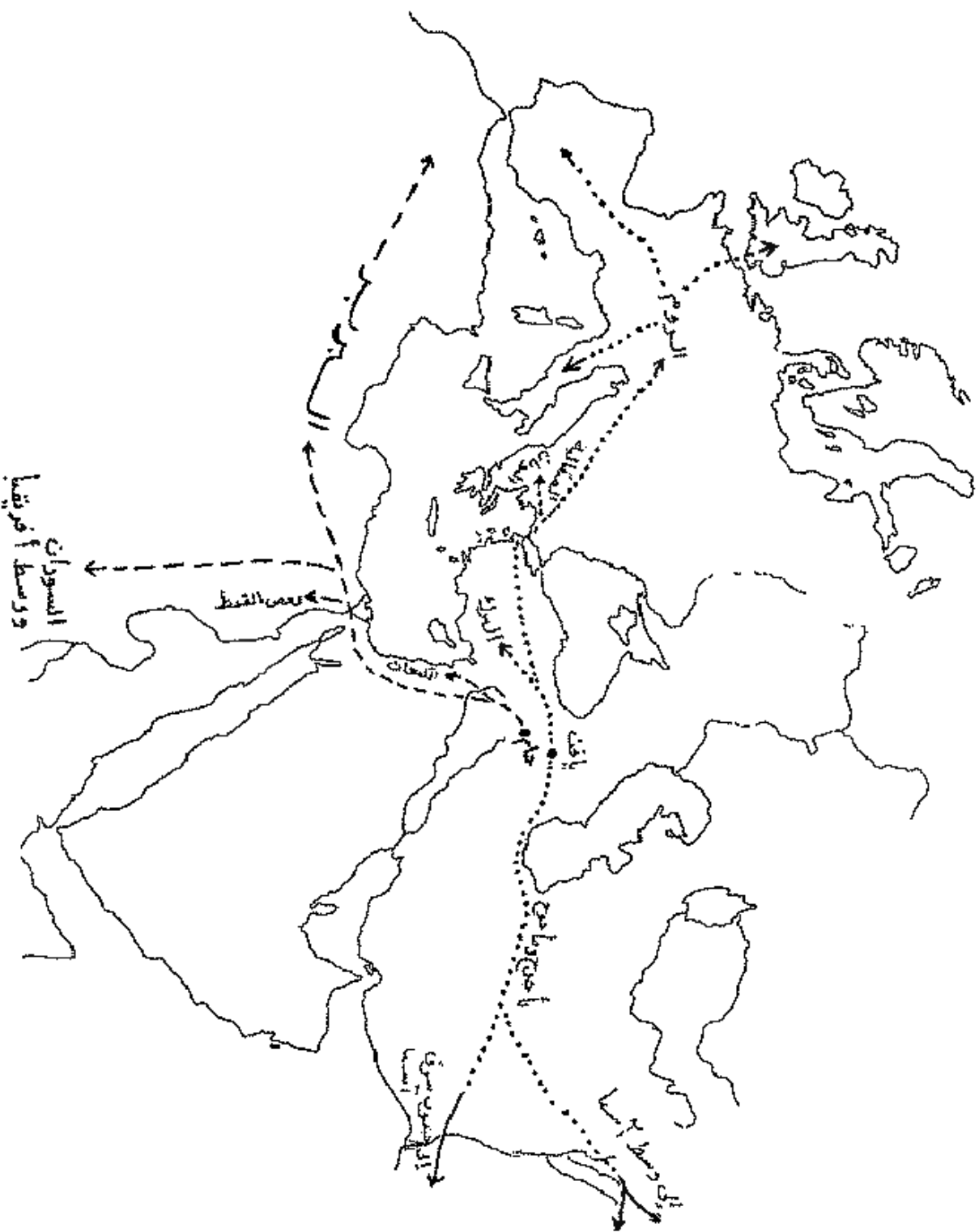


شكل ٢٩ - أبناء يافث (حسب ما جاء في التوراة).



شكل ٣٠ - أبناء حام (حسب ما جاء في التوراة).

شكل ٢١ - تصور مقترح لانقسام المياه بالبحر الأحمر



للبحر المتوسط (فلسطين) من ميناء صيدا حتى غزه سكنه الكنعانيون . وكنعان هو ابن حام .
وميناء صيدا أو صيدون سميت على إسم أحد أولاد كنعان وهو صيدون.

أما أبناء سام ، حسب ما جاء فى التوراه فيوضحهم شكل ٣٢ . (وشكل ٣٣ يوضح كيفية
انتشارهم) ، ومن نسل سام العرب والفرس

فالمنطقة شرقى نهر دجلة وهى الجزء الغربى من بلاد فارس سكنها قوم سموا العيلاميون .
نسبة إلى عيلام بن سام

وأشور سكن شمال العراق ، وبنى المدينة المساه باسمه . وتكاثر أبناؤه وكونوا الآشوريين .

والابن الثالث لود أو لوداد ، يقال إنه أبو العماليق ، الذى سكنوا وسط جزيرة العرب

والرابع آرام . ومن المحتمل أن الآراميين ينسبون إليه . ومنهم ظهر إثنان من الأنبياء هما
هود وصالح .

أما أرفكشاد فمن نسله فالج ويقطان ، ومن فالج سلسلة نسب تنتهى إلى إبراهيم وابن أخيه
لوط عليهما السلام .

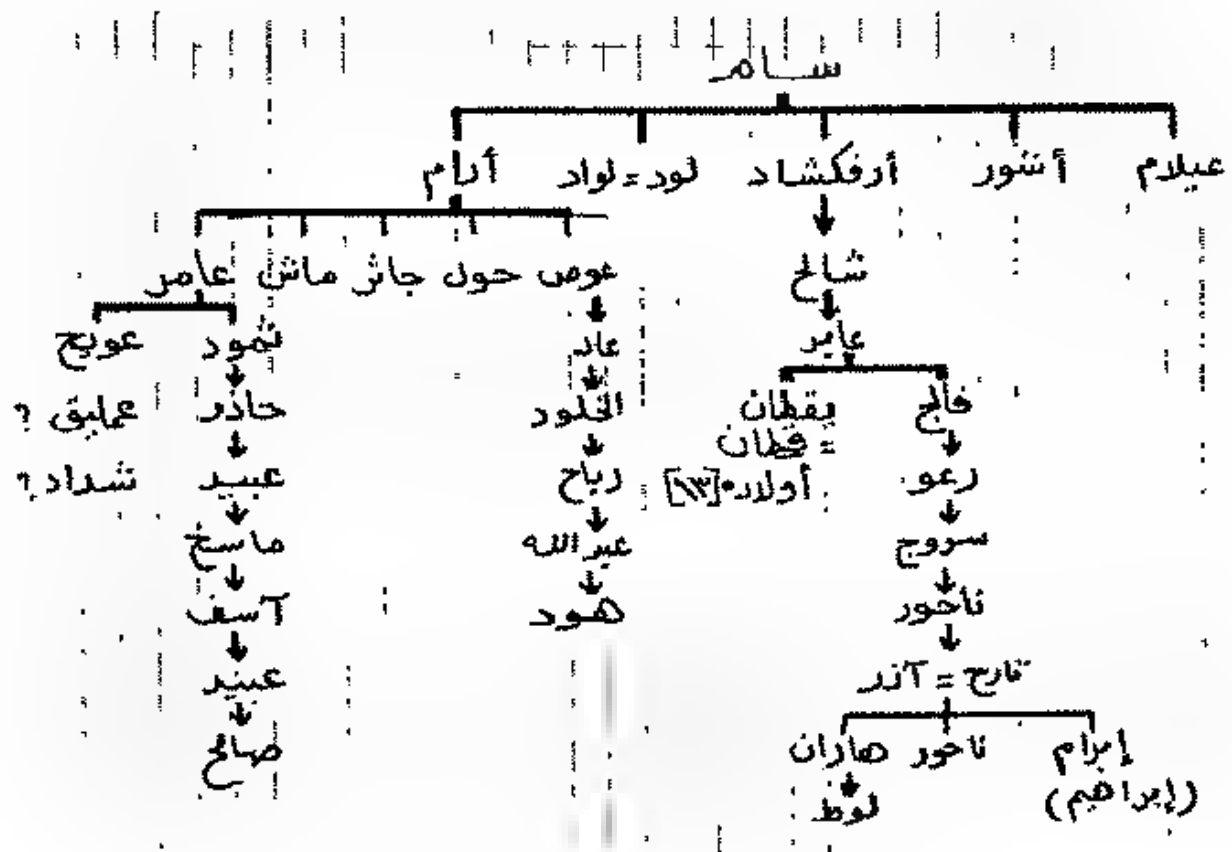
ويمكننا أن نتصور ما حدث فى هذه الأزمنة كمايلى .

نزل نوح عليه السلام وأبناؤه ، سام وحام ويافت ، بعد أن رست السفينة على الجودى فى
سلسلة جبال أراراط فى شرق تركيا بين البحر الأسود وبحر قزوين . وبالنسبة إليه - بعد
الطوفان - كانت كل أرض العراق قد أفرغت من سكانها - كذلك الشام وفلسطين والجزء
الشمالى من الجزيرة العربية . كل هذه المناطق التى شملها الطوفان قد أصبحت خالية من
السكان

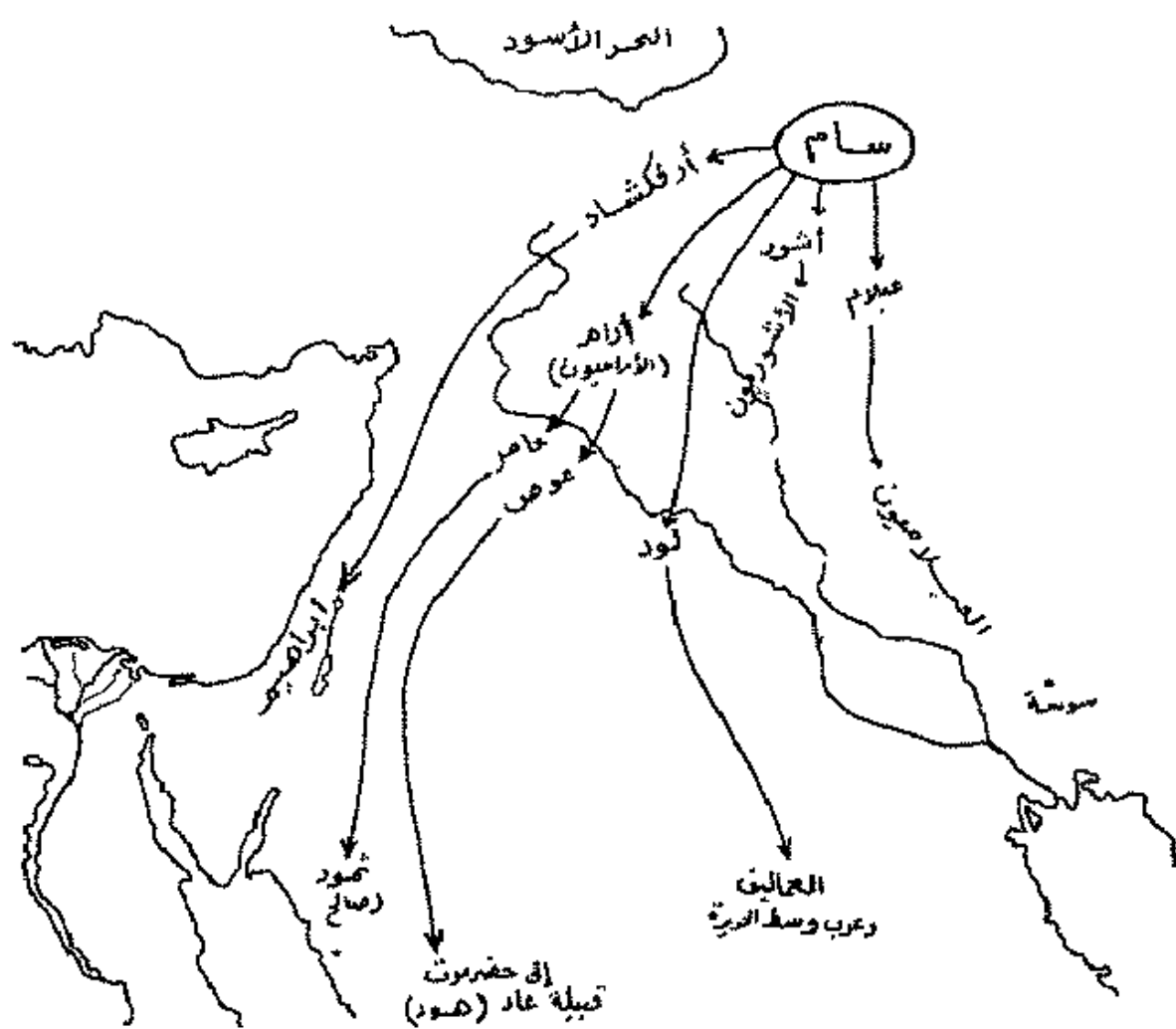
وبالنسبة لتكاثر أبناء نوح . وكلما زاد عددهم اضطرت جموع منهم أن ترحل طلبا لكان فيه
سعة من الرزق . وولد لسام خمسة أبناء .

أولهم عيلام . وكما نرى من شكل ٣٣ فقد إرتحل جنوبا فى المنطقة شرقى أراضى ما بين
النهرين أى الجزء الغربى من بلاد فارس . وأسس أبناء عيلام وأحفادهم وذريرتهم مملكة عيلام
وكانت عاصمتها عديقة سوسة . وعرفوا بالعيلاميين .

أما آشور فقد بقى فى الجزء الشمالى من المنطقة المحيطة بنهر دجلة وبنى مدينة سميت



شكل ٢٢ - شجرة النسب لأبناء سام



شكل ٢٢ - تصور مقترح لانتشار أبناء شام

باسمه ، أشور . ومن نريته الآشوريون .

وأرفخشاد أو أرفخشيد ولد شالح . وشالح ولد عابر ، وعابر ولد قالح . ومن نسل قالح إبراهيم ولوط عليهما السلام .

ولود لوط من ولد سام . ويقال إن عمليق - أبو العمالقة - من نسله . وعلى كل فالعمالقة سكنوا شمال الجزيرة العربية . وهم العرب القدماء . وكانوا يقطنون شمال الجزيرة العربية فيما يلي شبه جزيرة سيناء ويقال أيضاً إن الاسم مشتق من إسم قبيلة كانت تسكن شمال خليج العقبة وكان إسمها ماليق أو مالوق . وأضاف إليها اليهود لفظ « عم » أي الشعب ، فقالوا عم ماليق أو عم مالوق ثم قبلت عماليق وعمالقة . كذلك فإن العمالقة زحفوا على العراق وإستوطنوا جزءاً كبيراً منه . وأسسوا دولة الكلدان .

وابن سام الخامس هو آرام أو أرم . وهو وصالح عليهما السلام من نسله . وهناك من يرى أن العمالقة من نسله أيضاً .

وبالطبع فإن سام وأبناؤه كانوا على دين أبيهم نوح موحدين ويعبدون الله . ولكن الأحفاد سرعان ما تناسوا عبادة الله وداخلهم الشرك واتخذوا أصناما وعبدوها .

ومن نسل آرام كانت قبيلة عاد التي إرتحلت حتى وصلت إلى الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية حيث تقع حضرموت ، واستقرت هناك .

وكانوا يعبدون الأصنام

فأرسل الله إليهم هوداً ليهديهم سواء السبيل .

هود عليه السلام

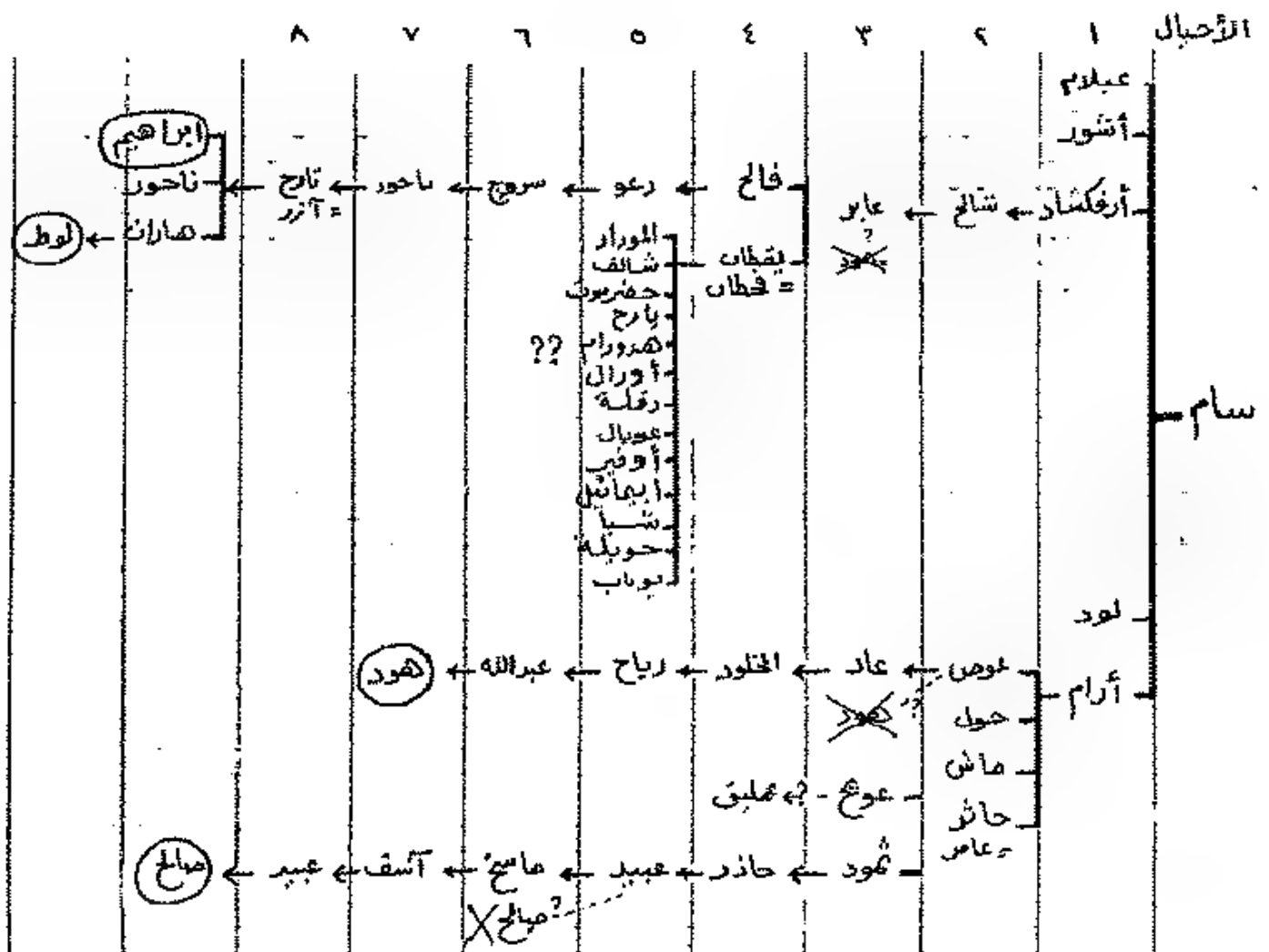
ذكر هود عليه السلام ، في القرآن الكريم سبع مرات : في سورة الأعراف في الآية ٦٥ - وفي سورة هود في الآيات ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ وفي سورة الشعراء الآية ١٢٤ . ولم تذكر عاد ولا ثمود في التوراة وليس هناك من مصدر لإستيفاء معلومات عنهم سوى القرآن الكريم ، الذي ذكر رعد معيشتهم وقوة أجسامهم وغيره . أم ما عدا ذلك فهو أقوال أخذت عن بعض أهل العلم ورواة التاريخ . ولا تزال البعثات تنقب لتحصل على آثار هذه الحقبة القديمة .

وقيل أن هود تسمية عربية مشتقة من الجذر العريسي هاد . فهو هائد أى تائب وراجع إلى الله . أو من هدى فهو المهدي والهادي .

ولو نظرنا إلى شجرة النسب (شكل ٢٤) ، وقد ذكر فيها نسب الأنبياء الثلاثة هود وصالح وإبراهيم عليهم السلام ، وهم من نسل سام بن نوح يمكننا أن نقول إنها أقرب إلى الصحة لأنها تتفق مع سياق الحوادث التاريخية . فبين سام وهود على شجرة النسب ستة أجيال . ولو افترضنا أن الجيل في ذلك الوقت كان حوالي ٦٠ سنة أو مائة سنة . كان بين سام وهود ٣٦٠ أو ٦٠٠ سنة . وهي مدة تكفي لإرتحال القبائل من شمال العراق إلى المكان الذي عاش به قوم هود . كذلك هي مدة تكفي لأن يضل الناس ويتسرب إليهم عبادة الأصنام

أما القول بأن هوداً هو ابن عوص بن أرام بن سام أى ابن حفيد سام . فهذه مدة لا تكفي لتكاثر الأحفاد وأبنائهم للدرجة التي تجعلهم يرتحلون بعيداً هكذا إلى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (أو شمال غربها في قول آخر كما سيجيء تفصيل ذلك فيما بعد) .

كذلك فإن هناك قول ثالث يجعل هوداً هو نفسه عابر بن صالح بن أرفكشاد بن سام ، أى يجعله ابن حفيد سام أيضاً ، (وحسب الأعمار التي وردت في التوراه عند ولادة الأبناء ، سنذكر ذلك تفصيلاً عند ذكر قصة إبراهيم عليه السلام) ، كان عمر سام ١٦٥ سنة عند ولادة عابر ، وكان الطوفان قد حدث وعمر سام مائة سنة ، أى أن عابر يكون ولد بعد الطوفان بخمس وستين سنة ولو فرض أنه بعث إلى قومه وعمره ١٠٠ سنة فذلك يؤدي بنا إلى ١٦٥ سنة بعد الطوفان ، وهي مدة قصيرة ، لا تكفي لأن تتم هجرة القبائل بالإزاحة إلى تلك الأماكن



البعيدة . وقد لا تكفى نسبياً إلى تسيان تعاليم الله ، ولا لنشوء عبادة الأصنام ، إذا كانت مستنشأاً إبتداءً من تقديس الأسلاف ، فقد كان نوح نفسه وسام أيضاً لايزال على قيد الحياة . إذ أن نوحاً عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة وسام عاش بعد الطوفان ٥٠٠ سنة .

ولو قيل إن الضلال جاء إليهم « مستورداً » من قبائل مجاورة تعدد الأصنام ولم يفرقهم الطوفان ، قلنا أيضاً إن قصر المدة لا يبيح إنشاء روابط وثيقة عن طريق التجارة . بحيث تحمل الآلهة المستوردة - محل شريعة الله التي تناقلوها عن الأب والجد وأبى الجد سام ، وهو الذى عاصر الطوفان وليس رحمة الله به وبأخوته ووالده نوح عليه السلام ، وما يعد الأبناء يتأصل فى النفس تأصلاً شديداً . فليس من السهل إزاحته بأصنام جاءت عن طريق التجارة ولم يكن لهؤلاء القادمين سطوة الملك التى تمكن أصنامهم من السيادة وإزاحة ديانة التوحيد .

كما أن هذا القول - أن هود هو نفسه ماير بن شالح يراه البعض أنه من وضع اليهود لرغبتهم فى أن يجعلوا هوداً من أجداد سيدنا إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويواقعهم بعض المؤرخين الإسلاميين فى هذا القول إستناداً إلى قوله تعالى فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم : « وإلى عاد أخاهم هوداً » . وقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » . (البقرة - ١١١) فطابق لفظ هوداً فى الآيتين - يجعلهم يوافقون على رأى القائل بأن هوداً عليه السلام هو عابر بن شالح ليكون أيضاً هو من أجداد إبراهيم وإسحق ويعقوب - الذى هو إسرائيل - الذى ينتسب إليه اليهود . ولكن ينقض هذا القول أنه لو كان الأمر كذلك لما كان يجوز للتوراه أن تهمل كلية أى ذكر عن عاد أو هود فى سياقها ، فإن قصة هود (وصالح) لم تذكر إطلاقاً فى التوراه ، ولعل بعض كتّاب اليهود ، فى وقت متأخر ، هو الذى قال بهذا رأى رغبة منهم فى الاستئثار بكل الأنبياء وجعلهم فى شجرة نسبهم .

وزاد بعضهم فقال إن « يهود » جاءت من « هود » ، فهم إذن بنو هود - النبى العبرى وربما شجعت الجالية اليهودية فى شبه الجزيرة هذه المقولة رغبة فى إيجاد نسب موغل فى القدم بينهم وبين مٌضيفيهم ، تأليفاً لقلوب العرب عليهم* ولكن من المعروف أن اسم اليهود هو نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام .

لذلك فإن أوجح الأقوال أن هوداً هو بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد (الذى سعى القوم باسمه) بن عوص بن آرام بن سام بن نوح . ويزيد من ضعف الأقوال الأخرى أن عاداً قد بناوا بعد بناء البيت الحرام بمكة المكرمة ، ولو كان هود على سلسلة نسب قصيرة جداً من سام (ابن الحفيد) لكان ذلك مستحيلاً . أمّا على شجرة النسب المذكورة فى شكل ٢٤ فإن

ذلك يصبح ممكناً ، ولو أن بين هود وسام على شجرة النسب ستة أشخاص ، وبين إبراهيم وسام ثمانية أشخاص . فلو تساوت أعمار الأجيال لكان هود يسبق إبراهيم بجيلين ، ولما كان ممكناً أن يحدث - كما هو المشهور - أن قوم عاد لما إمتنع عنهم المطر قصدوا مكة لإستسقاء السماء بجوار المسجد الحرام ، ولكن يمكن تفسير ذلك بأن قوم عاد وقد كانوا أضخم أجساماً لقوله تعالى « وزادكم في الخلق بسطة » (٦٩ - الأعراف) أنهم كانوا أيضاً أطول أعماراً ، لذلك فإن الستة أجيال على عمود نسب هود يمكن أن تكون أطول وقتاً من الثمانية أجيال على عمود نسب إبراهيم ، وبهذا تكون إبادة قوم هود في وقت لاحق بناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام.

أحد الأقوال الضعيفة أيضاً هو ما ذكره البعض من أن هود هو هندورام أحد أبناء مقطبان (ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام) يعتمدون في ذلك على تشابه النطق بين عاد إرم وهندورام.

إن عدم ورود ذكر هود وصالح عليهما السلام في التوراه - جعل بعض المستشرقين ينكرون وجودهما أو وجود أقوامهما أصلاً! وينقض هذه الفرية إكتشاف أن عاداً Oditae وThamudida مذكورتان في تاريخ بطليموس* ، وكذلك فإن إسم عاد مقرون بإسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها Adramitae أدراميت وهو حذفنا حرف التاء الملصق في الآخر لكان لفظ Adram هو أدارام أو عاد إرم ، وهو يتفق مع تسمية القرآن الكريم لهم « ألم تر كيف فعل ربك يعاد . إرم ذات العماد » . (٦٦ - الفجر)

والبعض يقرأها « يعاد إرم ، ذات العماد » بإعتبار أن عاد اسم الحي وإرم إسم القبيلة، إلا أنه من الممكن أيضاً إبقاء القراءة كما وردت في ترقيم آيات المصحف الكريم بوقوف بعد عاد . « ألم تر كيف فعل ربك يعاد . إرم ذات العماد » وتكون إرم إسم القبيلة مرادفاً لإسم عاد.

« وإرم ذات العماد » ذات العماد صفة لإرم ، والمراد ذات القنود الطوال على تشبيه قامتهم بالأعمدة وسأى إلى الأقوال التي قيلت في هذا المجال حينما سأى إلى قوله تعالى . « وزادكم في الخلق بسطة »

وبعضهم قال إرم إسم مدينة وذات العماد صفة أى ذات الأعمدة وسأى إلى ذلك أيضاً فيما بعد.

وبعضهم قال إرم من يأرم أى يهلك فيكون المعنى ألم تر كيف أهلك ربك عاداً كما أهلك إرم ذات العماد.

وبعضهم قرأ أَرَمَ ، فعلاً ماضياً أى جعل الله ذات العماد رميماً أى أهلكها وكذلك أهلك حاداً.

أين كانت عاد ؟

إستناداً إلى الآية الكريمة : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » . (٢٦ - الأحقاف) تكون المنطقة التي عاشت فيها قبيلة عاد هي الأحقاف . وتوجد منطقة تسمى الأحقاف إلى الشمال الشرقي من حضرموت ، شرقي عدن ، جنوب الربع الخالي من الجزيرة العربية (مكان رقم ١ شكل ٢٥) وهناك خلاف حول ما إذا كانت الأحقاف تطل على البحر أم أن حضرموت تفصلها عن البحر .

والحقف في اللغة هو المعوج من الرمل ، وليس بالضرورة أن يقتصر إطلاق الإسم على المنطقة السابق ذكرها ، بل ممكن أن يطلق إسم الأحقاف على أى مكان به ومل عظيم .

ويرى البعض أن عاداً كانت تسكن في شمال غرب شبه الجزيرة العربية في الجزء المجاور شرقي سيناء (الاحتمال ٢ شكل ٣٥) . ويوجد هناك بئر تسمى بئر إرم . وأحد وديان شمال الحجاز يسمى وادي إرم ، كما يوجد في جنوب الأردن منطقة تسمى إرم . كما يوجد جبل يسمى رم في هذه المنطقة على بعد ٢٥ ميلاً شرقي العقبة (د . محمد بيومي مهران) .

ولكن التسمية في حد ذاتها لاتعتبر دليلاً مؤكداً على أن عاداً سكنوا هذه المنطقة ، فكلمة إرم هي حد ذاتها تفيد الإنتساب إلى أرام بن سام ، ولو نظرنا إلى شكل ٣٥ بتضمن أكثر ، والمسافة بين شمال العراق حيث عاش سام وأرام وبين شرقي سيناء تبلغ حوالي ١٠٠٠ كيلومتر ولو افترضنا هجرة متواصلة من الأبناء والأحفاد في الطريق (٢) ليكون مبعث هود عليه السلام لقوم في الشرق من سيناء لكان ارتحال القبائل بطيئاً قسبياً ، ولكانت عاد نفسها قد عاشت في شمال سوريا ، ولما كان الهدف من التسمية هو تخليد اسم الجد الأكبر للقبيلة وهو عاد إرم أى عاد بن عوص بن أرام ، لكان الأولى إطلاق أسماء وديان وجبال وأبار في شمال سوريا وليس في الأردن أو قريبا . أما إذا أخذنا المكان (١) في شكل ٢٥ . والمسافة من شمال العراق إلى حضرموت تصل إلى ٣٥٠٠ كيلومتر لوحدنا أن إرتحال القبائل يجعل عاداً تعيش في شمال الحجاز شرقي خليج العقبة وتطلق إسم جدها أرام بن سام على هذه الأماكن . ومرت أربعة أجيال أخرى ولد فيها الخلود ثم رباح ثم عبد الله ثم هود ، وبالطبع لم تكن الجموع المتكاثرة لتبقى في مكانها الأول ، بل الطبيعي أنها ارتحلت إلى الجنوب بحذاء الساحل حتى وصلت إلى اليمن السعيد . ومن المؤكد أن عدن كانت مكتظة بأهلها لخصبها ، فآثر هؤلاء



شكل ٢٥ - مكان الأحقاف،
 ١ - شرقى عدن وشمال حضرموت
 ٢ - شمال الحجاز وشرقى سيناء.

الجدد ، السكنى شرقى عين فى الأحقاف شمال حضرموت وإن ظلوا يسمون أنفسهم « عاد » على إسم جدهم الأول.

وفى شمال حضرموت عُثِرَ على آثار عليها كتابة بالخط المسمارى ، مما يدل على قوم قدموا من الشمال ، من العراق ، التى كانت موطن هذا النوع من الخط . كما أن البعض يقول بوجود قبر هود عليه السلام بحضرموت ، ويجواره نبع يُدعى « برا هوت » إشتُهر منذ القدم بأشجته الكبيرة*.

قال محمد بن أسحق ، عن حمد بن عبد الله ، عن أبى سعد الخزاعى ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، سمعت علياً - رضى الله عنه - يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيراً أحمر يخالطه مدرة حمراء ، ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيته؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وإنك لفتحت نعت رجل قد رآه ، قال لا ولكنى حدثت عنه ، فقال الحضرمى ، وما شأنه يا أمير المؤمنين ، قال : فيه قبر هود عليه السلام ، رواه ابن جرير. وعلى ذلك فأرجح الأقوال هو أن عاداً سكنوا الأحقاف شمالى حضرموت أما تفسير القول الآخر فيحتمل أن من سكنوا هذه المنطقة أراموا أن يكون لهم الشرف إذ يظهر فيهم نبي الله هود - كما ظهر فى المنطقة المجاورة ، والتى تبعد قليلاً إلى الجنوب ، نبي الله صالح فى الحجر.

عاد ، قوم هود:

يُنسب قوم هود إلى الجد الأكبر عاد.

وتكاثر القوم على مدى ثلاثة أجيال أخرى بعد عاد ، وشلوا طريق العبادة واتخذوا أئمتناً يعبدونها من دون الله تعالى ، منها صنم يقال له صدى ، وصنم يقال له هرد وصنم إسمه هيا ، وفى أثر مروي عن ابن عباس أنهم إتخذوا صنماً يقال له الهتار.

وكان هود من أوسطهم سبياً ، فهو من نسل عاد ، شيخ القبيلة وجدها الأكبر . فهو ابن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد. واصطفاه الله وبعثه لهداية عاد ، فقال تعالى:

* رؤوف أبو سعده

« وإلى عاد أخاهم هوداً . فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون » .
(٦٥ - الأعراف)

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » .
(٥٠ - هود)

وكان قوم عاد ذوى أجسام قوية ، وطوالا ، كانوا عمالقة أقوياء ، واغثروا بقوتهم ، وعز عليهم أن يراجعهم فى رأيهم وقى عبادتهم أحد .

« وقالوا . من أشد منا قوة » .
(١٥ - فصلت)

وقد ذكرهم هود أن هذه القوة هى مئة من الله ونعمة ، وعليهم أن يشكروا الله عليها ، بعبادته وعدم الإشراك به ، كما أن من نعم الله عليهم أنه أسكنهم الأرض بعد أن هلك الخلق بفعل الطوفان ، فقال لهم :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح . وذاكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .
(٦٩ - الأعراف)

ويقول بعضهم إن الواحد منهم قد بلغ إثني عشر ذراعاً (٨,٤٠ متراً) وهنا يلعب الخيال عند البعض ، فيقول إنهم كانوا فى هيئة النخل .

وقال أبو حمزة اليماني كان طول الرجل منهم سبعين ذراعاً (٤٩ متراً) .

وقال ابن عباس ثمانين ذراعاً وقال الكلبي كان أطولهم مائة ذراع وأقصروهم ستين ذراعاً .

وقال آخرون كان طول الواحد منهم أربعمائة ذراع (٢٨٠ متراً) !!

وقالوا : كان الواحد منهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحصى فيهلكهم ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يفلبوه .

ويقول الدكتور محمد بيومي مهران - إن ذلك كله يتعارض مع حديث رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً فى الهواء ، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن » .

ويقول ، وهذه المبالغات تشبه ماكانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول مما كذبه الواقع بعد كشف ممياتهم ، ويقول ، ولا نعو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون

بضخامة لاتزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بينما من بسطة في الخلق.

والحقيقة أيضاً أن الحديث الشريف وضع قاعدة عامة وهي أن الناس ظلت بالتدرج تقصر في الطول من عهد آدم . ولكن هذا لا ينفي إستثناء البعض وخاصة أن القرآن الكريم هو الذي ذكر هذا الإستثناء في قوله « **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** » وقال : « **الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ** » هذا إذا كان القول ينصب على القوم أنفسهم ، لا على مدينتهم.

وعليه فيمكننا القول إنهم كانوا فعلاً طوالاً ضخاماً ، وانقل مثلاً سمة أو عشرة أذرع وليس أكثر من ذلك.

وكانوا يبتون في كل مكان بناء كبيراً أو قصراً فخماً ، ليكون آية وشاهداً على قوتهم ، ولم يكن ذلك لاحتياجهم ، بل لإظهار مآلديهم من ثراء وقوة ، وهذا عبث ومضيعة للمال والجهد . ولهذا قال الله عنهم « **تَعْبَثُونَ** » ، وقال مجاهد كذلك اتخذوا مصانع وهي البروج المشيدة . وقال قتادة هي مأخذ الماء ، وكانوا يزينون في ضخامة كل ما يعمفون من مباني كآتهم مخفون.

« **اتَّبَعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَكُمْ تَخْلُدُونَ .** »

(١٢٨ ، ١٢٩ - الشعراء)

ومن كثرة ما بنوا من مبان ضخمة وفخمة كانت مدينتهم أفخم مدينة لقوله تعالى

« **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتَ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ .** »

(٦ - ٨ - الحجر)

وقالوا إن إرم ذات العماد مدينة بناها شداد بن عاد - أحد زعمائهم وشطح خيال البعض ، وزعموا أنه بناها في صحارى عدن ، في ثلاثمائة عام ، وفي رواية أخرى في خمسمائة عام ، وأن عمره كان تسعمائة عام ، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا له ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران ، وأنه أمر بالذهب والفضة فضرباً أمثال اللبن وبنى بها المدينة ، ثم زين حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ، ثم أجرى تحت المدينة نهراً طليت حافته بالذهب وأما مصير المدينة فقد زعم بعضهم أنها طارت بعد بنائها إلى السماء وأن بعض الناس لجوها وهي طائفة ، ومنهم من يدعى أنه لا يراها إلا من كتب الله له ذلك ، ويروى بعضهم أن رجلاً رآها علي أنام معاوية بن أبي سفيان وأنه حمل إلى الخليفة منها بعض الأحجار الكريمة فضلاً عن المسك والكافور ، غير أن هذه الأشياء سرعان ما تحولت إلى تراب

عندما تعرضت إلى الهواء (ألم تكن وهي في المدينة قبل أن يأخذها معرضة إلى الهواء أيضا !!) ، ومن ثم فقد إستدعى معاوية كعب الأحيار ، وسأله عن خبر هذه المدينة ، فتأجاب كعب إنها إرم ذات العماد

ويقول الدكتور محمد بيومي مهران ، ولعل هؤلاء الرواة قد رأوا ضخامة آثار الفراعنة في مصر ومباني الآشوريين والبابليين ، ومن ثم رغبوا أن تكون مدينة عاد أكثر فخامة من هذه الآثار ، فكان الحيال الذي ينزل بكتاباتهم إلى مبالغت الأساطير .

وكان في قوم هود غلظة وقسوة وجبروت قال الله عنها :

« وإذا بطشتم بطشتم جبارين » . (الشعراء - ١٢٠)

وذكّرهم هود عليه السلام بأنه لا يطلب منهم أجراً من مال أو جاه أو سلطان عليهم بهذه الدعوة ، إنما أجره على الله تعالى .

« قال يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذي هطونى . أفلا تعقلون » .

(هود - ٥١)

« وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين » . (الشعراء - ١٢٧)

ولكنهم - مثل الكفار في كل مكان وزمان كذبوه ، واتهموه بالسفه :

« قال الملا الذين كفروا من قومه ، إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين » . (الفرقان - ٦٦ - ٦٧)

وطلب منهم أن يستغفروا الله لما أقدموا عليه من الشرك به وعبادة الأصنام ، وأن يتوبوا إلى الله ، ويرجعوا عما هم عليه من الضلال ، والتوبة تجب ما قبلها . وبالتالي سيغفر الله لهم ذنوبهم وسيثيبهم الله خيراً كثيراً بزيادة المطر فتخضر الأرض ويكثر الرزق والسل ويزدادوا قوة وعزا . ونهاهم عن الإعراض عن دعوته وطلب منهم أن يرجعوا عما هم عليه من الشرك والإجرام .

« ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين » . (هود - ٥٢)

ثم نذكرهم ثانية بنعم الله عليهم وطلب منهم أن يطيعوه ويؤمنوا بما جاء به .

« فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمركم بأنعام وينين ،
وجنات وعيون . إننى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . (١٣١-١٣٥ الشعراء)

وقال لهم . وإن خالفتم ، ولم تتقوا ولم تؤمنوا ولم تقوموا بشكر الله على هذه النعم التى تعرفونها ، وعدد عليهم بعض هذه النعم ، أنعام وإبل وغنم وكثرة فى الولد ، وجنات مزروعة تنبت من كل الخيرات ، ولا يجف ماؤها لما فيها من عيون ماء كثيرة ، وإن خالفتم فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة ، وهذا لا يمنع أيضا من وجود عذاب فى الدنيا .

وقالوا له إنك يا هود لم تأتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أو لم تأتنا بمعجزة تؤيدك ، وقالوا ذلك لفرط عنادهم ، وفى الخبر « ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر » . ولعله أتاهم ببينة وإن لم يعين لنا القرآن الكريم نوعها ، ولعله أيضا لفت نظرهم إلى آيات الله فى الكون ، وإلى آية خلقهم وخلق غيرهم من الأحياء . ولكنهم استمروا فى كفرهم وعبادتهم للأصنام ، وأعربوا عن أنهم لن يؤمنوا بما يدعوههم إليه . بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ قالوا له ، إن مايقوله ما هو إلا هذيان بسبب أنه حقر آلهتهم فأصابته بسوء ، وكان رده عليهم أنه أشهد الله عليهم وأشهدهم أيضا بأنه يرى مما يعبدون من دون الله ، وهذا الرد فيه استخفاف بالهتهم ، وبأنها لا تستطيع فعل أى شئ ، تحداهم إنه لو صح أن آلهتهم قادرة على إيقاع الضرر به فلتفعل ويساندونها هم أيضا ، وليدبروا له جميعا هم وآلهتهم مايقدرون عليه من كيد وضرر ، بل وطلب منهم أن يفعلوا ذلك فى سرعة فلا ينتظرون وقتا كبيرا أو قصيرا وهذا زيادة فى التحدى لهم . وأعلن لهم أنه مؤمن بأنهم لن يستطيعوا ضربه بشئ . لأنه توكل على الله ، فهو ربه وربهم ، فكل شئ فى هذا الكون بمشيئته وكل حركة لأى شئ . حتى إنما هى بأمره وقدره . وعبر عن ذلك بالأخذ بالناسية كناية عن القدرة والسلطان . وكانت العرب قديما إذا أمسكوا بأسير ومثوا عليه بالحياة جزوا ناصيته ، وهو انشعر فى مقدمة الرأس ، دلالة على أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته ، وأن عليهم التسليم لله وحده لأن هذا هو الصراط القويم المستقيم الذى يرتضيه الله لعباده .

وعبر القرآن الكريم - بإيجاز وإعجاز - عن ذلك بقوله تعالى .

« وقالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك

بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض الهتفا يسوء ، قال إني أشهد الله وأشهدوا
أنى برىء مما تشركون من دونه . فيكيدونى جميعا ثم لا تنتظرون إن توكلت على
الله ربي وربكم . ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . إن ربي على صراط
مستقيم . (٥٢ - ٥٦ مود)

كان قوم قوم هود يعبدون الأصنام ، وقد ذكر محمد بن اسحق أنهم كانوا يعبدن صنما
يقال له صدا ، وآخر يقال له صمودا ، وآخر يقال له الهنا . واستنكروا أن يدعوهم إلى عبادة
الله وحده ويتركوا عبادة الأصنام وقالوا إن هذه الأصنام كان يعبدها آبائهم . فاستنكروا أن
يدعوهم إلى ترك ما كان يعبد آباؤهم ، وكان غاية تكذيبهم أنهم طلبوا منه أن ينزل بهم العذاب
الذى توعدهم به ، أى أنهم تحدوه لأنهم لن يؤمنوا به ، فإن كان صادقا فى إخباره عن الله عز
وجل . فليطلب من الله أن ينزل بهم العذاب الذى هُدهم به :

« قالوا : أجيئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا . فأتتنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين . » (٧٠ - الأعراف)

واستنكروا أن يحاول أن يثنىهم عن عبادة الأصنام ، وقالوا له إن كنت صادقا فأنزل بنا
العذاب الذى تقول به . فأتين أن العذاب من عنده هو ، ومادام هو بشر مثلهم فلن يستطيع
إنزال عذاب بهم . فقال لهم إن علم ذلك عند الله هو الذى يحدد نوع العذاب ووقته وقال لهم :
كل مهمتى أن أبلغكم رسالة ربي ، وأنصحكم . ولكنكم قوم لاتعقلون ولا تفهمون .

« قالوا أجيئتنا لتأفكنا عن الهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال
إنما العلم عند الله ، وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون . »
(٢٢-٢٣ الأحقاف)

وقال لهم . فإن أعرضتم عما جئتكم به ، فقد قامت عليكم الحجة ، لأتى ببلغكم ما أرسلت
الله به إليكم ، وسينزل بكم العذاب ، وسيأتى الله بقوم آخرين بعدكم يؤمنون به ، وأنتم
لاتتصرون الله بشىء يكفركم هذا ، بل تضرون أنفسكم ، والله حافظ لأقوالكم وأفعالكم وتكذيبكم
وإصراركم على الشرك به

« فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم
ولا تضررونه شيئا ، إن ربي على كل شىء حفيظ »
(٥٧ - مود)

ويقول الله تعالى : مُخْبِرًا عن جواب قوم هود له ، بعد ما حذَّروهم وأنذروهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضَّحه ، أنهم قالوا سبَّانَ عندنا وعظمتنا أم لم تعظتنا قلن نؤمن لك ، ونحن متمسكون بعبادة أصنامنا ، وهذه أيضا كانت أخلاق آبائنا وأجدادنا الذين تمسكوا بهذه الآلهة وكان هذا دينهم ، ونحن نتبعهم ، وعندما نموت ليس هناك بعث ولا حياة أخرى ولن يكون هناك عذاب كما تدعى.

« قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خُلُقُ الأولين ، وما نحن بمعزيين »
(١٣٦ - ١٣٨ الشعراء)

وبعضهم قال في تفسير إن هذا إلا خُلُقُ الأولين أى أن هذا الذى تدعو به ما هو إلا إعادة لما قاله آخرون غيرك من قبل وأدعوا أنهم مرسلون ، وقرأ أبو قلابة والأصمعى عن نافع إن هذا إلا خُلُقُ الأولين كأنهم قالوا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وروى علقمة عن عبد الله أنه قرأ « إلا إختلاق الأولين ».

وكان رده عليهم أنهم بمقالتهم هذه قد استحقوا غضب الله وسخطه . وإستنكر عليهم مجادلتهم فى هذه الأصنام وإدعائهم أنها آلهة ، مع أنهم هم الذين صنعوها ونحتوها بأيديهم ، ثم إنهم هم وأبائهم هم الذين أعطوا الأصنام أسماء ها ، وهذه الأصنام لاحول لها ولا قوة ، وليس لها من سلطان لتضرَّ أو تنفع ، وإذا كانوا قد طلبوا منه أن يأتهم العذاب الذى توعدهم به فقد قال لهم أن العذاب سينزل بهم - وما عليهم إلا أن ينتظروا وقوعه بين حين وآخر ، وسينتظر هو أيضا ليرى ما يحيق بهم من عذاب.

« قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآبائكم مانزل الله بها من سلطان ، فإنتظروا إننى معكم من المنتظرين » .
(٧١ - الأعراف)

ثم كان الإنذار الأخير ، لعله يردعهم فيؤمنوا .

وكما قال الله فى آل فرعون

« وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون » . (٤٨ - الزمر)

والإنسان الواعى إذا أصابه مكروه عليه أن يفكر ، فإم كان خطؤه ، وأى ذنب إرتكبه حتى

إستحق أن يصاب بهذا المكروه؟ أما الشخص الغافل فإنه يعمرى عن هذه الدلالات ويستمر فى غيه ، بل ولا يمر على خاطره أن ما أصابه قد يكون بسبب سوء فعله . وكانت نذر العذاب لقوم هود أن أمسك الله عنهم المطر ، قيل ثلاث سنين حتى جف النزع وهلك الأنعام .

وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد ، ذهبوا إلى بيت الله الحرام بمكة يطلبون من الله تعالى الفرج ، سواء كانوا مسلمين أو كفارا ، فقد كان الكل يعظم مكة والبيت الحرام ، يعرفون مكانتهما عند الله وأن الدعاء فى مكة عند البيت العتيق أدعى لأن يستجاب . كذلك سبق أن أوضحنا فى ص ١٤٣ الرد على من نفوا ذهاب وفد من عاد للدعاء عند البيت الحرام بمكة بحجة أن البيت الحرام لم يكن قد بنى بعد ، وافترضنا أن الستة أجيال على شجرة نسب هود يمكن أن تكون أطول زمنا من الثمانية أجيال على شجرة نسب إبراهيم ، ويكون البيت الحرام بمكة قد بنى فعلا

كان سيد العمالق إذ ذاك بمكة هو معاوية ابن بكر . ويمت بصلة قرابة لقبيلة عاد ، إذ أن أمه كانت متزوجة من رجل من قبيلة عاد

فلما قحط المطر عن عاد ، جهزوا وفدا منهم ليذهب إلى مكة ليستسقوا لقومهم ، وقيل بلغ الوفد سبعين رجلا . ولما قدموا مكة نزلوا على معاوية ابن بكر ، وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأكرم وفادتهم ومكثوا طويلا ، فلما ذكرهم بالمهمة التى جاؤا من أجلها ساروا ودخلوا الحرم واستسقوا ، وكان بينهم واحد قد آمن بهود سرا (ويقال اسمه مرثد بن سعد) . فقال لهم والله إنكم لاتستقون بدعائكم ، ولكنكم إن أطعتم نبيكم ، وأنبتم إلى ربكم ، سقيتم وعرفوا أنه قد أسلم مع هود ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، واستسقوا .

وتكونت فى السماء سحب سوداء . ورأوها تتجه ناحية الجنوب حيث قومهم ، فظنوا أن الآلهة إستجابت لهم .

ذلك ماكان من أمر الوفد فى مكة

أما بقية قوم عاد - فى الأحقاف - فقد ظلوا على كفرهم وتكذيبهم لهود عليه السلام

« قال رب انصونى بما كذبتون ، قال عما قليل ليصبحن نادمين . فآخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » . (٤١ - المؤمنون)

وجاء أمر الله .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيتهم من عذاب قليظ ، وذلك عاد جدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وأتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، إلا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود » .

أما تفامسيل إهلاكهم فكانت أن الله ساق السحب الداكنة السوداء إلى حيث قوم هود . فظنوا أنه الغيث قادم ، لأن السحب السوداء فيها المطر الغزير .

« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما يستعجلكم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها . فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » .

« وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

والريح العقيم هي الريح الآتية من الجنوب وتسمى الدبور ، وقد ثبت في الصحيح ، من رواية شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . قال رسول الله ﷺ « نُصِرْتُ بالصَّبَا وأَهْلَكَت عاد بالدبور » .

« وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

« كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرنا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر » .

أرسل الله عليهم ريحا باردة سبع ليال وثمانية أيام . كانت الريح فيها متصلة الهبوب . كأنها يوم واحد أي كأنها يوم مستمر . قالوا وكانت الريح تأتي أحدهم فترفعه حتى تُغَيِّبَهُ ثم تُنَكِّسُهُ

على أم رأسه . فبسقط على الأرض فَنُكْسِرَ رأسه فيبقى جثة بلا رأس ، كأنه أعجاز نخل منقعر ، وكأنهم جثث قد بليت وأصيبت رمة . أو كالرميم .

وقال محمد بن اسحق والسدي . حدث الله على عاد الريح ، فلما دنت منهم ، نظروا إلى الإبل تطير بها الريح بين السماء والأرض فتبادروا البيوت ، فلما دخلوها . دخلت عليهم الريح فاقتلعتهم وأهلكتهم قيل فأرسل الله عليهم طيوراً سوداء لتلقى بهم في البحر فالتقتهم فيه .

وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا ابن فضيل . عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل الخاتم ، فموت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم بين السماء والأرض فالتقتهم على أهل الحاضرة حتى هلكوا » .

وروى مسلم في صحيحه قال : حدثنا ابن وهب قال : سمعت ابن جريج ، حدثنا عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها قالت . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » . قالت وإذا غيبت السماء تغير لونه وخرج ويدخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سرى عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسأته فقال . « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ، فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » .

أما هود ومن معه فقد اعتزلوا في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم . كذلك نجا من قبيلة عاد بنو اللويذة المهدي . وهم رهط كانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم - لم يكونوا يارضهم - وهم عادُ الآخرة ، أما عاد الذين أهلكوا فهم « عادُ الأولى » .

« وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثموداً فما أبقى » . (٥١ - النجم)

« ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من غذاب غليظ » . (٥٨ - هود)

« فانجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » . (٧٢ - الاعراف)

« فكذبوه فاهلكناهم ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . (١٢٩ - ١٤٠ - الشعراء)

وكان وفد عاد الدين أرسلوا إلى مكة للإستسقاء قد أنوا مهمتهم وغادروا مكة ، ومروا على طريق عودتهم بينى خولتهم معاوية بن بكر فترزوا عليه ، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقه من أمصار عاد فأخبرهم بهلاك عاد ، فقال الكافرون منهم : لا حاجة لنا فى البقاء بعد هلاك قومنا ، فهلكوا كما هلك قومهم ، أما مرثد بن سعد ، وقد كان مؤمنا فقد قال اللهم أعطنى برا وصديقا ، فأعطى ذلك .

وبقى هود ماشاء الله له . ثم مات وعمره مائة وخمسون عاما ، ودفن فى حضرموت .
وقد سبق ذكر قول على رضى الله عنه للحضرمى ، يصف كثييا أحمر هو قبر هود عليه السلام .

ويقول آخرون . إن النبى من الأنبياء كان إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى إلى مكة هو ومن معه ، يعبدون الله تعالى حتى يموتوا .

وعن الفضل ابن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد ، أنبأنا يزيد بن أبى حكيم ، عن سفيان الثورى ، عن عطاء عن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا - وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام فى تلك البقعة .

ولكن الرواية القائلة بدفن هود عليه السلام فى حضرموت هى الأقرب إلى الصواب . ويقول الثعلبى بذلك أيضا .

صالح عليه السلام نبي ثمود

ثمود - قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن أرام بن سام بن نوح عليه السلام.

وكانوا يسكنون الحجر - بين الحجاز وتبوك في الشمال الغربي للجزيرة العربية شرق خليج العقبة عند اتصاله بالبحر الأحمر.

وشكل ٢٦ يبين شجرة النسب وتسلسل الأبناء وبافتراض أن كل جيل كان يرتحل إلى أرض مجاورة حتى وصل في النهاية إلى الحجر حيث توجد مدائن صالح.

ومن ولد ثمود حاذر ثم عبيد ثم ماشع ثم أسف ثم عبيد وهو أبو صالح عليه السلام.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن هذه المنطقة كانت كما هي الآن منطقة بها كثير من الصحاري ، فإن بادية الشام ومنطقة شرق الأردن كانت ممطرة وفيها من المراعي ما يجعلها منطقة جذب للقبائل النازحة ، ولذلك فإن القبائل المتفرعة من ثمود واصلت سيرها جنوباً حتى وصلت إلى المكان المسمى حالياً مدائن صالح.

وهناك خلاف في شجرة النسب فإن البعض يضع إسم جابر بدلاً من حاذر وبعضهم يجعل صالحاً ابن عبيد الأول في سلسلة النسب بدلاً من عبيد الثاني الذي هو ولد أسف ابن ماشع ولو كان كذلك لكانت سلسلة النسب قصيرة جداً بالنسبة لسلسلة نسب هود ولوجب أن يسبق صالح هوداً في الزمن مع أن القرآن الكريم ينص على أن ثمود لاحقاً لعاد قوم هود لقوله تعالى مخاطباً قوم صالح:

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ويوأكم في الأرض » . (٧٤ - الأعراف)

كما أن البعض يفسر كلمة خلفاء أي خلفاء له أي بذوة وينكح يجعلون ثمود أبناً لعاد مع أن كلمة خلفاء لاتعني بالضرورة البذوة ، فإن عاد وثمود أولاد عم ولكن قبيلة ثمود عاشت إلى ما بعد هلاك عاد فهم من ناحية الزمان خلقوهم وخلفاء لهم .

كما أن بعضهم يتخذ من هذه الآية ميّزاً للقول بأن الأحقاف - مكان عاد - تقع في الشمال الغربي للجزيرة العربية وبعد هلاك عاد كانت ثمود خلفاء لهم في المكان أيضاً أو في مكان مجاور . ويمكننا القول أيضاً أن خلفاء لاتعني بالضرورة شغل نفس المكان ، فالتأخر في



شكل ٣٦ - شجرة النسب وتسلسل أماكن الأبناء من سام إلى صالح عليه السلام

الزمان تكفى لأن توصف ثمود بأنهم خلفاء من بعد عاد .

ويقول بعض المستشرقين من أوروبا أن أصل ثمود قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين . وهذا خطأ فإن ثمود هلكت قبل خروج موسى من مصر بزمان طويل . ويدل على أن رجلا مؤمنا من آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم .

ويدعى أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من ضواحي عاد . وبذلك تكون ثمود خلفاء لعاد في المكان أيضا . وتوجد في أرض حضرموت مدينة تسمى ثمود ، ولكن سبق أن قلنا إن خلفاء لا تستدعى بالضرورة أن يخلفوهم في المكان أيضا بل يكفى تأخر زمانهم ليكونوا خلفاء لهم ، ولو كانت خلافة مكاتبة أيضا لاستلزم أن يقال وبوأكم أرضهم . ولكن لأنها كانت خلافة زمانية فقط فقال خلفاء . كما أن المدة الزمانية بعد هلاك عاد ما كانت تكفى لقيام قوم آخرين في نفس الأرض ويتكاثروا حتى ليملئوها . ولابد أن كارثة عاد ستظل في ذكراهم ، فكان يستلزم أن ينقضى زمن طويل حتى ينحرفوا إلى الكفر ويستدعى الأمر إرسال نبي آخر . كل هذا ينفي أن ثمود كانت بحضرموت .

والرأي المرجح هو أن عاد كانت بحضرموت ، وثمود كانت في المنطقة المعروفة حاليا في الخرائط بمداثن صالح .

قال الإمام أحمد ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جويرة ، عن نافع بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس وهو ذاهب إلى تبوك (في سنة تسعة من الهجرة) نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب بها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور . فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور ، وطفقوا المعجين الإبل . ثم ارتحل بهم ، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة . ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إنني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » . وأصل هذا الحديث مخرج في المسيحيين من غير وجه .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن أبي الزبير عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهد الله من تحت أديم السماء منهم . فهذه الأحاديث تؤكد أن الرسول ﷺ مر بها في طريقه إلى غزوة تبوك فهي في المكان

الموضح بمدائن صالح بالخرائط الجغرافية .

وكانت أراضي ثمود خصبة . ولذلك كانت ثمود فى رفاهة حال . وكانت لهم ماشية كثيرة ، وجنات وعيون وأفرة ، يستقون منها هم وماشيتهم وزرعهم . ولعلمهم ظلوا على ديانة التوحيد - التى كان عليها سام وأبناؤه . ولكنهم بعد فترة ضلوا الطريق ، وعبدوا الأصنام ، ومن الأصنام التى يقال إنهم عبدوها نوثى - عمن - منوت - قيس - هبل .

وكانوا يبنون بيوتهم من الحجر والمدر فتتهدم بعد فترة فاتخذوا من الجبال بيوتا ، فنصقوا فيها وحذقوا صنعها وأتقنوها .

وأصطفى الله منهم صالحا ليكون نبيا ومبلغا لرسالة ربه إليهم . وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عامر بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانت دعوتة ، مثل دعوة كل الأنبياء ، هى عبادة الله وحده ونبت عبادة الأصنام .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .
(٧٣ لأعراف ، ٦٦ مود)

« ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله » .
(٤٥ - النمل)

ونذكرهم صالح بنعم الله عليهم قاتلا .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخون سهولها قصورا ، وتتحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »
(٧٤ لأعراف)

وقال لهم إنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم إلى الله ، لأن أجره على الله

« وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين ، أفتكون فى ماها هنا آمنين فى جنات عيون ، وزروع وتخل طلعا هضيم ، وتتحتون من الجبال بيوتا فارحين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المفسدين ، الذين يفسدون

(١٤٥-١٥٢ الشعراء)

في الأرض ولا يصلحون .

ومثل الكافرين في كل زمان إتهموه بالسحر .

« قالوا إنما أنت من المسحورين ، ما أنت إلا بشرٌ مثننا » . (١٥٢ الشعراء)

واتهموه بالكذب . واستنكروا أن يُختار هو لهذا الأمر من دونهم . مع أنهم هم أشرف القوم ورؤسائهم .

« كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشرا متا واحدا نتبعه . إنا إذا لقي ضلال وسعُر . ألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشير . سيعلمون غدا من الكذاب الأخر » . (٢٢-٢٦ القمر)

كلعادة كان أول من آمن به الضعفاء ورقيقى الحال ، وكذبه عليه القوم ووجهواهم واستنكروا أن يؤمن هؤلاء الضعفاء بأن صالحاً رسول مرسل من رب العالمين . ولعلمهم استنكفوا أن يكونوا سواء مع هؤلاء الضعفاء ورقيقى الحال في الإيمان برسالة صالح . فأعلنوا أنهم لا يؤمنون بصالح ولا برسالته.

« قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، اتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا ، إنا بالذي آمنتم به كافرون » . (٧٥-٧٦ الأعراف)

والبح في دعوتهم.

« قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » . (٦٢ - هود)

وكنت من أوسطنا نسباً وحسباً . وكان هناك أمل أن تصبح من الكبراء والرؤساء ، لولا أنك أتيت بهذا الذي تدعوا إليه.

« اتتهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا وإتنا لقي شك مما تدعونا إليه مريب ، قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة فمن يتصرني من الله

وأكثر ما يجعل الإنسان متكبرا جبارا في الأرض هو أن يعتقد أنه ليس هناك حساب في حياة أخرى ، وأن الحياة هي هذه الحياة الدنيا ولا شيء غيرها ، فذلك يجعله يريد أن يستزيد من نعيمها وترقيتها ، فيروح يجمع الأموال من هنا وهناك ، من حلال وحرام ، فكل مال تصل إليه يده هو ماله . حتى لو كان إغتصابا من مال الآخرين . فالقوة هي الحق في عرقه . ويريد أن يستزيد من ترف حياته ، ولو على حساب إتعاس الآخرين . وهكذا يعيش في الأرض فسادا ، ولا يعتقد في جبار عادل يحاسبه على أعماله ، سواء في الدنيا أو في حياة أخرى . ولو كان الناس كلهم هكذا لكان هذا صراع الغاب ، القوى يأكل الضعيف ويسود البؤس ويكثر السرعى . ولا فرق حينئذ بين بنى البشر والوحوش ، وكان هذا حال ثمود قوم صالح ، وحكى القرآن عنهم . إذ جاء بعد سرد قصة نوح عليه السلام قوله تعالى :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا أن إعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثكم ، يأكل مما تاكلون ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطلعتم بشرا مثكم إنكم إذا لخاسرون ، أيعبدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل إفتوى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين ، قال رب أنصرني بما كذبتون ، قال فما قليل ليصبحن نادمين » .

(٣١-٤٠ المؤمن)

إلى هنا والكلام ينطبق أيضا على عاد قم هود فهم كانوا بعد قوم نوح ولكن ما يجعل الكلام ينطبق على ثمود هو تكملة الآيات وقوله تعالى

« فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » .

(٤١-المؤمن)

فإن من أهلكوا بالصيحة هم ثمود قوم صالح . وقول قرنا في أول الآيات لاتعنى بالضرورة الخلفاء المباشرين ، بل إن آخرين في قوله « قرنا آخرين » بصيغة الجمع يدل على أن قرنا تعنى قرونا ، وتدل على التباعد بعض الشيء عن عهد نوح عليه السلام .

فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتليغ ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير ، سألوه أن يريهم آية وأن يأتي بمعجزة تكون مصداقاً لما يقول فقال: اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ، ثم سألهم أي آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيونا ، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة ، فتقدموا إليه فلن استجيب لك اتبعناك ، وقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة . وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها وتعتتوا فيسها ، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا - فإن فعلت ذلك صدقناك وأمنّا بك . فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وأمنوا به ثم إن صالحاً عليه السلام ، صلى ودعا الله بذلك ، فتمخضت الصخرة ثم تحركت الهضبة فاصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه ، لا يعلم ما بين جنبتيها إلا الله تعالى عظماً ثم تنحت سقبا (فصيلها أي ولد الناقة) مثلها في العظم فأمن به عدد كبير من الناس ، وكذب آخرون وجحدوا بها ، وكان من بين من آمنوا به رجل يسمى جندع ، وكان من أشرافهم ، ودعا بقية الرؤساء ليؤمنوا فلم يلبوه.

وكان تحقيق هذه المعجزة إختياراً لصدقهم في ما وعدوا به من الإيمان إن تحققت

« إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » .
(٢٧ - القمر)

فلما خرجت الناقة قال صالح :

« ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فيأخذكم عذاب قريب » .
(٦٤ - مود)
وأضاف الناقة إلى الله ، إضافة تشريف وتعظيم ، ولأنها كانت معجزة الله حققها لهم إذ سألوها ، دليلاً على صدق دعوته.

فمكثت الناقة ومعها سقبيها في أرض ثمود ، ترعى الشجر وتشرب الماء - وكانت ترد الماء يوماً ولهم يوم

« قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم » .
(١٥٦ - الشعراء)

قالوا فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فيرتفع الماء إليها ، فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها ، ولا تدع قطرة ماء في البئر ، ثم تروح عليهم فيحلبون من لبنها ماشاءوا فيشربون ويدخرون ويمالون أوأنيهم فإذا كان الغد من يومهم ، تكون البئر قد إمتلأت فيشربون ماشاءوا ويدخرون ماشاءوا قدر كفايتهم ، وكانوا من ذلك في سعة ودعة.

وكانت الناقة في الصيف إذا هبط الحر تطلع ظهر الوادي ، فتهرب منها أغناسهم ويقرهم وإيلهم ، وتهبط إلى بطن الوادي في حره ، وإذا كان الشتاء سبقت الناقة في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد . فأضر ذلك بمواشيهم ، وكان ذلك من الله تعالى هو البلاء والاختبار . فكبر ذلك عليهم ، فأجمعوا على عقر الناقة.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن إمرأتين من ثمود ، إسم إحداهما صدوق ، وكانت ذا حسب ومال ، وكانت تحت رجل ممن أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مخرج ، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة . وإسم الأخرى عنيزة ، وكانت عجوزا كافرة ، فعرضت بناتها الأربع على رجل يدعى قدار بن سالف ، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء . فانتدب هذان الشبان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرين فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى :

« وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » .

(٤٨ النمل)

فانطلقوا يرمسون الناقة ، فلما صدرت من وردها أى ارتوت ، كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وشد عليها قدار بن سالف السيف في عرقوبها ، فخرت ساقطه إلى الأرض ورغت رغاء واحدة مضطربة ، تحذر ولدها ، ثم طعنوها في لبتها فنحروها .

وانطلق فصيلها فصعد جبلا متيها ، ويقال إنه دخل في صحرة فغاب فيها . ويقال إنهم إتبعوه فعقروه أيضا .

(٢٩ - النمل)

« فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » .

« إذ أنبئت أشقاما ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها » .

(١٢ - الشمس)

وقال محمد ابن اسحق ، حدثني يزيد بن محمد بن خيثم ، عن محمد بن كعب ، عن يزيد بن عمار بن ياسر قال ، قال رسول الله ﷺ لعلي: ألا أحدثك بأشقى الناس ، قال بلى ، قال رجلان ، أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه - يعني لحيته - رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى .

« فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » .
(٧٧ - الأعراف)

ويلغ الخبر صالحا عليه السلام بأنهم عقروا الناقة ، فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى ، وقيل كان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فقال لهم: تمتعوا ثلاثة أيام ثم ياتيكم العذاب ، بما إنتهكتم من حرمة الله . قراحوا يهزؤون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب . فأخبرهم أن آية هلاكهم أنهم يصبحون وجوههم مُصفرة ، وفي اليوم التالي تكون وجوههم مُحمرة ، وفي اليوم الثالث تكون وجوههم مُسودة . ثم ياتيهم العذاب.

« فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكثوب » .
(٦٥ - هود)

وندم بعضهم على قتل الناقة ، ولكن ماذا يجدي الندم وقتئذ !!

« فعقروها فأصبحوا نادمين »
(١٥٧ - الشعراء)

ولما أمسى أولئك التسعة رهط ، عزموا على قتل صالح ، وقالوا إن كان صادقا عطلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا الحقناه بناقته.

فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا إلى صالح يرصدون الفرصة للإيقاع به وأهله فأهلكهم الله ، قيل إن الملائكة دمغتهم بالمجارة فأهلكتهم ، وأراد قوتهم قتل صالح لأنهم إتهموه بقتلهم فمنعهم قومه.

وقال البيضاوي: رُوي أنه كان لصالح مسجد في شعب (الشعب هو الطريق بالجبل) يصلى فيه ، فقالوا: زعم أنه يفرع منا في ثلاث - أي بعد ثلاثة أيام - فلنفرغ منه ومن أهله

قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ، فوَقعت عليهم صخرة فماتوا ، وأتَّهم قومهم صالحا بأنه هو الذي قتلهم ، وأرادوا قتله فمَنعه أهله

« قالوا تقاسموا بالله لنبيئته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظرو كيف كان عاقبة مكرهم ، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . (٤٩-٥٣ المل)

وقالوا في تفسير التسعة رهط - الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، والذين أزمعوا قتل صالح - قصة أخرى .

قال الثعلبي - قال السدي وغيره : أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة ، فقال لهم ذلك ، فقالوا ما كنا لنفعل ذلك فقال لهم . إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون ملاككم على يديه . فقالوا لا جرم لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلا قتلناه . فوَكَّدَ لتسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبَّحُوهم ، ووَكَّدَ للعاشر ابن غائب أن يذبح ابنه ، وكان بكراهة . لم يولد له قبل ذلك شيء . وكان ابن العاشر أزرق أحمر ، ونما نموا سريعا ، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم ، وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم ، فاتَّسموا بالله لنبيئته وأهله (وبَيَّت الشيء عمله ليلا أو دبره ليلا أو فكر فيه ، وبَيَّت القوم أوقع بهم ليلا بقتله) أي أقسموا بالله ليهاجموه ليلا ويقتلونه وحتى ينفوا عن أنفسهم هذه الفعلة ، قالوا : نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنلتى الغار فنكمن فيه . حتى إذا جاء الليل وخرج صالح إلى مسجده أتينا فننقذه ، ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ، ثم ننصرف بعد ذلك إلى رجالنا ونعود فنقول لوليه « ما شهدنا مهلك أهله » فيصدقوننا لأنهم يظنون ، ورأونا ، قد خرجنا في سفر .

وكان صالح لا ينام الليل في القرية معهم ، بل كان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه في الليل . فإذا أصبح أتاهم ووعظهم ، فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه ، قيل : فلما دخلوا الغار وأضمرُوا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه ، سقطت عليه صخرة من الجبل فقتلتهم ، وانطلق رجل ممن كان قد إطلع على ذلك إلى الغار فإذا هم قتلى ، فرجع يصيح في القرية . يا عباد الله ، ما قنع صالح أن أمرهم يقتل أولادهم حتى قتلهم ، فأراد القوم قتل صالح فمَنعه أهله وشيعته .

وبعضهم يروى هذه القصة قبل قتل الناقة وأنه بسبب هلاك هؤلاء التسعة ، أجمع الباقون

على قتل الناقة.

قيل إن عقر الناقة كان يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النُّظْرَة ووجوههم مُصْفرة كما أُنذِرهم صالح عليه السلام ، ثم أصبحوا في اليوم التالي وهو يوم الجمعة ووجوههم مُحمرّة ، ثم أصبحوا في اليوم الثالث - السبت - ووجوههم مسودة ، فلما أمسوا نادوا ، ألا قد مضى الأجل ، فلما كان صبيحة يوم الأحد تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب لا يدرون كيف يُفعل بهم ، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب ، فلما أشرقت الشمس جاعتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجعة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات ، وأصبحوا في دارهم جاشمين ، جثا لا أرواح فيها ولا حراك.

« فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فاخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاشمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تهيبون الناصحين . »

(٧٧-٧٨ الأعراف)

« فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكثوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاشمين ، كأن لم يفتوا فيها . ألا إن ثمود كفروا بربهم ، ألا بعدا لثمود . »

(٦٥-٦٨ مود)

« فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . »

(٢٩-٣١ الشعرا)

« فاخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . »

(٨٣-٨٤ السج)

ولعلمهم ظنوا أن بيوتهم - وهي منحوتة في الجبال تحميهم إن كان عذاب الله ريحا صرصرا كالريح التي أهلكت عاد ، ولعلمهم ظنوا أن يسئوا أبواب البيوت بصخرة تحجب عنهم الريح ، وفاتهم أنهم مهما ظنوا أنهم في بيوتهم آمنين ، فإن عذاب الله واقع بهم لا محالة ، وكانت الصيحة والصوت العظيم الذي تنتشر وتتسلل موجاته لأى مكان فتमितهم - وقد يرى البعض أن

الموجات الصوتية هي التي أَمَاتَتْهُمْ ، وخاصة أننا نرى في عصرنا أن الموجات الصوتية تستخدم في الطب لتقنيات حصوات الكلى ، ولكن الرأي السليم هو أن الصيحة ما كانت إلا تعبيراً عن أمر الله - وكان أمر الله هو هلاكهم ، وعبر عنها القرآن الكريم في مكان آخر بالرجفة في قوله تعالى:

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ » . (٧٨ الأعراف)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة ثالثة بالصاعقة في قوله تعالى

« وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، فَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ فَاتَّبَعَتْهُمَا السَّاعِقَةُ وَهُمَا يَتَظَرَّوْنَ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » . (٤٢-٤٥ الداريات)

وفي قوله تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . (١٢ فصلت)
وفي قوله أيضاً :

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » . (١٧-١٨ فصلت)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة رابعة بالطاغية في قوله تعالى :

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ » . (٥ العنكبوت)

وقيل في تفسير الطاغية ، هي الصيحة وأن أثرها يطنى على المكان والأماكن المجاورة ، وقالوا الطاغية هي الذنوب - أي أهلكوا بذنوبهم - وقال الله تعالى

« كَذَبْتَ ثَمُودَ بِطَغْوَاهَا » (١١ - الشمس)

أي كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى ، وأهلكوا بالطاغية أي بسبب

هذا الطغيان . وقيل بسبب الطاغية الذي قتل الناقة ووافقوه على فعله .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء ما ملخصه أن الصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين مختلفتين بالإيجاب والسلب فى سحبتيين أو بين سحابة موجبة والأرض وهى سالبة فتنتج شرارة كهربائية هى البرق . يصحبة تدافع الهواء فى موجات تسبب موتاً هو الرعد . وقال فى النهاية - فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق . وقد أثار هذا القول لجنة ألقت بأمر شيخ كلية أصول الدين . وقالوا إنه قد استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة . إذ أنهم قسروا قوله هذا على أن هلاك ثمود لم يكن بمجهزة بل كان بصاعقة قد تكون شديدة إلا أنه يحدث مثلها فى الطبيعة فى أحيان كثيرة .

ورد هو على رأى اللجنة رداً به إصرار على رأيه ثم راح يحاسبهم على ما جاء من أقوال المفسرين القدماء ، فى وقت لم يكن فيه العلم قد تقدم ولم تكن ظاهرة البرق والرعد والصواعق قد فهمت أسبابها ولا كيفية حدوثها ، وكان إجتهد المفسرين فى ذلك الوقت أن قالوا: الرعد ملك موكل بالسحاب ، معه كُرٌّ من حديد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعى إبله ، فكلما خالف سحاب صاح فزجره ، فالذى يُسمع هو صوت الملك . وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك ، طار النار من فيه وهى الصواعق . وقالوا إن البرق هو ضرب الملك الذى هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد .

وكان الزمخشري أقرب إلى الحقيقة فى تفسيره إذ قال: الرعد الذى يُسمع من السحاب هو أجرام (أى أجزاء) السحابة تضطرب وتتلفز إذا حدثت أى ساقطها الريح . والصاعقة قصفة من رعد تنفخ منها شقة من نار لطيفة لاتمر بشيء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدثها سريعة الخمول ، على أنها متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها .

من هذا نرى أن المفسرين كانوا يجنهدون حسب ما هو متاح لهم من العلم والمعارف ، فقد تغير تفسيرهم من أن هناك ملك موكل بالسحاب إلى إصطكاك أجزاء السحابة ببعضها وهو قريب جداً من التفسير الحالى الذى يقول إن بعض أجزاء السحابة يكون ذا شحنة كهربائية موجبة ، وشحنة جزء آخر سالبة . ويحدث تفريغ كهربائى بينهما فتحدث ومضة كهربائية هى البرق ، وذبذبات الهواء التى تصاحبها يصدر عنها صوت الرعد ، وإن كان التفريغ الكهربائى بين سحابة موجبة والأرض التى هى سالبة انقضت الشرارة الكهربائية من السحابة إلى الأرض وكانت الصاعقة . ذلك هو التفسير العلمى .

تلك هى الظاهرة الطبيعية لحصول الصاعقة ونحن نرى فى عصرنا صواعق تنقض على الأرض فتحرق بيتاً أو تقتل إنساناً أو حيواناً . ولكن المعجزة أن تحدث صيحة أو رجفة يعقبها

هالك جميع الكافرين من ثمود وبنحو المؤمنين وتبقى مساكنهم قائمة ، ولا توجد صاعقة من الظواهر الطبيعية تقتل الأشخاص دون أن تحترق بيوتهم ، والصاعقة العادية تقتل الشخص إذا أصابته وهو بالعراء ، أما إذا كان داخل البيت فإن أعلا البيت هو الذى يتلقى الشرارة الكهربائية الحارقة . ويكفى أن يوضع عامود معدنى مدبب فوق المبنى ليتلقى هذه الشرارة وهو ما يسمى بمانع الصواعق - ليحمى البيت من الاحتراق.

ولكن صاعقة ثمود أهلكتهم ولم تحترق بيوتهم فأصبحوا فيها جاثمين وتلك بيوتهم خاوية ، لم تحترق فهى إذن « صاعقة » غير عادية كما أنه لا توجد صاعقة عادية تُفَرِّق بين المؤمن والكافر ، كما أن التعبير بالصاعقة مرة وبالرجفة مرة ثانية وبالصيحة فى مرة ثالثة ، كلها تدل على حدوث شيء واحد ، هو أمر الله لهم بالهلاك ، وما دلم قد أتى أمر الله فليس لنا أن نبحث فى تفسير كيفية حدوثه ، فلا هو تفريغ كهربائى مثل صواعقنا ولا هو رجفة شديدة كما يحدث فى الزلازل ولا هو تضاعف موجات صوتيه كما يحدث فى انفجار أو صيحة شديدة ، بل هو أمر الله قد أتاهم.

وكما جاء فى القاموس المحيط والمعجم الوسيط - فإن الموت وكل عذاب مهلك يُعَبَّرُ عنه بالصاعقة - ويمكن إضافة أنها الشيء يحدث فجأة وعلى غير توقع ، كقوله تعالى:

« ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » .
(٦٨ - الروم)
وقوله تعالى عن الساعة: « لاتأتىكم إلا بغتة » .
(١٨٧ الأعراف)

فنفخة الصور التى تصعق كل من فى السموات والأرض شيء من أمر الله لا ندرك كنهه . كذلك الصيحة التى أهلكت ثمود . كانت شيئا من أمر الله ، ليهلك الكافرين ، وحدث ذلك فجأة وعلى غير توقع منهم ، فكأنهم صعقوا ، فكانت صيحة ورجفة . جاءت فجأة كالصاعقة . فكانت جزاء لما ارتكبوا من طغيان وتكذيب لنبيهم.

قالوا ، ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كاسرع شيء . فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها وأستسقتهم ماء وبعد ما شربت ماتت .

ويقال أيضا إن رجلا كافرا من قومهم كان فى الحرم ، فمنعه حرم الله من العذاب ، فلما خرج من حدود الحرم أصابه ما أصاب قومه فمات . ويقال إن اسمه أبو رغال ، ويقال إنه أبو

ثقيف.

وعن محمد بن اسحق في السيرة ، عن اسماعيل ابن أمية ، عن بجير بن أبي بجير ، سمعت عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمرنا بقبر فقال: إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بالحرم يدفع عنه العذاب ، فلما خرج منه أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه عصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصيتموه . فابتدره الناس فاستخرجوا منه العصن . هكذا رواه أبو داود من طريق محمد ابن اسحق ، قال الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن ، وقال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير اسماعيل بن أمية ، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث.

« فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » . (٧٩ - الأعراف)

كان هذا خطاب صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ في الذهاب عن محلّتهم إلى غيرها

وقال بعض المفسرين إن صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم - إلى ناحية الرملة من فلسطين

ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها ، ويقولون إن أصلهم من تلك الناحية وأنهم فصيلة من أهل الأحقاف ، وهناك قبر يزعمون أنه لصالح ، وقرية يسمونها ثمود وقال آخرون إنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم.

وقال آخرون إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم عريى الكعبة.

وأرجح الأقوال هو أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحي فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم ، كذلك لو قبلنا ما سبق أن أوضحناه في شكل ٣١ عن الطريق التي سلكته القبائل من نسل أرام في ارتحالها حتى وصلت إلى الحِجْر فكانت قبيلة الأب والجد - عبيد وأسف - موجودتان في هذه الناحية ومن المنطقي أن يلجأوا إليها بعد هلاك قومهم.

وجاء في تفسير الألوسي أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين أما الهالكون فكانوا خمسة آلاف.

وتكاثر التموديون التاجون من الهلاك فى هذه المنطقة من شمال غرب الجزيرة العربية غير بعيد من الحجر - وظلوا يعرفون باسم التموديون حوالى الألف عام بعد ذلك ، والكتابات الآشورية منذ القرن الثامن قبل الميلاد يأتى فيها ذكر التموديين . ويقول الدكتور محمد بيومى مهران فى كتابه - إن الملك سرجون الثانى (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) يذكرهم بين من تحدث عنهم من قبائل خاض غمار الحرب ضدها ، وقد دعاها باسم تامودى Tamudi - Thamudi بل إنه يذكر كذلك أنه هجرهم إلى السامرة من بين من هجر من شعوب . ويقول الملك الآشورى فى كتاباته طبقا لوحى صادق من آشور إلهى ، قضيت على قبائل تامودى ، والعرب الذين يعيشون بعيدا فى الصحراء والذين لم يكونوا قد جاؤا بجزأهم ، سببت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة.

وقصة التهجير هذه بدأت بعد أن نجح الملك الآشورى فى القضاء على إسرائيل واحتلال العاصمة السامرة فى آخريات عام ٧٢٢ ق.م وهجر سكانها إلى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الآشورية - وهو ما يعرف بالنسبة الآشورية ، وأتى بقوم آخرين من بلاد كان قد استولى عليها ليحلوا محلهم . ومن بين هؤلاء كان التموديون ، أتى بهم وأسكنهم السامرة كما جاء فى كتاباته.

أما مدائن صالح نفسها فقد سكنها بعد مدة ، أقوام آراميون ، ووُجدت كتابات آرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء . ويقول جرجى زيدان فى كتابه - العرب قبل الإسلام - إن مدائن صالح « الحجر » دخلت قبل الميلاد فى حوزة النبطيين Nabatians (أسمهم مشتق من نسبتهم إلى نابت - أحد أبناء إسماعيل عليه السلام كما سيجىء فيما بعد) . ووُجدت أيضا قبور عليها كتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى الميلاد . أشهرها قبر الباشا ونقش على حجر عليه ما يلى: هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهم وذريتهم . فى أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين ، محب نو الشرى والللات وعمند ومنوت وقيس . تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا خير كمكم وإبنتها وذريتها..

ويتضح من هذه الكتابة أن الأقوام كانوا يعبدون الأصنام ومنهم نو الشرى - اللات - عمند - منوت - قيس.

وهكذا عاد الصلال ليكتنف هذه المنطقة مرة أخرى ، ولزم أن يُبعث نبي آخر ليرفع حجب الظلام ويعيد الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد.

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - تبويب أى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية - دكتور أحمد إبراهيم مهنا - أربعة أجزاء - ١٩٧٠ - مطابع دار الشعب - من كتاب وضعه باللغة الفرنسية حول لا يوم وترجمه محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٢٤.
- ٣ - تفسير القرآن العظيم - للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي - أربعة أجزاء - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ١٩٨٠.
- ٤ - روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسى البغدادى ثلاثون جزءاً - إدارة الطباعة المنيرية - محمد منير الدمشقي ١٩٣٠.
- ٥ - الكتاب المقدس - العهد القديم والعهد الجديد - مترجم من اللغات الأصلية - دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.
- ٦ - محمد رسول الله والذين معه - عبد الصمد جودة السسمار - ٢٠ جزء - دار مصر للطباعة.
- ٧ - قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت - ١٩٩١.
- ٨ - قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لابن اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبي - مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة.
- ٩ - البداية والنهاية - أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي - دار الريان للتراث ١٩٨٨ - ثمانية أجزاء.
- ١٠ - أنبياء الله - أحمد بهجت - دار الشروق - ١٩٩٢ - الطبعة العشرون.
- ١١ - الروح - ابن القيم - السلام العالمية للطباعة والنشر.
- ١٢ - الله - عباس محمود العقاد - كتاب الهلال العدد ٢٠٧ يونيو ١٩٦٨.
- ١٣ - الألوهية وفكر العصر - حامد عوض الله - المركز الثقافى الجامعى - سلسلة كتب الدراسات العلمية - القاهرة - ١٩٧٦.
- ١٤ - الديانة المصرية القديمة - تأليف ياروسلاف تشرنى - ترجمة دكتور أحمد قدرى - مشروع المائة كتاب - وزارة الثقافة - ١٩٨٧.
- ١٥ - ديانة مصر القديمة - تأليف أدولف إيرمان - ترجمة الدكتورين عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى - وزارة المعارف العمومية - إدارة الترجمة - مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده.
- ١٦ - تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - بقلم الاستاذ محمد شفيق غربال - مكتبة النهضة العربية

- ١٧ - مصر في العصور القديمة : تأليف ابراهيم تمير سيف الدين - زكى على - أحمد نجيب هاشم - مكتبة مديولى - ١٩٩١ .
- ١٨ - الشرق الأدنى القديم - دكتور عبد العزيز صالح - الجزء الأول - مصر والعراق - الطبعة الرابعة - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٩٠ .
- ١٩ - حضارة مصر القديمة وأثارها - دكتور عبد العزيز صالح - الجزء الأول - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٩٢ .
- ٢٠ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الدكتور محمد بيومى مهران - أربعة أجزاء - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - ١٩٩٥ .
- ٢١ - مؤلفات جرجى زيدان العامة - المجلد ١٠ - العرب قبل الإسلام - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٢ .
- ٢٢ - من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن - رؤوف أبو سعده - الجزء الأول والثانى - دار الهلال - ١٩٩٣ - ١٩٩٤ .
- ٢٣ - معالم تاريخ الانسانية - هـ . ج . ويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - أربعة أجزاء - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .
- ٢٤ - الأطلس العربى - وزارة التربية والتعليم - جمهورية مصر العربية - الاصدار الثامن - ١٩٨٩ .
- ٢٥ - الأنهار العظيمة فى العالم : تأليف أن تيرى هوايت - ترجمة العميد محمد عبد الفتاح ابراهيم - سلسلة كل شىء عن - العدد ١٧ - دار المعارف بمصر - ١٩٩٦ .

26. Man, Civilisation & Conquest.

Argaret Sharman.

World span 1. Evans Brothers Ltd.

London, Third impression, 1973.

27. Atlas of World History. 3 parts

Colin & Sarah McEvedy.

Jarrold & Sons Ltd., Norwich

London 1970.

28. Philips New School Atlas of Universal

History. Ramsay Muir & George Philip.

14th edition. George Philip & Sons Ltd.

London, 1939.

هذا الكتاب

تُذكرُ قصصُ الأنبياء - عليهم السلام - في سورِ عدَّةٍ من القرآن الكريم وهو ليس بتكرار كما قد يُظنُّ لأول وهلة . وإنما هي نظرات متعددة من زوايا مختلفة لإلقاء الضوء في كل مرة على شيء جديد . فمرة يكون التركيز على مبدأ التوحيد . ومرة ثانية تُذكر عاقبة المكذَّبين . وفي ثالثة توضيح لثواب المؤمنين . وهذه النظرات من زوايا متعددة تؤدي إلى تجسيد الحدث أمامنا . فكأننا نعاصره . ونعيشه بكل وقائعه وتتفاعل مع عناصره . ونستجيب للعبرة المقصودة . والقيمة المستهدفة .

وإضافة الخلفية التاريخية يزيد من حيوية المشهد : أين عاش الأنبياء ؟ وما موقع بلدانهم على الخريطة الجغرافية ؟ إلى أين ارتحلوا ؟ وأي الطرق سلكوا ؟ مَنْ قومهم ؟ وَمَنْ الملوك الذين عاصروهم ؟ ...

هذا البعد التاريخي هو الجديد الذي أضافه هذا الكتاب .

لم يكن الأمر سهلاً ... مما لك تزول . وأخرى تنشأ مكانها وتزدهر ... مدن تنتشر . وأخرى على أنقاضها تُبنى وتُعمَّر ... وتتغير أسماء الدول وأسماء المدن على مر العصور والأزمنة ... ومن جراء ذلك زاد حجم المعلومات ، فاستحال أن يضمَّ مجلد واحد قصص جميع الأنبياء . فصدر هذا الجزء . وبإذن الله تصدر الأجزاء الأخرى تباعاً . ولا يمكن التكهّن بعدد الأجزاء الباقية . فإن النهج الذي يسير عليه هذا الكتاب - وهو التوثيق التاريخي للأحداث - يوجب أن تستوفي الموضوعات حقها من البحث والتحقيق والتدقيق .

وأرجو من الله العون والتوفيق .

المؤلف

To: www.al-mostafa.com